



التكلف في التفسير عند المعاصرين

(الأسباب والآثار)

إعداد

محمد موسى محمد باموسى

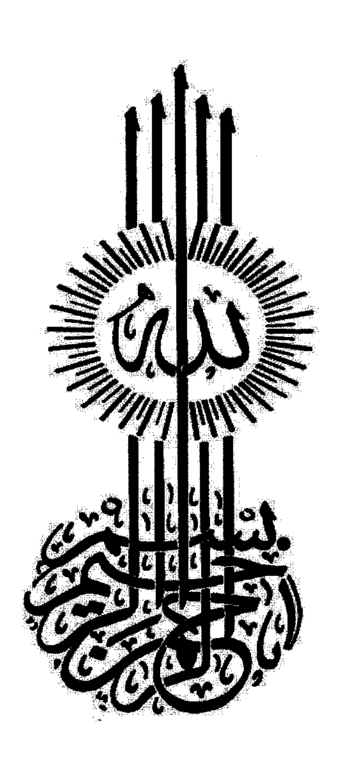
محاضر بجامعة القرآن الكريم - حضرموت - اليمن

تقديم

أ.د. محمد بن سريع السريع

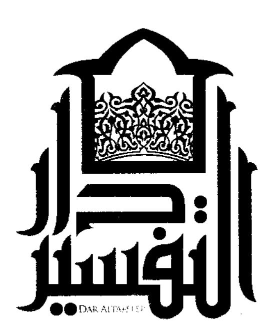
رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)




الله
بسم الله الرحمن الرحيم


التكلف في التفسير عند المعاصرين
(الأسباب والآثار)

الطَّبعَة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الأندلس (١) شارع محمود نصيف / رقم ٥٧ / فيلا رقم ٢٧
ص.ب ١٢٢٤٩٧ ـ الرمز البريدي: جدة ٢١٣٣٢
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦٦١٢٦٦٨٨٨٢٣

كلمة الناشر

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آله والصحابة أجمعين، وبعد:

فإن كلمة التكلف تعني المشقة في فعل، أو قول لا يكون فيه مصلحة، ولذلك يغلب عليه التصنع، والاختلاق وقد نفى الله عز وجل عن رسوله ﷺ أن يكون كذلك، فقال عز سلطانه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

ويأتي هذا البحث القيم (التكلف في التفسير عند المعاصرين الأسباب والآثار) للأستاذ/ محمد مؤمن محمد بامؤمن؛ ليعرض لهذه القضية المهمة، ذلك أن كثيراً ممن يتناولون القرآن بالتفسير من المعاصرين يلوون أعناق النصوص القرآنية بما يتوافق مع هواهم اعتماداً على معنى لغوي بعيد دون مراعاة لسياق الآيات القرآنية الواردة فيه، وهذه جرأة على نصوص القرآن تجعلنا نشك في الدوافع، فقد كان السلف الصالح من أهيب الناس عند سؤالهم عن معاني القرآن، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول وقد سئل عن آية من كتاب الله عز وجل: (أي أرض تقلني أو سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم)، ولما أتى علينا هذا الزمان، واستهان الناس بالكلمة، والقول في كتاب الله تعالى دون امتلاك أدوات المفسر، كان لابد أن توضح هذه القضية، ويبصر بها القارئ من خلال مثل هذه الدراسات العلمية القيمة.

ويسر دار التفسير أن تقدم للقارئ الكريم هذه الرسالة العلمية؛ لما لها من أهمية علمية في مجال التفسير وعلوم القرآن.

ونسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بها المسلمين عامة وطلبة العلم خاصة.

والله تعالى من وراء القصد،،،

د/ صلاح بن سالم باعثمان
مدير دار التفسير للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد /

فيسر **الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه "تبيان"** أن تقدم للعلم وأهله وطلابه الإصدار (٣٢) من سلسة إصداراتها من الرسائل العلمية في الدراسات القرآنية ؛ مشاركة في دعم حركة البحث العلمي ونشر المتميز من جهود الباحثين .

والرسالة التي بين أيدينا (**التكلف في التفسير عند المعاصرين (الأسباب والآثار**) لفضيلة الأستاذ : محمد مؤمن محمد بامؤمن تعالج مسألة من مسائل التفسير تجدر العناية بها ، وهي (التكلف في التفسير) وقد تناول الباحث - وفقه الله - القضية بأسلوب علمي مبيناً أسبابها وآثارها صيانة لكتاب الله ، وحفظاً له من الأقوال المتكلفة والآراء الشاذة .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الإصدار، وأن يجزي أخانا الأستاذ / محمد بامؤمن خير الجزاء على ما بذله من جهد في إخراج هذا الكتاب ، وأن يجعل ذلك في ميزان أعماله الصالحة، وأن يجزل الأجر لإخواننا المشايخ الأفاضل في اللجنة العلمية على جهودهم المباركة إنه سميع مجيب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أ.د. محمد بن سريع بن عبدالله السريع

رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية

للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)

مقدمة

الحمد لله الذي يسر لنا التكليف، ونهانا عن التكلف والتحريف، أحمده حمداً يليق بمقام ألوهيته، ويجدر بجلال ربوبيته، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، عدد ما سطرت الأقلام كتباً، وقذفت السموات شُهُباً، وغيبت الأيام حُقُباً؛ أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وأمره بالتيسير ومجانبة الغالين فقال: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١).

وأصلي وأسلم على من أرسله ربه ليبين للناس ما نزل إليهم، وليكون لهم هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً؛ اللهم صلِّ عليه صلاة تبلغه في قبره، وتقدره حق قدره، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين وبعد:

فإن أحق العلوم بالتسطير، وأولاها بالجمع والتحبير، وأعظمها في الرتبة والتقدير، تحرير علم التفسير، الذي شَرُفَ بشرَف موضوعه، إذ العلوم بشرف المعلوم؛ ولما كان التفسير موضوعه كتاب رب العزة والجلال، وصاحب الكمال والجمال، كان الاتفاق قد انعقد عند علماء الملة، وأئمة القبلة أنه من أشرف العلوم.

ألا وإن من فضل الله علي - ولا يزال متفضلاً - أن يممت وجهي في التعلّم شطر القرآن الكريم وعلومه، فدلفت من بابه، وعكفت في محرابه، وتلذذت بخطابه؛ والتحقت بالكلية العليا للقرآن الكريم، حيث تفيأتُ ظلالها، واستقيت من معينها، وعشت - بفضل الله - مع القرآن وبالقرآن وللقرآن؛ ثم حُبب إلي

(١) سورة ص الآية: ٨٦.

التفسير فتخصصت فيه، و لازمته لزوم نفَسي لنفْسي، كيف لا وهو الذي يرفع القناع عن وجوه الكلمات، و يكشف الغطاء عن بدائع الإشارات، و يضيء برونقه صدور الصفحات.

ومواصلةً للرحلة القرآنية، هاأنذا في مرحلة الماجستير التي يبدأ الطالب في إخراج نتاج رحلته العلمية، حيث يلزم بتحرير بحث يختار موضوعه بنفسه، فيجمع شتاته، ويستفتح مستغلقه، ويستكشف مستخفيه؛ وعندما أطلقت العنان للفكر في اختيار الموضوع لم يذهب بعيداً، إذ ظل في موطنه الذي طالما رتع فيه، إنه التفسير !!.. نعم التفسير وكفى !!!.

فمررتُ في واديه، فإذا هو وارف الظلال، عَذب الزلال، قد ورده العلماء قديماً وحديثاً، وتناولوا منه أبحاثاً كثيرة، غير أني وجدتها قد اقتصرت في الغالب على بيان الوجه الحسن منه أملاً في استمساك الناس به فلا يضلوا بعده أبداً؛ أما الوجه الآخر _ أعني تلك الهفوات التي وقع فيها كثير من الذين تناولوا التفسير فهو وإن كان العلماء_ رحمهم الله _ قد نبهوا عليه إلا أنه لم يحظ بالبحث مثل الأول، لذا أحببت أن يكون موضوع بحثي في هذا المجال وذلك من باب قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه * * ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه[1]

فالأشياء بضدها تتميز، إذ لا يعرف الحلو من لم يطعم المر، ولا يرى العافية

(١) البيت لأبي فراس الحمداني. كما في قُرئ الضيف لعبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس(٨٤/١)، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، دار أضواء السلف – الرياض. الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.

من لم يذق ألماً ! وسميته يوم وضعته رحم الفكر: (التكلف في التفسير عند المعاصرين)، أسأل الله أن يتقبله بقبول حسن، وينفع به أهل القرآن، ومن رام البيان، إنه سميع قريب.

أهمية موضوع البحث:

إن أهمية أي موضوع تنبثق مما يبحث فيه، ولا شك أن الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم تستأثر بأولوية الاهتمام من بين العلوم على اختلافها؛ وكون هذا البحث يتناول موضوعاً مُهمّاً يجب التنبيه عليه، وهو بيان أسباب وآثار أقوال متكلفة لا تليق بالكتاب الكريم، فإن هذا يكسب الموضوع أهمية قصوى تجعله في مقدمة الأبحاث التي ينبغي الاعتناء بها، خصوصاً في هذه الحقبة الزمنية التي حكمت العقل، وأهملت النقل، فشطح القلم، وساء الفهم، والله المستعان.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد ظل علم التفسير يشدني كلما أبحرت قارئاً في كتب التفسير؛ لكن ثمة أمور كانت تعترضني أثناء القراءة فيشمئز منها الطبع، فكنت ـ والله ـ أتمنى أن لم يسطرها أولئك لا سيما أهل الفضل منهم؛ تلك هي بعض التفسيرات المتكلفة، والتأويلات المتعسفة، والتعليلات المتفلسفة، خصوصاً عند المعاصرين؛ فكان ذلك أول الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، ومن الأسباب أيضاً:

١) كون هذا الموضوع بكراً لم يسبق إفراده بالبحث ـ حسب علمي ـ وهذا يعني أن بحثه سيكون إضافة جديدة للمكتبة القرآنية.

٢) المساهمة في الذود عن حياض كتاب الله تعالى، وذلك بتنزيهه عن الأقوال التي لا تليق به، فضلاً عن التي تسيء إليه.

٣) رغبتي الشديدة ومحبتي المتجددة في التعامل مع كتاب الله تعالى، والالتصاق به تعلماً وتعليماً، وقراءةً وإقراءاً، وبحثاً وتأليفاً.

٤) كون هذا الموضوع سيدفعني للبحث الجاد والمتعمق في كتب التفسير مما يعني الحصول على ثروة علمية أكثر في تخصصي.

٥) وجدت صاحب رسالة (أسباب الخطأ في التفسير) يجعل التكلف في حمل النصوص على مالا تحتمله هو محور المنهج الخطأ الذي سار عليه من أخطؤوا في التفسير، ثم أشار إلى كونه محوراً يصلح لأن يفرد بالبحث.

حدود البحث:

وحدود البحث قد أوضحها عنوانه، فهو يقتصر على دراسة الأقوال التي تكلفها أصحابها في تفسير لفظةٍ ما فنأوا بالمعنى بعيداً عن المراد، وذلك من حيثيتين: الأولى من حيث الأسباب، والثانية من حيث الآثار؛ هذا من جهة الموضوع، أما من جهة الفترة الزمانية فسيتناول الفترة من (١٣٠٠هـ) وحتى العصر الحاضر (١٤٣١هـ)، والذي يوافق العام (٢٠١٠م)، نسأل الله العون والسداد.

الدراسات السابقة للموضوع:

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع وجِدته، إلا أنني لم أجد من أفرده بالبحث، وحسبي أنني قد رجعت لأهل الشأن، وسألت الأقران والإخوان، ثم

اطلعت على أكثر من دليل للرسائل الجامعية؛ وغاية ما وجدت التنبيه عليه في أكثر من موضع، وأذكر من ذلك ما يلي:

١) كتب التفسير، وجدت كثيراً من المفسرين ينبهون عليه، وهم بين مكثر ومقل.

٢) كتب علوم القرآن، أشاروا إليه بعبارات مختلفة، وظهر ذلك جلياً بوصفه بالتكلف عند الدكتور الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون).

٣) رسالة دكتوراه (أسباب الخطأ في التفسير) للطاهر محمود محمد يعقوب، حيث جعل التكلف في التفسير أحد أسباب الخطأ في التفسير بل وجعله أهم الأسباب.

٤) رسالة دكتوراه (الأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها) لعبد الرحمن الدهش؛ فقد ذكر تكلف التفسير ضمن أسباب الشذوذ.

منهج البحث:

وبالنسبة لمنهج البحث فقد جعل الباحث المنهج الاستقرائي الوصفي عمدة يتكئ عليها؛ كما أن المنهج النقدي التحليلي كان له مساحة واسعة في البحث.

أما طريقة البحث فقد كانت على النحو التالي:

١) عزو الآيات إلى سورها مع ترقيمها.

٢) تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، مع الحكم عليها معتمداً في ذلك على أقوال أهل الشأن تصحيحاً وتحسيناً وتضعيفاً.

٣) عزو الأقوال إلى مصادرها الأصلية قدر الاستطاعة، فإن لم يكن فبواسطة.

٤) الترجمة للأعلام الذين ورد ذكرهم في متن البحث، إلا من كان في غنية عن التعريف كالصحابة، و لم أترجم للمعاصرين إلا من انتقل إلى جوار ربـــه، وتيسر لي ترجمته.

٥) شرح الكلمات الغامضة، والتذييل بالفوائد إن وجدت.

٦) إذا أطلقت (شيخ الإسلام) فالمراد ابن تيمية، و(الفتاوى) ففتاوى ابن تيمية، و(الحافظ) فابن حجر، و(الفتح) فتح الباري و(الذهبي)، فصاحب السير و(المعاصرين) فمن القرن الرابع عشر الهجري إلى العام الحالي (١٤٣١هـــ-٢٠١٠م).

٧) عند النقل من الكتب أثبت المرجع مباشرة إذا كان النقل بـــالنص، وإذا كان النقل بالمضمون أو بتصرف أقول: (ينظر أو راجع)، وجعلت المنقول بـــين قوسين بالشكل()، فإن ضمنته بكلام من عندي جعلت كلامي بـــين قوســـين بالشكل [ ].

٨) اقتصرت بضرب مثال واحد فقط لكل سبب أو أثر، وذلك أمـــلاً في الاختصار، وتفادياً للإملال إلا عند الحديث عن تفسير كامل فقد مثلتُ بثلاثة أمثلة.

٩) مهدت لكل مبحث أو مطلب بذكر بعض التعريفـــات المهمـــة الـــتي سيتضمنها.

١٠) عند إثبات أكثر من مرجع للترجمة فإني أرتبها حسب الأقدمية.

هذا وأسأل الله أن يتولانا دائماً بمعيته ويقدر لنا الخير حيث كان إنـــه ولي ذلك والقادر عليه...

هيكل البحث:

قمتُ بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وذلك حسب الترتيب التالي:

المقدمة: وقد اشتملت على (أهمية البحث، أسباب اختيار الموضوع، حدود البحث، الدراسات السابقة للموضوع، منهج البحث).

تمهيد: وفيه تحدثت عن ذم التكلف مطلقاً، وموقف الشريعة منه، وأقوال العلماء فيه.

الفصل الأول: التعريف بالتكلف في التفسير، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التكلف في التفسير، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التكلف في اللغة والاصطلاح. وفيه مسألتان.

المطلب الثاني: تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح. وفيه مسألتان.

المطلب الثالث: تعريف التكلف في التفسير.

المطلب الرابع: الفرق بين التكلف في التفسير ومصطلحات مشابهة له. وفيه مسألتان.

المبحث الثاني: نشأة التفسير المتكلف، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التكلف في التفسير في عصر الرواية.

المطلب الثاني: التكلف في التفسير في عصر التدوين.

المطلب الثالث: التكلف في التفسير في العصر الحاضر.

المبحث الثالث: مظان التكلف في التفسير عند المعاصرين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أشهر التفاسير والمؤلفات المعاصرة التي أكثرت من التكلف في التفسير.

المطلب الثاني: أشهر المفسرين والمؤلفين الذين عنو بنقد التكلف في التفسير.

وقد ضم المطلبان أربعة مسائل.

الفصل الثاني: أسباب التكلف في التفسير وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب المشتركة بين المتقدمين والمعاصرين، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الانحراف العقدي.

المطلب الثاني: الخوض فيما سكت عنه الشرع.

المطلب الثالث: التعصب المذهبي والفقهي.

المطلب الرابع: إغفال التفسير بالمأثور.

المطلب الخامس: التوسع في التفسير الاشاري.

المبحث الثاني: أسباب التكلف في التفسير عند المعاصرين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المبالغة في التفسير العلمي.

المطلب الثاني: عدم التمكن من شروط المفسر.

المطلب الثالث: دعوى التجديد.

الفصل الثالث: آثار التكلف في التفسير عند المعاصرين، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تحريف الكلم عن مواضعه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زعزعة العقيدة.

المطلب الثاني: دعوى النسخ.

المطلب الثالث: الشذوذ ومخالفة الإجماع.

المبحث الثاني: فتح الطريق أمام المغرضين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المستشرقون.

المطلب الثاني: العلمانيون.

المطلب الثالث: المثقفون.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقنا لبيان المقصود إنه خير مسؤول.

تمهيد

إنَّ من فضل الله تعالى على هذه الأمة أنْ تَعَبدها بشريعة غَرَّاء، سهلة سَمْحَاء، بعيداً عن التواءات التعسُّف، ونُتُوءات التكلف؛ شريعة أمرُها: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(١) ومَنهجُها: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٢)؛ هذه الشريعة التي لخَّص معالمها من أوتي جوامع الكلم في كلماتٍ قليلاتٍ يسيراتٍ مباركاتٍ، فقال: (بعثت بالحنيفية السمحة)(٣).

ولقد عاش- عليه الصلاة والسلام- حياته على اليُسر والتيسير، وترك العُسر والتعسير، ومن يتتبع حياته يجدها في غاية السهولة، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما(٤) مع أخذ بالعزيمة دون إفراط، وما سمع بأحد يكلف نفسه إلا نهاه عن ذلك(٥)؛ بل وشدد النكير على المتنطعين وأغلظ في القول

---

(١) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٢) سورة الحج الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٦٦)، مؤسسة قرطبة – القاهرة، برقم: ٢٢٣٤٥، ورواه البخاري تعليقاً(١/٢٢): كتاب الإيمان، باب الدين يسر، بلفظ: (أحب الدين إلى الله الحنيفة السمحة)، تحقيق: د مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م، والحديث صححه الألباني. ينظر: السلسلة الصحيحة للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني(٧/١٢٥)، مكتبة المعارف – الرياض، حديث رقم: ٢٩٢٤.

(٤) ينظر: صحيح البخاري(٣/١٣٠٦)، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي، حديث رقم: ٣٣٦٧، وصحيح مسلم(٤/١٨١٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب: الفضائل، باب: مباعدته للآثام، دار إحياء التراث العربي – بيروت، حديث رقم: ٢٣٢٧.

(٥) ينظر: حديث الثلاثة الرهط في صحيح البخاري(٥/١٩٤٩)، كتاب: النكاح، باب:

عليهم حتى وصفهم بالهلاك؛ ففي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (هلك المتنطعون قالها ثلاثا)[١]، و(المتنطع: المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه)[٢].

وإنما درج النبي – ﷺ على ذلك لأن الله – سبحانه وتعالى – قد نهاه عن التكلف ثم أوحى إليه أن: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[٣].

إن التكلف مسلك سقيم، ومنهج ذميم، مقته الشارع الحكيم، وحسبه من الذم أنه ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كلها في سياق النهي[٤]، وهكذا في كتب السنة مازلنا نقرأ: (باب الدين يُسر، باب ذم التكلف، باب النهي عن التكلف.. إلخ) [٥].

ولا شك أن هذا تحذير من الشريعة من الاتصاف بمثل هذا السلوك المشين؛

الترغيب في النكاح، حديث رقم:٤٧٧٦، وصحيح مسلم(٢/١٠٢٠): كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم:١٤٠١.

(١) صحيح مسلم(٤/٢٠٥٥): كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم: ٢٦٧٠.

(٢) عون المعبود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب(١٢/٢٣٥)، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ، وغريب الحديث لابن الجوزي(٢/٤١٨)، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٨٥م.

(٣) سورة ص: الآية ٨٦.

(٤) كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ سورة الإسراء الآية: ٣٦.

(٥) فإن قال قائل: قد ورد في البخاري (باب: صنع الطعام والتكلف للضيف)، قلنا: إن معناه التكلف في تقديم الموجود كما يقول ابن حجر في فتح الباري(٤/٢١١)، دار المعرفة – بيروت. طبعة سنة: ١٣٧٩هـ.

ومن هنا كان اتفاق العلماء على نكرانه، و إجماع العقلاء على بطلانه، ومـــن ينظر في كتاباتهم يجدهم قد رموه عن قوس واحدة كلها تفيد باطراح هذا الخلق ومنتحليه.

قال اللالكائي(١) - رحمه الله -: (فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الإتباع وذم التكلف والاختراع) (٢).

وقال المحاسبي(٣) - رحمه الله -: (و الأصْـــوَنُ الكف عن تكلـــف ما نُهي عنه مما يســـع جهله ولا يؤدي علـــمه إلى القربى بل تـــرك البحث عنه هـــو

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور، طبرى الأصل ويعرف باللالكائي، قدم بغداد فاستوطنها ودرس فقه الشافعي على الإسفراييني، و كان شديد الحفظ والفهم توفى بالدينور سنة ٤١٨هـــ، وقيل: ٤٠٨هـــ، وهو خطأ والصحيح ما أثبته، ينظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٣٤/٨)، دار صادر – بيروت. الطبعة الأولى، وسير أعلام النبلاء للذهبي(٤١٩/١٧)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة التاسعة ١٤١٣هـــ - ١٩٩٣م، وتذكرة الحفاظ للذهبي(١٨٩/٣)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى، والبداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي(٢٤/١٢)، مكتبة المعارف – بيروت، والأعلام للزركلي (٧١/٨)، دار العلم للملايين – بيروت.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي(٢٢/١)، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة – الرياض. طبعة سنة: ١٤٠٢هـــ.

(٣) هو الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، حدث عن يزيد بن هارون وطبقته، له كتب كثيرة في الزهد و أصول الديانات والرد على المخالفين، أهمها: مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، توفي سنة ٢٤٣هـــ، ينظر: تـــاريخ بغداد لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي(٢١١/٨)، دار الكتب العلمية – بيروت، والسير للذهبي(١١٠/١٢)، وتهذيب الكمال للمزي(٢٠٨/٥)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيـــروت. الطبـــعة الأولى: ١٤٠٠هـــ – ١٩٨٠م، والأعلام للزركلي(١٥٣/٢).

القربى والوسيلة إلى رضى الله عز وجل..) [١].

وقَالَ أبو بكـــر بنُ الْعربي [٢] - رحمـــه الله -: (عجبتُ لقَـــوم يتكلَفون فيتكلـــمون بِما لا يعلمون) [٣].

وإذا كان العلماء قد ذموا التكلف في غير التفسير فذمهم إياه في بيان كلام الله من باب أولى؛ (قال شرف الدين الطيبي [٤] في شرح الكشاف في ســـورة الشعراء: شـــرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سليماً من التكلف عرياً من التعسف) [٥].

(١) مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، للحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله (ص: ٢٣٥)، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر – بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـــ.

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن العربي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٦٨هـــ، وبلغ رتبة الاجتهاد وصنف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن وتخرج بالإمام أبي حامد الغزالي والعلامة أبي زكريا التبريزي وغيرهما، توفي سنة ٥٤٣هـــ. ينظر: وفيات الأعيان لشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان(٤/٢٩٦)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، والسير للذهبي(٢٠/١٩٧)، وتذكرة الحفاظ للذهبي(٤/١٢٩٤)، و طبقات المفسرين للأدنوري(ص: ١٨٠)، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م، والأعلام للزركلي (٦/٢٣٠).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي(٣/٣٦٨)، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـــ.

(٤) هو حسن بن محمد بن عبد الله شرف الدين الطيبي الأصل إمام مشهور فهام علامة في المعقولات والمعاني والبيان من مؤلفاته الحاشية على تفسير الكشاف، توفي سنة٧٤٣هـــ، ينظر: طبقات المفسرين للأدنروي، (ص: ٢٧٧).

(٥) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور(١/٢٨)، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـــ - ٢٠٠٠م.

وقال الإمام الشاطبي(١) - رحمه الله -: (إن القول في القرآن والسنة بغير علم تكلف وقد نُهينا عن التكلف) (٢).

وهكذا في الأخير (اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين(٣) بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح إلا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلفين)(٤).

لكن من الناس من يستَزلهم الشيطان من حيث لا يشعرون، فتراهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويكلفون أنفسهم ما وضعه الله عنهم من الإصر والعنت، ويأتون ما لم يأذن به الله ولا رسوله، فكم وعَّرُوا الطريق لكثير من المسائل الميسورة، وزعزعوا في النفوس ما عليه مَفْطورة، وكم سطروا من تعقيد بحجة التقعيد و موافقة الجديد، وإنك لتعجب حينما تراهم

---

(١) هو الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي (أبو إسحاق) من علماء المالكية. كان إماماً محققاً أصولياً مفسراً فقيهاً محدثاً نظاراً ثبتاً بارعاً في العلوم. أخذ عن أئمة منهم ابن الفخار وأبو عبد البلنسي وأبو القاسم الشريف البستي، وأخذ عنه أبو بكر بن عاصم وآخرون. له استنباطات حليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة مع الصلاح والعفة والروع واتباع السنة واجتناب البدع. وبالجملة فقدره في العلوم فوق ما يذكر، وتحليته في التحقيق فوق ما يشتهر، من تصانيفه: (الموافقات في أصول الفقه)، و (الاعتصام)، و (المجالس) شرح به كتاب البيوع في صحيح البخاري. مات في شعبان سنة ٧٩٠هـ. ينظر: كلاً من: الأعلام للزركلي (٧٥/١)، و معجم المؤلفين عمر رضا كحالة (١١٨/١).

(٢) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي(٢٩٨/٢)، المكتبة التجارية الكبرى — مصر.

(٣) لعل الشوكاني يقصد بهذا الذين جاروا الفلاسفة والمتكلمين من أهل السنة.

(٤) التحف في مذاهب السلف لمحمد بن علي الشوكاني(ص: ٧٤)، تحقيق: طارق السعود، دار الهجرة — بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ - ١٩٨م.

يخوضون في بحور من الكلام، ويذهبون يَمنة ويسرة بُغية أن يلووا معنى نص ليوافق ما مالوا إليه حتى إذا ما وضعوا أقلامهم من ذلك، وجدهم من الغالين، وعن الصراط ناكبين؛ و تالله ما جنى المتكلفون على الأمة إلا غث الأقاويل، وما زادونا غير تشتيت.

ألا ليعلم المتكلفون أنهم مخطئون، وأي خطأٍ أعظم من تَكَلُّفِ مُتَكَلِّفٍ يُكَلِّفُ الناس بتَكلفه ما لو سكت عنه لم يُكَلّفوه؛ يقول النبي ﷺ: (إنَّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً مَن سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته)(١)؛ قال: (جماهير العلماء في شرح هذا الحديث: إن المراد بالجرم هنا الإثم والذنب[و] هذا الحديث فيمن سأل تكلفاً أو تعنتاً فيما لا حاجة به إليه) (٢).

والحديث وإن ورد في سياق ذم التكلف في السؤال إلا أنه يصلح الاحتجاج به على ذم التكلف مطلقاً، لأن السؤال في الأصل ليس مذموماً من حيث كونه سؤالاً، بل مأموراً به لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (٣)؛ ولكن إذا تدثر بالتكلف وتعرى من التلطف فحينئذ تناله سهام الذم، وعليه فالذم للتكلف لا للسؤال. والله أعلم.

وحتى الذين يركبون التكلف أحياناً ويتخذونه وسيلة يصلون بها لمعنى ما،

(١) صحيح مسلم(٤/ ١٨٣١)، كتاب: الفضائل، باب: تَوقِيره ﷺ، حديث رقم: ٢٣٥٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١١/١٥)، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ.

(٣) سورة النحل الآية: ٤٣.

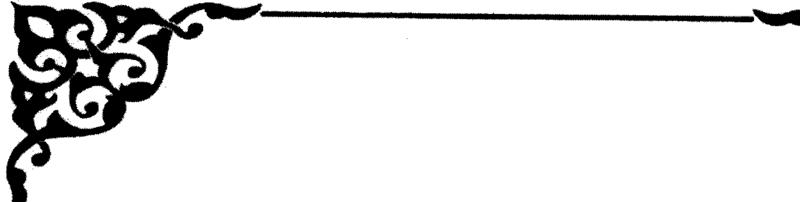
إنما يفعلون ذلك إما لحسن القصد، وإما غَيرةً على الدين؛ ولو سُئل أحدهم ما حكم الشريعة في التكلف والمتكلفين؟ لأجاب بالذم والنهي والنكير طبعاً !.

وتجدر الإشارة إلى أن التكلف الذي نتكلم عنه أنما هو التكلف المذموم، أما التكلف الممدوح[1] فللعلماء فيه إشارة ليس هذا محل بسطها، فليتنبه لذلك والله الموفق.

---

(١) قال الراغب: ولذلك صار التكلف على ضربين: محمود وهو ما يتحراه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه ويصير كلفا به ومحبا له). و الثاني: مذموم وهو ما يتحراه الإنسان مراءاة [يقصد في العبادات] ينظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني(ص:٧٢١ - ٧٢٢)، تحقيق: صفوان عدنان داودى، دار العلم الدار الشامية - دمشق. طبعة سنة: ١٤١٢هـ.

وقد أفاض الغزالي في الحديث عن التكلف المحمود فارجع إن شئت إلى إحياء علوم الدين(٣٠٢/١) و (٢/ ٢٩٦)، دار المعرفة - بيروت.




الفصل الأول: التعريف بالتكلف في التفسير

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التكلف في التفسير.

المبحث الثاني: نشأة التكلف في التفسير.

المبحث الثالث: مظان التكلف في التفسير عند المعاصرين.







المبحث الأول: تعريف التكلف في التفسير

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التكلف في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثالث: تعريف التكلف في التفسير.

المطلب الرابع: الفرق بين التكلف في التفسير ومصطلحات مشابهة له.




المبحث الأول: تعريف التكلف في التفسير

المطلب الأول: تعريف التكلف في اللغة والاصطلاح.

المسألة الأولى: التكلف في اللغة.

التكلف مصدر للفعل الثلاثي (كَلَفَ) ومعناه بلوغ الشيء بمشقة (وكلّفه تكليفاً أَي أَمره بما يشق عليه، وتكلّفت الشيء تجشَّمْته على مشقّة وفي حديث عمر رضي الله عنه نُهينا عن التكلُّف[1] أَراد كثرة السؤال والبحثَ عن الأَشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها والأَخذَ بظاهر الشريعة وقبولَ ما أَتت به)[2].

(وتكلَّفتُ الشيء إذا تجشمته على مشقّة وعلى خلاف عادِتك)[3] (ويُقال: حملتُه تَكْلِفَةً: إذا لم تُطقه إلا تَكَلُّفاً)[4].

المسألة الثانية: التكلف في الاصطلاح.

والتكلف في الاصطلاح قد عرّفه غير واحد،فقال المناوي[5] في التوقيف هو:

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٩/١) كتاب: الاعتصام، باب: ما يُكره من كثرة السؤال. حديث رقم: ٦٨٦٣.

(٢) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور(٣٠٧/٩)، دار صادر بيروت. الطبعة الأولى.

(٣) النهاية في غريب الأثر لابن الأثير(٣٥٢/٤)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٤) تاج العروس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي(٣٣٢/٢٤)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٥) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين: من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، له نحو ثمانين وقيل مائة مصنفاً، ولد سنة: ٩٥٢هـ، وعاش في القاهرة، وتوفي بها سنة:

(أن يحمل الأمر على أن يكلف بالأمر كلفه بالأشياء التي يدعوه إليها طبعه) [١].

والتعريف جزل في عبارته - كما هي عادة المتقدمين - حتى لا يكاد يفهم، ومعناه: أن المتكلف يحمل الأمر على المعنى الذي أولع به وانقدح في ذهنه حتى يتكلف لتقريره.

وقال الراغب الأصفهاني [٢] هو: (ما يفعله الإنسان بإظهار كَلَفٍ مع مشقة تناله في تعاطيه [أو هو]: اسم لما يُفعل بمشقة أو تَصنُّع أو تَشبُّع) [٣].

ومعنى قوله أو (تَشبُّع) أي زيادة عن قدر الحاجة، ولعل هذا هو نفس ما يتعارف عليه الكُتّاب بما يُسمى بـ(الاستطراد) فإنه زائد حاجة البيان. والله أعلم.

أما الإمام النووي [٤] فقد عرفه بعبارة أسهل و بلفظ أشمل فقال -رحمه

١٠٣١هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٢٠٤/٦)، ومعجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس (١٧٩٨/٢)، بدون ناشر، سماه بعض المؤرخين (عبد الرؤوف بن علي) وأيضاً (عبد الرؤوف بن تاج العارفين).

(١) التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي (ص: ٢٠٢)، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر - بيروت. الطبعة الأولى.

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب المعروف بالراغب الأصفهاني، العلامة الماهر، المحقق الباهر صاحب التصانيف كان من أذكياء المتكلمين أهم مؤلفاته: (المفردات في غريب القرآن)، وقد اختلف في تاريخ وفاته حتى قال الذهبي في السير: (١٢١/١٨)، لم أظفر له بوفاة ولا بترجمة. ولكن الأكثر على أنه توفى سنة ٥٠٢هـ، وقال المحقق شعيب الأرنؤووط: أما مجلة المجمع العلمي العربي (٢٤ / ٢٧٥)، ففيها أن وفاته كانت سنة ٤٥٢هـ، وهو مقارب لإيراد الذهبي له في هذه الطبقة. ينظر: السير للذهبي (١٢١/١٨)، والأعلام للزركلي (٢٥٥/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٧٢١).

(٤) هو الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مر بن جمعة بن حزام النووي المحدث

الله -: (هو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة) [١].

ويمكن أن نجمع هذه التعريفات في تعريف واحد فنقول: التكلف: هو التصنع والتقول والاختلاق[٢].

والخلاصة أن لفظ التكلف (ومادة التفعُّل تدلُّ على معالجة ما ليس بسهل)[٣].

والملاحظ أن الإمام النووي زاد لفظاً ليس في التعريفين السابقين وهو قوله: (و قول) وهذا تعبير أدق، فهو ينطبق أيضاً على تلك الأقاويل وكثرة الاستطرادات التي يثقل بها كثير من المفسرين تفاسيرهم ولا يتحصل من ورائها كثير فائدة، على الرغم أن هذه التعريفات، كلها تشير إلى المشقة الحاصلة في طريق الوصول إلى أمر ما أو في تعاطيه، سواء كان قولياً أم فعلياً.

وحيث قد عرفت التكلف لغة واصطلاحاً والمتكلف لغة فإن هذا يستلزم أن نعرف معه حد المتكلِف في الاصطلاح؛ فالمتكلِف إذاً هو: (هو الذي يتطلب ما

الفقيه الشافعي الشهير بالنووي، ولد رحمه الله تعالى في المحرم من سنة ٦٣١هـ في قرية نوى، وقد تميز بجده ومثابرته وسعة علمية وكثرة مؤلفاته، من أهمها: (شرح صحيح مسلم و المجموع)، توفي في ٢٤ رجب سنة ٦٧٦ هـ رحمه الله، ينظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ للذهبي(٤/١٧٤)، والبداية والنهاية لابن كثير(١٣/٢٧٨)، والأعلام للزركلي(٨/١٤٩)، والإمام النووي. جمع وترتيب أحمد فريد.

(١) شرح رياض الصالحين(ص: ٥٥٣)، تعليق: محمد الصابوني، دار الأفق – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م. باب النهي عن التكلف.

(٢) ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي(٢٣/٢٣٥)، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور(٢٣/١٩٦).

ليس له أو يدعي علم ما لا يعلمه.) أفاده الإمام ابن عاشور[1]، وقال محمد عزت دروزة في التفسير الحديث: (المتكلِف: الفضولي الذي يُحمّل نفسه مهمة لم يحمّلها)[2].

ومعنى (يتطلب ما ليس له) و (يُحمّل نفسه مهمة لم يحمّلها) أي يبحث ويطلب معرفة ما ليس له الاطلاع عليه، أو ليس في استطاعته معرفته، كأن يكون أمراً غيبياً ونحوه.

وعند الإمام القرطبي[3] المتكلف: هو الذي يجتهد في الأمر من غير أهلية له[4] وكلها تعاريف متقاربة فيما يظهر للقارئ والله أعلم.

---

(١) المصدر السابق (١٩٦/٢٣).

(٢) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة(٣٥٨/٢)، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ودار الغرب الإسلامي - دمشق. طبعة سنة: ١٣٨٣هـ.

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه (الجامع لأحكام القرآن)، كان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية توفي سنة ٦٧١هـ. ينظر: طبقات المفسرين للأدنوري(ص: ٢٤٦)، وشذرات الذهب لعبد الحي بن أحمد بن محمد العكري(٥/ ٣٣٥)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير- دمشق. طبعة سنة ١٤٠٦هـ. والأعلام للزركلي (٥/ ٣٢٢).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١١/١١)، تحقيق: سمير البخاري. دار عالم الكتب، الرياض، طبعة سنة: ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣ م.

المطلب الثاني: تعريف التفسير في اللغة و الاصطلاح

المسألة الأولى: التفسير في اللغة

التفسير مصدر رباعي على وزن تفعيل للفعل (فسر) إما بالسين المخففة، أو بالتثقيل للمبالغة، ومعناه: البيان والكشف والإيضاح، سواءٌ تقدم الفاء أو السين؛ فتقول: (فَسَر) بالتخفيف والثقل أي بان واتضح وانكشف، وعليه ورد قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (١) أو تقول (سفر) أي بان وانكشف، وعليه ورد قول الله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٢)، ومنه أسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته، و سمي السفر سفراً لكونه يكشف عن حقيقة الرجال، وعلى هذا تواطأت معاجم العربية، ففي لسان العرب: (الفَسْرُ: البيان فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضم فَسْراً وفَسَّرَهُ أَبانه والتفسير مثله... وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الفَسْرُ: كشف المُغَطّى والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل) (٣).

و(فسرت الشيء فسراً من باب ضرب: بينته وأوضحته والتثقيل للمبالغة)(٤)، و(استفسره كذا سأله أن يفسره) (٥).

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣٣.

(٢) سورة المدثر الآية: ٣٤.

(٣) لسان العرب لابن منظور(٥/٥٥).

(٤) المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي (١/٣٢٠)، المكتبة العلمية – بيروت.

(٥) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي(ص: ٥١٧)، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت. طبعة جديدة: ١٤١٥هـ.

وعند أبي حيان[١] أنه يطلق على التعرية حيث يقول: (ويطلق التفسير على التعرية للانطلاق. قال ثعلب[٢]: تقول فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره وهو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره الذي يريد منه الجري) [٣].

وقيل: (إنه مأخوذ من التَّفْسِرَة وهي اسمٌ للبُول الذي ينظُر فيه الأطباء ويُسْتدل به على مَرَض البدنِ وكل شيءٍ يُعْرَف به تفسير الشيءِ فهو التَّفْسِرةُ)[٤].

والحاصل أن (التفسير يستعمل لغةً في الكشف الحسي، كما يستعمل في

---

(١) هو محمد يوسف بن علي بن حيان النفزي الأندلسي المفسر اللغوي المعروف بأبي حيان، اتفق أهل عصره على تقديمه وإمامته ولد بغرناطة سنة ٦٥٤هـ وصنف التصانيف السائرة من أهمها(البحر المحيط) في التفسير توفي سنة ٧٤٥هـ، ينظر: طبقات المفسرين للأدنروي: (ص: ٢٧٨)، والرد الوافر لمحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي(ص:٦٢)، تحقيق: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٣٩٣هـ.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني مولاهم الكوفي النحوي. صاحب التصانيف قرأ العربية على ابن الأعرابي وغيره وسمع من عبيد الله القواريري وطائفة وانتهت إليه رئاسة الأدب في زمانه، توفي ببغداد سنة٢٩١هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان(١٠٢/١)، والعبر في خبر من غبر للذهبي(٤٢٠/١)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة(٢٠٣/٢)، مكتبة المثنى– بيروت.

(٣) البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(١٢١/١)، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

(٤) كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(٢٤٨/٧)، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

الكشـــف عن المعاني المعقولة، ولكن استعماله في الثاني أكثر من اســـتعماله في الأول)[١].

ومما سبق نستنتج أن التفسير يبحث في الكشف عن الشيء وبيانه أو بيـــان معناه.

المسألة الثانية: التفسير في الاصطلاح

أما تعريف التفسير في الاصطلاح فقد كثرت عباراته، وتعددت تعريفاتـــه، وقد ذكر السيوطي[٢] كثيراً منها في إتقانه[٣]، على الرغم أنها متفقة جميعهـــا في نقطة واحده وهي كون التفسير بيان كلام الله؛ وبعد الاستقراء رأيـــت أن أولى التعريفات بالتسطير ثلاثة:

الأول: تعريف الإمام الزركشي[٤] حيث يقول: التفسير علم يفهم به كلام

---

(١) ينظر: التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي(١/١٣)، دار آونددانش. الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.

(٢) هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الشافعي صاحب المؤلفات النافعة المتقنة التي تزيد على خمسمائة مصنف ولد بالقاهرة سنة٨٤٩هـ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وله دون ثمان سنين، من أشهر كتبه: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ، راجع: طبقات المفسرين للأدنوري(١/٣٦٥)، والأعلام للزركلي(٣/٣٠١)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة(٣/٢٧).

(٣) ينظر: الإتقان لجلال الدين السيوطي تحقيق: سعيد المندوه(٢/٤٦٠-٤٦١)، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٢٤ه- ٢٠٠٤م.

(٤) هو محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الموصلي الشافعي بدر الدين ولد سنة (٧٤٥هـ) وألف تصانيف كثيرة في عدة فنون ومن مصنفاته شرح البخاري والتنقيح على البخاري وشرح التنبيه والبرهان في علوم القرآن توفي سنة(٧٩٤هـ)، ينظر: طبقات المفسرين للأدنروي (ص: ٣٠٢).

الله المترل على نبيه محمد وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب الترول والناسخ والمنسوخ[١].

الثاني: تعريف الإمام الزرقاني[٢] إذ يقول: التفسير علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية [٣].

الثالث: تعريف الإمام الطاهر ابن عاشور، يقول -عليه رحمة الله-: والتفسير في الاصطلاح نقول: هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع [٤].

وإنما اخترنا هذه التعريفات الثلاثة لكونها شاملة مانعة كما هو الواجب في التعريف، وأنت إذا أمعنت النظر وجدت أن التعريفين الآخرين إنْ هما إلا اختصاراً للتعريف الأول ليس إلا، فقول الأول:(بقدر الطاقة البشرية) وقول الثاني: (باختصار أو توسع) عبارتان تقارب معناهما.

---

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي(١/١٣)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت. طبعة سنة: ١٣٩١هـ.

(٢) الإمام الزرقاني: هو محمد بن عبد العظيم الزُّرقاني، من علماء الأزهر بمصر، من كتبه مناهل العرفان في علوم القرآن، توفي في القاهرة ١٣٦٧هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(٦/٢١٠).

(٣) مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني(٢/٣)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الثالثة، وهذا التعريف اختاره غير واحد مثل خالد السبت في كتابه قواعد التفسير(١/٢٩)، دار ابن عفان. الطبعة الأولى.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور(١/١١).

واعلم أن بعض العلماء كالإمام ابن جرير الطبري[1] – رحمه الله من المتقدمين، والقاسمي[2] – رحمه الله – من المعاصرين[3]، يطلقون لفظ التأويل ويريدون به التفسير وهم بهذا لا يفرقون بين اللفظين مع ملاحظة أن بعض العلماء فرقوا بين التفسير والتأويل في كتب علوم القرآن[4]، وهاك إيجاز من غير إطناب:

فالتأويل لغة: مأخوذ من الأَوْل وهو الرجوع، تقول آل الشيء يؤول أَوْلاً ومآلاً رجع، وأوّل إليه الشيء رجعه، وألت عن الشيء: ارتددت[5].

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري رأس المفسرين على الإطلاق أحد الأئمة جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة، له مؤلفات عديدة أهمها تفسير(جامع البيان وتاريخ الأمم والشعوب)، ولد سنة ٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين وتوفي سنة ٣١٠هـ. ينظر: السير للذهبي (١٤/٢٦٧)، وتذكرة الحفاظ له أيضاً(٢/٢٠١)، وطبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٤٨)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة. الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ، وطبقات المفسرين للأدنوري (١/٤٨)، والأعلام للزركلي (٦/٦٩).

(٢) جمال الدين القاسمي بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب ولد سنة ١٢٨٣هـ، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام في عمله هذا أربع سنوات، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة. توفي سنة١٣٣٢هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(٢/١٣٥).

(٣) المعاصرة هنا اصطلاحية في منهج الباحث. ينظر تعريفها في خاتمة تعريف التكلف في التفسير(ص: ٢٠).

(٤) ينظر كلاً من: الإتقان للسيوطي(٢/٤٦٠-٤٦٢)، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(١/ ١٧و١٨).

(٥) ينظر: لسان العرب لابن منظور(١١/٣٢).

وقيل: من الإيالة وهي السياسة كأن المؤوِل للكلام ساس ووضع المعنى فيه موضعه[١] وأما في الاصطلاح فقد اختلف فيه على النحو التالي:

فقال الراغب: التفسير أعم من التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الألهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

وقال غيره: التفسير: بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة.

وقال آخرون: التفسير: القطع على المراد من اللفظ هذا والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فهو تفسير بالرأي المنهي عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله[٢].

ويميل الباحث إلى رأي الإمام الراغب في هذه المسألة.

---

(١) المصباح المنير للفيومي(ص: ١٧١).

(٢) ينظر: الإتقان للسيوطي(٢/ ٤٦٠).

المطلب الثالث: تعريف التكلف في التفسير

ومن خلال التعريف اللغوي و الاصطلاحي للتكلف والتفسير يمكننا أن نستخلص تعريف المصطلح الجديد فنقول: التكلف في التفسير: هو حمل المفسر الآية على معنى قد يحتمله اللفظ، مع كلفة في إظهاره من غير حاجة شرعية.

فقولنا: (على معنى قد يحتمله اللفظ) أي قد يحتمله اللفظ من حيث اللغة، لكنه يتبرأ منه من حيث السياق أو من حيث ما جاءت به الشريعة وأصولها على أن الغالب لا يحتمله، وإن احتمله فلا يتعدى أن يكون ذلك الاحتمال كمثقال حبة من معنى في واد سحيق من أودية اللغة.

وقولنا: (مع كلفة في إظهاره) أي لا يصل إليه إلا بكثرة الاشتقاقات اللغوية والإسراف في الاستنباطات العقلية والفكرية وما إلى ذلك، إلى حد لا يمكن معه الفهم إلا بمشقة، فيُحْوِج التفسير إلى تفسير.

وقولنا: (من غير حاجة شرعية) أي لا نحتاج إلى المعنى المحتمل، وذلك لأحد ثلاثة أمور:

الأول: إما لأنه يوجد تفسير ظاهر مأثور عن النبي ﷺ والصحابة، أو تفسير مُعتبر[1] مروي عن السلف ومن بعدهم ممن شُهد لهم بالفضل والصلاح؛ لأن هذا هو المقصود من التفسير (فإذا كان المراد معلوماً فالزيادة على ذلك تكلف)[2].

---

(١) خرج بقولنا (معتبر) ما ليس كذلك كأن يكون شاذاً، أو متكلفاً، أو رأياً مجرداً عن الدليل، مع أن صاحبه مشهود له بالفضل.

(٢) الموافقات للشاطبي(٥٧/١)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان. الطبعة =

الثاني: وإما لأنا قد كُفينا البحث عن معنى ذلك كأن يكون من الغيبيات، وما شابهها.

الثالث: وإما لأن ذلك المعنى المحتمل استطراد فيه تشويش على القارئ لا يزيده إلا تشتيتاً.

بقي أن نقول في هذا المقام: إن تعدد الأقوال في معنى الآية، لا يعد تكلفاً ما دام القول تحتمله الآية ومعناه ظاهر، أما إن كانت الأقوال المذكورة متكلفة[١]، فإن وصفنا لها بالتكلف معلوم بالضرورة.

ويتخرج على هذه المسألة: مسألة القول الراجح والقول المرجوح، فإن الآية التي تتعدد فيها الأقوال لابد وأن يكون أحد أو بعض هذه الأقوال راجحة والأخرى مرجوحة، وحينئذ هل يُعد القول المرجوح تكلفاً؟

لا يعد القول المرجوح تكلفاً على الإطلاق، لأنه لا يلزم كون القول الظاهر راجحاً ألا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر، صحيح أن الغالب في الأقوال المرجوحة أنها بعيدة الاحتمال، فإن كانت كذلك فلاشك في تكلفها، وأما إن كانت الأخرى فلها حكم تعدد الأقوال. والله أعلم

وبالجملة فـ(إنشاء معان ومعتقدات[و] إبداء آراء وإحداث مذاهب[و] اختراع أفكار وإيجاد نظريات غير مستمدة من الوحي ثم البحث عن النصوص القرآنية لتعضيد تلك المسبقات الفكرية، والموروثات العقلية المظنونة طريقة من طرق أهل البدع قديماً وحديثاً، وهذا المنهج يسبب التكلف في حمل النصوص ما

الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(١) إما لأن احتمالها بعيد أولا تحتمله الآية أصلاً كما في كثير من التفاسير المنحرفة.

لا تحتمله لغة ولا شرعاً)[١].

كما (أن تقليب وجوه الفهم في القرآن إنما يذم إذا أدى إلى تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، أو إلى جعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً ولو كان ضعيفاً، أو الجزم بأن مراد الله كذا من غير دليل، أو إلى التفسير بالاستحسان والهوى أو كان فهما بغير حصول علوم القرآن) [٢].

وتجدر الإشارة إلى أن معنى المعاصرة عند الباحث ليست سارية على المعنى اللغوي الذي هو مصدر عاصَرْتُ فلاناً مُعَاصَرَةً، أَي كنتُ أَنا وهُوَ في عَصْرٍ واحد، أَو أَدرَكتُ عَصْرَهُ كما هو معروف في كتب اللغة[٣]، وإنما هو معنى اصطلاحي محض؛ فالمعاصرة في اصطلاح الباحث تعني معاصرة العصر الحديث، والذي يقدره الدكتور صلاح الخالدي من بداية القرن الرابع عشر الهجري (١٣٠٠هـ) والذي يوافق بداية القرن العشرين(١٩٠٠م) [٤]، وحتى العصر الحالي (١٤٣١هـ). الموافق لعام (٢٠١٠م).

---

(١) أسباب الخطأ في التفسير للدكتور طاهر محمود يعقوب(١/١٩و٢٠)، دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ.

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته لأحمد محمد جمال(ص:١١٨)، مطابع رابطة العالم الإسلامي- مكة المكرمة.

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي(١٥/٢٣٠).

(٤) ينظر: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين لصلاح الخالدي(ص: ٤٥ و ٥٦١)، دار القلم - دمشق. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، و مناهج المفسرين للشيخ صالح آل الشيخ (ص:١٩)، وأصلها محاضرة مفرغة من شريط.

المطلب الرابع: الفرق بين التكلف في التفسير ومصطلحات مشابهة له

ثَمة تعاريف في علم الشريعة يتشابه حدها، وتتقارب عبارتها، ويصعب على القارئ التفريق بينها، ولا شك أن هذا أمر يُحتّم على الباحثين التفريق بين هذه المصطلحات، تحاشياً للغلط، وتفادياً للخلط، وإرشاداً للقارئ من أن يضل في وادي التيه.

وقد رأينا أن التكلف في التفسير يتشابه كثيراً مع بعض المصطلحات التي قد يظن البعض أنها ذات مدلول واحد، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك؛ ومن هذه المصطلحات: (التأويل، والتفسير الاشاري)، وقد جاء هذا المطلب ليرفع الغشاوة عن هذه القضية. فنقول مستعينين بالمعين:

المسألة الأولى: الفرق بين التكلف في التفسير والتأويل.

قد مرَّ عليك قريباً تعريف التكلف في التفسير؛ وللتفريق بينه وبين التأويل يلزمُنا أولاً معرفة حدّ التأويل، ولكن مهلاً.. قد وقع الخلاف في حد التأويل، هل هو مرادف التفسير أم لا؟ ففي حين يذهب فريق إلى أنه كذلك، يذهب آخر إلى نسبة التباين بينهما، ويرى الباحث أن القول الأولى بالترجيح في هذه القضية: هو ما ذهب إليه الإمام الأصفهاني - رحمه الله - من أن التأويل أعم من التفسير وأن التفسير أكثر ما يُستعمل في الألفاظ، والتأويل في المعاني[1].

وهذا يعني أن كل تأويل هو تفسير وليس العكس بصحيح، لأن (التأويل

---

(١) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(١/١٧).

تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهر الكلام أو خالفه) [١]، أما التفسير فإنه يقتصر على المعاني الظاهرة فقط؛ والتأويل بهذا المعنى يقرب مما هو في اصطلاح المتأخرين إذ هو في اصطلاحهم: حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده[٢]، كما في الإحكام في أصول الأحكام للآمدي[٣]، وبعبارة أسهل: هو صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي

---

(١) ينظر: التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين (دراسة أصولية فكرية معاصرة)، لإبراهيم محمد طه بويداين(ص:٢٢)، وهي رسالة ماجستير تقدم بها لجامعة القدس – الدراسات العليا – قسم الدراسات الإسلامية. بإشراف: الأستاذ الدكتور حسام الدين عفانه.

(٢) ينظر كلاً من: الإحكام في أصول الأحكام لعلي بن محمد الآمدي(٣/٥٩)، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ، والمستصفى في علم الأصول لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد(ص: ١٩٦)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ، وإجابة السائل شرح بغية الآمل لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني(ص: ٣٦٣)، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي، و شيخنا الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى: ١٩٨٦م، و إرشاد الفحول لمحمد بن علي الشوكاني(٢/٣٢)، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

(٣) هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الحنبلي، ثم الشافعي، الملقب سيف الدين الآمدي قدم بغداد وقرأ بها القراءات. صحب أبا القاسم بن فضلان الشافعي وبرع في علم الخلاف. متفنن في علم أصول الدين وأصول الفقه والفلسفة والعقليات. شهد له العز بن عبد السلام بالبراعة، دخل الديار المصرية وتصدر للإقراء، وأعاد بدرس الشافعي وتخرج به جماعة؛ حسده بعض الفقهاء ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة. فخرج منها إلى البلاد الشامية، وتوفي بدمشق سنة ٦٣١هـ. ينظر في: وفيات الأعيان لابن خلكان(٣/٢٩٣)، وطبقات الشافعية الكبرى للسُبكي(٨/٣٠٦)، وطبقات الشافعية لأبي بكر بن =

المحتمل بدليل.

فأنت ترى أن كلا التعريفين يتفقان في البحث عن المعنى الخفي المحتمل، فأما على التعريف الأول فيقتضي حمل الآية عليه إضافة للمعنى الظاهر، وأما على التعريف الثاني فيقتضي حمل الآية عليه دون الظاهر، وبهذا تعلم أن خلاف العلماء في هذا الموضع يكاد يكون خلافاً لفظياً لم يمس الجوهر وهو بيان المعنى الخفي، إذا علمت هذا فاعلم أنه ينقسم إلى قسمين:

تأويل صحيح: وهو صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي المحتمل بدليل قوي[1] ؛ وهذا الذي نبحث الفرق بينه وبين التكلف في التفسير.

وتأويل فاسد: وهو صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي المحتمل إما بلا دليل أو بدليل ضعيف، و هذا هو الوجه الآخر لمصطلح للتكلف في التفسير، الذي نتحدث عنه، فقد قال الإمام الصنعاني - رحمه الله - في سياق حديثه عن أقسام التأويل: (وقد يأتي [أي بناءاً على القسم الثاني] قسم ثالث في الحقيقة وهو ما فيه تكلف وتعسف)[2].

وبناءاً على ما سبق نقول: إن الفرق بين التكلف في التفسير والتأويل هو

أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة(٢/٧٩)، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب – بيروت. الطبعة: الأولى: ١٤٠٧هـ، والأعلام **للزركلي**(٤/٣٣٢)، ومعجم المؤلفين لكحالة(٧/١٥٥).

(١) ينظر: إرشاد الفحول للشوكاني(٢/٣٢). ولعل من الأنسب في هذا المقام أن أُنبه إلى أن التأويل يعتبر وسيلة من وسائل الاجتهاد فالاجتهاد إذاً أعم من التأويل، ولهذا فرقنا بينه والتكلف في التفسير لأنه أقرب للإشكال والله أعلم.

(٢) إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني (ص:٣٦٤)، وقد عبر عن التأويل الفاسد بالبعيد.

نفس الفرق بين التأويل الصحيح والتأويل الفاسد، وذلك يتضح من خلال الآتي:

أولاً: التأويل يلجأ إليه لحاجة، و التكلف في التفسير يؤخذ من غير حاجة، بل يُصار إليه مع وجود المعنى الظاهر المفهوم.

ثانياً: التأويل يقوم على الدليل القوي؛ والتكلف في التفسير يقوم على الرأي المجرد عن الدليل، أو الدليل الضعيف.

ثالثاً: التأويل لا يشمل النص الصريح، والتكلف في التفسير يشمل النص الصريح وغيره.

رابعاً: التأويل مقصده التوفيق بين نصوص الشريعة لئلا يضرب بعضها ببعض، والتكلف في التفسير مقصده تدعيم رأي المفسر بِغَضّ النظر عن النيات.

وخلاصة الكلام أن يقال: إن التكلف في التفسير عُمْدَتُهُ الرأي المجرد والدليل الضعيف، والتأويل عُمْدَتُهُ الرأي المقترن بالدليل القوي، وبهذا تعلم الفرق بينهما وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: الفرق بين التكلف في التفسير والتفسير الإشاري.

هذا المصطلح شديد الشبه بالتكلف في التفسير، ووجه الفرق بينهما دقيق جداً ويحتاج إلى زيادة تركيز، ولهذا وقع الكثير في تكلف التفسير بسببه، حيث اعتقدوا أنهم يفهمون معان بطريق الإشارة، وما هو والله إلا التكلف، وإنا لنوافق تمام الموافقة ما قاله الدكتور الذهبي[1] بعد ذكره لبعض الأمثلة لذلك أنه

---

(١) هو محمد بن حسين الذهبي عالم أزهري كبير عرف ببحوثه القيمة في مناهج التفسير، له مؤلفات اتصفت بالجودة وحسن العبارة منها: (نور اليقين من هدي خاتم النبيين)، و(التفسير والمفسرون)، =

(مزلة قدم) [١]، ولما كان التفسير الإشاري بهذه المثابة اختلف العلماء في قبوله، بغض النظر عن القول الراجح في المسألة.

ولعلي لا أبعد عن الحقيقة إن قلتُ: إن من أظهر حجج المانعين له أنهم رأوه ضرباً من التكلف إذ هو يعتمد على الوجد والإشارة، كما أنهم رأوه منفذاً يدخل منه كل مغرض لأن يقول ما شاء ثم يقول هذا بمفهوم الإشارة !!!

والتفسير الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة [٢].

وواضح من التعريف أن التفسير الإشاري يبحث عن معنى خفي مع وجود المعنى الظاهر المفهوم، وهو بهذا يتفق مع روح تعريف التكلف في التفسير.

وبهذا تجد أن التفسير الإشاري من حيث الأصل هو تفسير متكلف، و ذلك لثلاثة أمور:

أغتيل في شهر رجب لعام ١٣٩٧هـ. ينظر: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر للدكتور يوسف المرعشلي(١١٣٩/٢-١١٤٠)، دار المعرفة- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. وحسب علمي لم يترجم له غيره.

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢٥٦/٢).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني(٨٧/٢)، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢٣٨/٢)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان(ص: ٣٦٨)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، والتبيان في علوم القرآن للصابوني(ص: ١٧١)، دار عالم الكتب - بيروت. الطبعة الأولى:١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الأول: أن المعنى الظاهر المفهوم موجود، والأصل الأخذ بالظاهر.

الثاني: أنه يعتمد على الوجد والإشارة بلا دليل، وهو أمر غير منضبط أيضاً.

الثالث: أن العلماء متفقون على أنه لا يجب الأخذ به[١].

ولهذا وضع العلماء شروطاً خمسة لقبوله، حتى يترفع من درجة التكلف إلى درجة القبول، وهذا يعني أنه إذا اختل شرط من هذه الشروط فسيهبط التفسير الإشاري من درجة القبول إلى التكلف. وشروط التفسير الإشاري[٢] هي:

١- ألا يكون التفسير منافيا للظاهر من النظم القرآني الكريم.

٢- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

٣- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٤- ألا يدعى أن التفسير الإشاري هو المراد وحده من الظاهر.

٥- ألا يكون التأويل بعيداً لا يحتمله اللفظ فيه تلبيس على أفهام الناس.

ونزيد على هذا الشروط شرطاً وإن قد ذكر ضمناً في الشروط السابقة وهو:

٦- أن يصدر من أهل الإشارة والسلوك إذ ليس كل من يتعاطى التفسير كذلك.

---

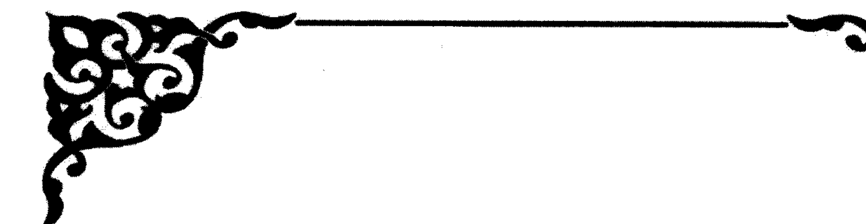
(١) ينظر: مناهل العرفان للزرقاني(٢/٨١)، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٢٥٧).

(٢) مناهل العرفان للزرقاني(٢/٨١)، والتبيان في علوم القرآن للصابوني(١٧٧)، وذكر الشاطبي في الموافقات شرطين(٤/٢٣٢)، وذكر ابن القيم أربعة شروط في التبيان في أقسام القرآن(ص: ٤٩)، دار الفكر، وتابعه على هذا الدكتور الذهبي فذكر أربعة شروط أيضاً(٢/٢٥٦-٢٥٧).

إذن الفرق بين التكلف في التفسير والتفسير الإشاري هو استيفاء الشروط، فإن استوفاها قلنا إنه تفسير إشاري، وإن لم يستوفها أو أختل أحدها قلنا أنه تفسير متكلف وبناءاً على هذا نقبل الأول ونرد الثاني...، قال الصابوني بعد أن ذكر هذه الشروط: (وبدون هذه الشروط لا يقبل التفسير الإشاري، ويكون عند ذلك من قبيل التفسير بالهوى والرأي المنهي عنه[1]، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل) [2]. وبهذا تعلم الفرق بين المصطلحين والله أعلم.

(١) وهو ما نعبر عنه في لغة البحث بالتكلف في التفسير.

(٢) التبيان في علوم القرآن للصابوني(ص:١٧٧).



المبحث الثاني: نشأة التكلف في التفسير.

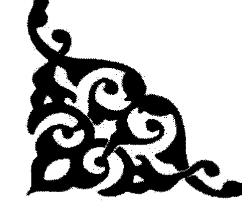


وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تكلف التفسير في عصر الرواية.

المطلب الثاني: تكلف التفسير في عصر التدوين.

المطلب الثالث: تكلف التفسير في العصر الحاضر.





المبحث الثاني: نشأة التكلف في التفسير

المطلب الأول: التكلف في التفسير في عصر الرواية.

الرواية تعني نقل الكلام من شخص لآخر، سواء كان ذلك عن طريق المشافهة أو عن طريق الكتابة. فيقال: (رويت الحديث إذا حملته ونقلته) [1] غير أنها إذا أضيفت إلى المصدر (عصْر) فلا تعني إلا النقل بالمشافهة، فيقال: (عصر الرواية)، وهو العصر الممتد من صدر الإسلام إلى ما قبيل أواخر القرن الثاني الهجري.

لقد عُرفت العرب بالأمية وقوة الحفظ وعدم الكتابة إلا ما ندر، وذلك لأن الله عوضهم بصفاء الذهن، وحدة القرائح، وتوقد الفكر، فكان الرجل يسمع الحديث فلا يلبث أن يستقر في ذهنه، ثم يرويه لمن شاء متى شاء، وبقيت العرب حيناً من الدهر سجلها ذاكرها، ويرجع السبب في ذلك كما يقول ابن خلدون[2] في تاريخه إلى السذاجة والبداوة والبعد عن تعقيدات الحياة والصناعة التي عرف بها العرب، ولما أشرقت الأرض بأنوار الرسالة كانت العرب لا تزال

---

(١) المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي(ص: ١٢٩)، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد الحضرمي المالكي، ولد في رمضان سنة ٧٣٢هـ. قرأ القرآن إحدى وعشرين مرة جمعاً وإفراداً، و أخذ عن كبار علماء عصره، أهم تصانيفه: (تاريخ ابن خلدون)، توفي سنة ٨٠٨هـ. ينظر ترجمته في: تاريخ ابن خلدون(٧/٥٠٣)، دار إحياء التراث العربي- بيروت. الطبعة الرابعة، والأعلام للزركلي (٣/٣٣٠).

على العهد في النقل، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة و التابعين [١].

لكنْ كيف كان موقف أهل هذا العصر من التكلف في التفسير؟! وما هو قولهم في المتكلفين ؟!

أقول: إننا لا نزال ننظر إلى الرعيل الأول وتابعيهم نظرة إجلال وإكبار، فما أمر الإسلام بشيء إلا رأيتهم أول السابقين إليه من غير تلكؤ ولا تردد، ولا نهى عن آخر إلا كانوا أول النافرين عنه، ولا غرو فإنهم جيل صنعته يد محمدﷺ الذي بلّغ الإسلام غضاً طرياً كما أنزل.

لقد كان الأسلاف الأولون - رضوان الله عليهم - من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان أبعد الناس عن التكلف والمتكلفين، حتى على مستوى الحياة الاجتماعية، فهذا سلمان رضي الله عنه يقول بعد أن قدم لضيفيه خبزاً وملحاً: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف لتكلفت لكم) [٢]؛ وما هم ألا يدعوا التكلف و قد نهوا عنه ففي البخاري يقول أنس رضي الله عنه : (كنا عند عمر فقال: نُهينا عن التكلف) وتقدم.

وإذا كان هذا دأبهم في حياتهم العامة، فاطّراحُهم التكلف في تفسير كتاب الله من باب أولى! لا سيما وقد عرفوا بتورعهم البالغ عن الخوض فيما ليس لهم

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون(١/٧٤٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك(٤/١٣٦)، حديث رقم: ٧١٤٦ وصححه ووافقه الذهبي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ومجمع الزوائد لنور الدين علي بن أبو بكر الهيثمي(٨/٣٢٧)، دار الفكر – بيروت. طبعة سنة: ١٤١٢هـ، حديث رقم: ١٣٦٢٨، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٥/٥١١)، حديث رقم: ٢٣٩٢.

به علم، وتحرج الكثير منهم من القول في التفسير، وإنا لنقرأ بين أيدينا نصوصاً كثيرة يمكننا الاستدلال بها على ما نقول وهاك منها ما يدل على غيرها:

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول وقد سُئل عن آية من كتاب الله: (أي أرض تقلني أو أي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم) (١).

فانظر كيف أوقفه ورعه أن يتكلف تفسير الآية على الرغم أنه من أهل الفصاحة ولو تكلم فيها لما حاد عن الصواب؛ لكنْ لعله لم يستحضره الجواب في تلك اللحظة فكره أن يتكلف القول فيها خشية الخطأ.

ولئن كان هذا أبو بكر الصديق الذي عرف برقّته، فكذلك هو عمر بن الخطاب الذي عرف بشدته كان مع سعة علمه بل وإلهام الله له لا يتكلف ما لم يعلم، فقد روى الإمام ابن جرير في تفسيره عن ابن شهاب(٢) أن أنس بن مالك حدثه أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول: قال الله ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (٣) كل هذا قد علمناه فما الأب ؟ ثم

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري(١/٧٨)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري أبو بكر الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه وهو من رؤوس الطبقة الرابعة مات سنة ١٢٥هـ. وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين ينظر: الثقات لابن حبان(٥/٣٤٩)، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر - سوريا. الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، وتقريب التهذيب لابن حجر(١/٥٠٦)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) سورة عبس الآية: من(٢٨-٣١).

ضرب بيده ثم قال: لعمرك إن هذا لهو التكلف واتبعوا ما يتبين لكم في هذا الكتاب قال عمر: وما يتبين فعليكم به وما لا فدعوه)[١].

وهذان النصان صريحان في عدم تكلف الصحابة رضوان الله عليهم للتفسير؛ وأصرح من هذا ما يقوله المشتغلون بالتفسير من الصحابة الذين اشتهروا به كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقد قال: (من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف فإن قوله: لا أعلمُ عِلْم، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾)[٢]. وأصل القصة أن عبد الله بن مسعود بلغه أن رجلاً يتكلف تفسير القرآن، ويتحدث بما ليس له به علم فغضب لذلك وقال ما قال؛ فقد روى الإمام البخاري عن مسروق[٣]قال: بينما رجل يحدث في كندة فقال يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ففزعنا فأتيت ابن مسعود وكان متكئا فغضب فجلس فقال: من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

(١) جامع البيان للطبري(٢٤/٢٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١٥/٢٣١).

(٣) هو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله الهمداني أبو عائشة، الإمام القدوة العلم الفقيه العابد تابعي روى عن أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم وهو من أشهر تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه توفي سنة ٦٣هـ، راجع ترجمته في: السير للذهبي(٤/٦٣)، وتقريب التهذيب لابن حجر(١/٥٢٨)، والإصابة في تمييز الصحابة له(٦/٢٩١)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ، وتهذيب الكمال للمزي(٢٧/٤٥٢).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾)[1]. وأخرج ابن سعد[2] عن أبي موسى الأشعري ﷺ (قال: من علمه الله علما فليعلمه ولا يقولن ما ليس له به علم فيكون من المتكلفين ويمرق من الدين)[3].

وبالجملة فقد تميز عهد الصحابة ببعده عن التكلف في التفسير حتى صارت هذه الميزة من أهم مميزات التفسير في ذلك العهد[4] وبهذا استحق الصحابة أن يكونوا قدوة يشار إليهم بالبنان، يقول عبد الله ابن مسعود ﷺ : (من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب

(١) صحيح البخاري(٤/١٧٩١)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة آلم غلبت الروم، حديث رقم: ٤٤٩٦. وصحيح مسلم(٤/٢١٥٥) كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الدخان، حديث رقم: ٢٧٩٨.

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولاهم أبو عبد الله البصري كاتب الواقدي نزيل بغداد وصاحب الطبقات وأحد الحفاظ الكبار الثقات المتبحرين قال الخطيب كان من أهل العلم والفضل والفهم والعدالة صنف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين إلى وقته فأجاد فيه وأحسن. توفي ببغداد في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ. ينظر: ترجمته في كل من: وفيات الأعيان لابن خلكان(٤/٣٥١)، وطبقات الحفاظ للذهبي(١/٣٤)، وتهذيب الكمال للمزي(٢٥/٢٥٥-٢٥٧)، ولسان الميزان لابن حجر(٩/٣٥٩)، تحقيق: دائرة المعرف النظامية- الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، وتقريب التهذيب لابن حجر(٢/٧٩)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار المكتبة العلمية – بيروت، والأعلام للزركلي(٦/١٣٦).

(٣) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع البصري الزهري(٤/١١٠)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت. الطبعة: الأولى: ١٩٦٨م. والدر المنثور لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي(٧/٢٠٩)، دار الفكر – بيروت. طبعة سنة: ١٩٩٣م.

(٤) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (١/٦٧).

محمد كانوا والله أفضل هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) (١).

ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا هذا المنهج فهم عليه سائرون، وكانوا خير خلف لخير سلف، فقد أخرج الطبري عن الشعبي(٢) قال: (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن والروح والرأي) (٣). مع أن الشعبي- رحمه الله- كان على جانب عظيم من العلم، آية في الحفظ؛ فقد روي عنه أنه قال: (ما كتبت سوداء على بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته) (٤)، ومع هذا كان يتحرج أن يقول في القرآن الكريم، وما يمنعه إلا خشية أن يتكلف

---

(١) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣٠٥/١)، دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ. ومنهاج السنة لابن تيمية(٧٩/٢)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ. وأحاديث في ذم الكلام لأبي الفضل المقرئ(٢٨٨/٤)، تحقيق: د. ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، دار أطلس للنشر والتوزيع – الرياض. الطبعة الأولى: ١٩٩٦م.

(٢) هو عامر بن شراحيل الحميري أبو عمرو الكوفي ثقة مشهور فقيه فاضل الإمام العلم [روى] عن عمرو وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس ﷺ وخلق وعنه ابن سيرين والأعمش وشعبة وجابر الجعفي وخلق، ولد سنة ٢٠هـ وقيل ٢١هـ، وتوفي سنة ١٠٩هـ على الأشهر. ينظر كلاً من: السير للذهبي (٢٩٤/٤)، والكاشف له أيضاً(٥٢٢/١)، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو – جدة. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ، وتذكرة الحفاظ للذهبي(٧٩/١)، ولسان الميزان لابن حجر(٥٠٩/٧)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٥٧/٥)، دار الفكر – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ.

(٣) جامع البيان للطبري(٨٧/١).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

تفسير آية لم يَرِد فيها أثر فيقول فيها برأيه فيتخذها الخلف من بعده عمدة في بيان كلام الله، ويدلنا على ذلك قوله كما روي عنه أنه قال: (ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله)[(١)].

فهو إذن عالم بالقرآن من جهة المأثور، أما من جهة الرأي فهذا الذي توقف عنه، ولعل السبب في تحرجه من القول بالرأي في القرآن أن الرأي غالباً يبنى ما تميل إليه النفس، ويتكلف في إثباته، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(٢)]- رحمه الله -: (فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به)[(٣)]. فلهذه العلة كره الشعبي القول بالرأي كما كرهه بعض العلماء وقال بتحريمه قوم آخرون.

وأخرج ابن جرير أيضاً عن قتادة[(٤)] في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ

(١) الطبقات لابن سعد(٦/٢٤٩)، وتهذيب الكمال للمزي(٢/٣٨٤)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٥/٥٩).

(٢) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبدا لله الحراني الحنبلي أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية ولد في حران سنة ٦٦١ هـ وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وكان داعية إصلاح في الدين. آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ وأطلق، ثم أعيد، ومات سنة ٧٢٨هـ معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان(٤/٣٨٦)، والسير للذهبي(٢٢/٢٨٨)، والأعلام للزركلي(١/١٤٤)، ومعجم المؤلفين لكحالة(١/٢٦١).

(٣) مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:١٠٠)، اعتنى به فواز زمرلي، دار ابن حزم – بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.

(٤) هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري التابعي، ولد أكمه سنة ٦١هـ، روى عن أنس بن مالك وغيره كان قوي الحافظة واسع الإطلاع في الشعر العربي متضلعاً في اللغة العربية ومن هنا جاءت =

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[1] الآية. هذا ميثاق أخذه الله على أهـــل العلـــم، فمن علم شيئًا فليعلِّمه، وإياكم وكتمانَ العلم، فإن كتمان العلـــم هَلَكـــة، ولا يتكلَّفن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله فيكون من المتكلِّفين)[2].

ولا تعارض بين ما أثبته هنا من عدم تكلف التابعين للتفسير وبين ما ذكرته آنفاً من رواية مسروق بشأن الرجل الذي تكلف تفسير آية الدخان، لأن عدم تكلف الصحابة والتابعين للتفسير كان هو الطابع العام الذي ساد يومئـــذ، وإن كانت قد بدأت بعض مظاهر التكلف في التفسير في هذه المرحلـــة مـــن هـــذا العصر..!

نعم وجد في هذا العصر بعض مظاهر التكلف في التفسير، لكنها لم تعدُ أن تكـــون روايات قليلة جداً[3]، ولذلك لم تعد شيئاً يذكر أمام الطابع العام لهذا العصر.

إن أول ما ظهر (التكلف في التفسير) كان على لسان صبيغ بن عسل بـــن

شهرته في التفسير توفي سنة ١١٧هـــ، ينظر كلاً من: السير للذهبي(٥/٢٦٩)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٨/ ٣١٥- ٣١٨)، وطبقات المفسرين للأدنروي(١/١٤)، الطبقات الكبرى لابن سعد(٧/٢٢٩)، ومعرفة الثقات لأحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي(٢/٢١٥)، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار- المدينة المنورة. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـــ، والجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي(٧/١١٣)، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٢٧١هـــ.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٧.

(٢) جامع البيان للطبري(٧/٤٦١).

(٣) سيأتي ذكر بعضها قريباً – إن شاء الله –.

سهل الحنظلي[(١)] الذي كان يتكلف السؤال عن تفسير متشابه القرآن فضـــربه عمر بن الخطاب ﷺ وهي قصة أشهر من نار على عَلَم.

فقد أخرج الدارمي[(٢)] عن نافع[(٣)]: أن صبيغاً العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر ابن الخطاب، فلما أتاه الرســـول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل ؟ فقـــال في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني به العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر تسأل محدثة فأرسل إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى تـــرك

(١) هو صبيغ بن عسل بن سهل الحنظلي التميمي اليربوعي البصري. له إدراك أتهمه عمر برأي الخوارج وقصته مع عمر مشهورة. ينظر: الإصابة لابن حجر(٣/٤٥٨).

(٢) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام السمرقندي أبو محمد الدارمي الحافظ صاحب المسند ثقة فاضل متقن من الحادية عشرة، يروى عن يزيد بن هارون روى عنه أهل بلده كان من أهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع وتفقه وصنف وحدث وأظهر السنة في بلده ودعا الناس إليها وذب عن حريمها وقمع من خالفه. مات سنة ٥٥هـــ، وله أربع وسبعون سنة. ينظر: الثقات لابن حبان(٨/٣٦٤)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢/٥٣٥) ، وتهذيب الكمال للمزي(١٥/٢١٠)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٥/٢٥٨)، وتقريب التهذيب له أيضاً (ص:٣١١).

(٣) هو نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب ويكنى أبا عبد الله وكان من أهل أبرشهر وأصابه عبد الله في غزاته، وقد روى نافع عن ابن عمر وأبي هريرة وربيع بنت معوذ وصفية ابنة أبي عبيد وأسلم مولى عمر بن الخطاب وكان ثقة كثير الحديث ومات نافع بالمدينة سنة ١١٧هـــ في خلافة هشام بن عبد الملك. ينظر: الثقات لابن حبان(٥/٤٦٧)، ووفيات الأعيان لابن خلكان(٥/٣٦٧)، وتهذيب الكمال للمزي(٢٩/٢٩٨).

ظهره وبره ثم تركه حتى برأ ثم عادله ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له قال: فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلاً، وان كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت وفي رواية: (قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي!)[1] فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته[2].

وفي الدر المنثور (ثم كتب إلى أبي موسى أما بعد: فإن الأصبغ تكلف ما يخفى وضيع ما ولي فإذا جاءك كتابي هذا فلا تبايعوه وإن مرض فلا تعودوه وإن مات فلا تشهدوه)[3].

فإن قال قائل: إنما كان صبيغٌ سائلاً ولم يكن مفسراً، فأين حجتك فيما تقول؟!

قلت: لم يكن صبيغ مجرد سائل كما يظن الظان وإنما قد كان يحمل في رأسه تفسيراً غير التفسير المعروف! يدلنا على ذلك قوله في سياق القصة: (قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي!) وحتى لو كان سائلاً فإن تكلف السائل في سؤاله عن معنى كلام الله، يؤدي إلى تكلف المسؤول في إجابته والذي ينتج عنه التكلف في التفسير، فلذلك كان رد ابن الخطاب حاسماً.

(١) سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي(١/٦٦)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٣) الدر المنثور للسيوطي(٢/١٥٣).

ثم جاء نافع بن الأزرق[1]- أحد رءوس الخوارج[2] - وحمل لواء هذا المذهب في التعامل مع كتاب الله، و كانت له مواقف عديدة مع عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أكثر فيها من أسئلته المتعنتة[3].

أقول: - وأرجو أن يكون الحق ما أقول - إن المتتبع لتاريخ التفسير ليجد بجلاء أن التكلف في التفسير وإن ظهرت بداياته في هذا العصر إلا أنه ظل يكتنفه الإهمال ويخنقه الترك حتى حين مبدأ التدوين، و لعل السبب في ذلك يرجع إلى الأمور الآتية:

١) وجود الصحابة وإنكارهم على المتقولين في التفسير، مع كونهم محل احترام بين الناس.

٢) سذاجة هذه التفسيرات وشذوذها وتكلفها، وقد كان القوم عن الشذوذ بعداء ومن التكلف برآء، ولذلك طرحت و لم ترو مع التفسير.

---

(١) هو نافع بن الأزرق الحروري أحد رؤوس الخوارج، وإليه تنسب الطائفة الأزارقة، قتل في جمادى الآخرة سنة خمس وستين راجع لسان الميزان لابن حجر: (١٤٤/٦)، والأعلام للزركلي (٣٥١/٧).

(٢) الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عام ٣٧ هـ، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما وقد ورد في ذمهم والترغيب في قتالهم أحاديث صحيحة مرفوعة، وقد افترقوا على نحو عشرين فرقة، راجع: الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني(١١٣/١)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٤هـ.

(٣) قال الإمام السيوطي: وجمعها عبد الصمد بن علي بن محمد بن مكرم المعروف بابن الطسي في (مسائل نافع بن الأزرق)، ينظر: الإتقان للسيوطي:(٣٤٧/١).

٣) قلة تلك التفسيرات، وقلة من يرويها، فلذا لم تلق رواجاً ينشرها.

٤) احتدام القتال والفتن بعد مقتل عثمان-رضي الله-عنه وانشغال القوم بمقارعة بعضهم.

ولك أن تتصفح التأريخ في هذه الحقبة الزمنية ففيها دليل ما نقول.

وهكذا رأينا انصرام عصر الرواية وقد سلم - في الجملة - من تكلف في التفسير، خصوصاً المرحلة الأولى منه، وأنه تميز باكتفاء القوم بمعرفة المعنى الإجمالي للآية، وأن ما وجد من مظاهر تكلف التفسير نزر يسير- كما عرفت - لا يصلح أن يكون مظهراً اشتهر به هذا العصر؛ وهذا أوان الانتهاء من تحرير هذا المطلب والله المسئول أن يجعله نافعاً.



المطلب الثاني: التكلف في التفسير في عصر التدوين

والتدوين مصدر للفعل (دَوَّنَ) وهو يحمل معنى الجمع والضم، فيقال دون العلم تدويناً أي جمع شتاته المكتوب في سفر واحد[(١)].

ويبدأ عصر التدوين من أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث، أي من أواخر العهد الأموي وبداية العهد العباسي[(٢)]، لكن لا يعني هذا أنه لم تكن كتابة على الإطلاق من قبل في عصر الرواية، لا.. ليس الأمر كذلك، فقد نقلت لنا تصانيف المتقدمين كثيراً من الروايات تدل على وجود الكتابة[(٣)]عندهم من ذلك:

ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: (مَا مِن أصحاب النبيِّ ﷺ أحد أَكثر حَدِيثاً عنه مِنِّي إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب)[(٤)]، وهذا يدل بلا ريب على وجود الكتابة عندهم.

وغاية الأمر أنهم لم يكونوا يعولون عليه كثيراً بل كانوا يعدونه من العيب

---

(١) ينظر: تاج العروس للزبيدي(١/٨٠٣٦)، و كتاب الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات لأبي مريم بن محمد الأعظمي (٤/ ٣٩٨)، بدون ناشر.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(١/٩٥).

(٣) هنا مسألة في غاية الأهمية وجدتُ كثيراً يغفل عنها، وهي مسألة التفريق بين مصطلح (الكتابة، والتدوين، والتصنيف):

فالكتابة: تعني تقييد المعلوم والمحفوظ، والتدوين: يعني جمع شتات المكتوب في كتاب واحد وإن اختلف موضوعه. وأما التصنيف: معناه ترتيب الموضوع الواحد في أبواب مميزة، وراجع إن شئت: الحجج الدامغات للأعظمي(٤/٣٩٨).

(٤) صحيح البخاري. كتاب العلم، باب كتابة العلم (١/٥٤)، حديث رقم: ١١٣.

والنقص، فقد سأل ابن عباس رضي الله عنه رجل من نجران فأعجب ابن عباس حسن مسألته، فقال الرجل: اكتب لي! فقال ابن عباس رضي الله عنه: إنا لا نكتب العلم[١].

وأياً كان الأمر فالذي نود تقريره هنا والتأكيد عليه هو اعتبار هذا العصر مبدأ ظهور التدوين واعتماده إلى جنب الرواية؛ لقد دون التفسير كغيره من العلوم لكن ليس على استقلال، فكان من الطبيعي جداً أن تجد كتاب الفقه إلى جانب كتاب التفسير وهكذا..!

لكنه ما لبث أن انفصل وأُفرد بالتأليف، ثم استقل بعد ذلك وصار علماً بحد ذاته.

والناظر في جملة ما كُتب في (بداية التدوين) يجد أنه كان يأخذ طابع الرواية الحديثية كما هو واضح فيما دونه الإمام شعبة بن الحجاج [٢] والإمام وكيع بن الجراح[٣] والإمام وسفيان بن

---

(١) رواه عبد الرزاق بسند صحيح. مصنف عبد الرزاق(١١/٢٥٨)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ.

(٢) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولاهم أبو بسطام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن من أئمة رجال الحديث، حفظا ودراية وتثبتاً، ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة إلى أن توفي، كان الثوري يقول هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة وكان عابداً من السابعة، روى عن أبان بن تغلب وإبراهيم بن عامر بن مسعود وإبراهيم بن محمد بن المنتشر وغيرهم توفي سنة ١٦٠هـ، راجع: السير للذهبي(٧/٢٠٢)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٤/٢٩٧)، وتقريب التهذيب لابن حجر(ص: ٢٦٦)، شذرات الذهب للعكري(١/٢٤٧)، والأعلام للزركلي(٣/١٦٤).

(٣) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي ولد سنة ١٢٩هـ، كان عالماً عابداً ثقة حافظ، من كبار الطبقة التاسعة حدث في بغداد وكان محدثاً ومفسراً توفي في آخر سنة ست وأول سنة

عيينة[1] وغيرهم – رحمهم الله –، وكلهم من أهل السنة والجماعة، وأستطيع القول: إن ما دون من التفسير في هذه المرحلة (بداية التدوين) خلى – في الجملة – من تكلف التفسير، لأنه أخذ طابع الرواية وهذا يعني أنه سيأخذ حكمها.

فلما ازدهر العصر العباسي وترسخت الفرق – كالشيعة[2] والخوارج والمعتزلة[3]– وامتزجت الثقافة العربية بغيرها ظهر معها التكلف في التفسير في أوضح صورة؛ فكل من اعتقد اعتقاداً حاول أن يستدل عليه من النص الكريم،

سبع وتسعين وله سبعون سنة. راجع: السير للذهبي (٩/١٤٠)، وتقريب التهذيب لابن حجر (٢/٢٨٣)، وطبقات المفسرين للأدنوري (ص: ٢٢).

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي. ولد سنة (١٠٧هـ) و سكن مكة، كان قوي الحفظ، أحد الثقات الأعلام أجمعت الأمة على الاحتجاج به روى عنه الأعمش وابن جريج وشعبة والثوري والشافعي وغيرهم توفي سنة ١٩٨هـ. ينظر: السير للذهبي(٨/٤٥٤)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٤/١٠٦)، وتقريب التهذيب لابن حجر(ص: ٢٤٥).

(٢) الشيعة: هي أقدم الفرق على الإطلاق، و هم الذين شايعوا علياً وأهل بيته وقالوا إن علياً هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وقد افترقوا إلى اثنتين وعشرون فرقة يكفر بعضهم بعضاً، أصولهم ثلاث فرق غلاة، وزيدية، وإمامية. ينظر: كتاب المواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي(٣/٦٧١)، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل- بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٩٧م، والتفسير المفسرون:(٢/٥).

(٣) المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، في مسألة تكفير صاحب الكبيرة وكان ذلك في العصر الأموي، وانتشرت في العصر العباسي، من أهم أصولهم (التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد...إلخ)، وقد افترقوا إلى سبع عشرة فرقة وقيل غير ذلك، ينظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي أبو عبد الله(من ٣٨-٤٥)، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية – بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٢هـ.

فإن لم يطاوعه رَكِبَ التكلف حتى يبلغ غاية مقصوده، وإن كان لسان حال النص يقول له: (دعني..!).

فالشيعة كتبوا بما يوافق معتقدهم وأقدم تفسير عندهم هو تفسير الحسن العسكري[1]، والخوارج كذلك دونوا بما يلبي أفكارهم وأقدم تفاسيرهم تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي[2]، وهكذا ثالثة الأثافي المعتزلة وأقدم تفاسيرهم تفسير أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم [3]ولا

(١) هو علي (الملقب بالهادي) ابن محمد الجواد بن علي الرضي بن موسى بن جعفر الحسيني الطالبي: عاشر المائة الإثني عشر عند الإمامية، وأحد الأتقياء الصلحاء، ولد بالمدينة سنة ٢١٤ هـ، وتوفي بسامراء سنة ٢٥٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٢٥٢)، والسير للذهبي (١٣/١١٩)، والأعلام للزركلي (٤/٣٢٣).

(٢) هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام فارسي الأصل، كان جده بهرام من موالي عثمان ابن عفان مؤسس مدينة تاهرت (بالجزائر) وأول من ملك من (الرستميين) وكان من فقهاء الإباضية بإفريقية، معروفا بالزهد والتواضع، وله كتاب في (التفسير)، توفي سنة ١٧١هـ، ينظر: الأعلام للزركلي(٣/٣٠٦)، وقد ذكر الدكتور الذهبي أنه من علماء القرن الثالث، وليس الأمر كما قال! وإنما هو من علماء القرن الثاني، كما هو واضح من تاريخ وفاته والله أعلم.

(٣) هو عبد الرحمن بن كيسان أبو بكر الأصم المعتزلي صاحب المقالات في الأصول، كان ديناً وقوراً، صبوراً على الفقر، منقبضاً عن الدولة إلا أنه كان فيه ميل عن الإمام علي وكان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم وله تفسير عجيب ومن تلامذته إبراهيم بن إسماعيل بن علية، مات سنة ٢٠١هـ، ينظر: السير للذهبي(٩/٤٠٢)، ولسان الميزان لابن حجر(٣/٤٢٧)، والأعلام للزركلي(٣/٣٢٣)، وقد ذكر أنه مات سنة ٢٢٥هـ كما ذكر الدكتور الذهبي أنه مات سنة ٢٤٠هـ، والحقيقة أني لم أوفق لحل لهذه المشكلة وإن كنت أميل لما قال الإمام الذهبي - رحمه الله - لكونه أحفظ وأقدم، ولأن إبراهيم بن إسماعيل بن علية - وهو تلميذ الأصم - مات سنة ٢١٨هـ والغالب أن الشيخ تقدم وفاته عن التلميذ والله أعلم.

يوجد من هذه التفاسير إلا تفسير الحسن العسكري فهو مطبوع في مجلد واحد ومنه نسخة بدار الكتب المصرية[١].

ولعل الذي ساعد هؤلاء على الإقدام على هذا أمور منها:

١) اختصار الأسانيد في هذه المرحلة وذكر التفسير مباشرة فدس الكثير تفاسيراً ونسبوها إلى من لم يقلها من السلف، كعلي و عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- .

٢) اتساع القول بالرأي في هذه المرحلة، فكل من سنح له معنى تكلف حمل الآية عليه حتى أن بعضهم أورد في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[٢] عشرة أقوال مع أن الثابت بلا خلاف أن المراد بهم اليهود والنصارى لما ثبت عن رسول الله ﷺ[٣].

وأرى أن أمسك عن الخوض في تفسيرات الطوائف المنحرفة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم، و أعتقد أن التمثيل لتكلف كل فرقة في تقرير مذهبهم أمر غير ميسور؛ بل هو صعب المنال، وضرب من المحال، وحجتي في ذلك سببين اثنين هي:

١) أن هذا النوع من التفسير قد بلغ الكثرة الكاثرة في هذه المرحلة، ولك أن تتخيل أن الشيعة فقط افترقوا إلى أكثر من عشرين فرقة فأنى لباحث أن يأتي عليها ؟!

---

(١) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/ ٣٠).

(٢) سورة الفاتحة الآية: ٧

(٣) ينظر: الإتقان للسيوطي(٢/ ٥٠٠).

٢) أن هذه التفاسير قد عُرفت أصلاً بمثل هذا النوع من التفسير، والاتفاق واقع على بطلان ما وقع فيها من غلو وانحـــراف، ولا معـــنى إذاً للتمثيـــل إلا الترويج لهذه الأقوال الموبوءة. إضافةً إلى أن هذه المرحلة ليست موضع الدارسة.

أما التفاسير التي عرف أصحابها بصحة الاعتـــقاد واتباع منـــهج السلف، فهذا الذي يمكن التمثيل به، إذ الأصل فيه موافقة الحق.

ومن أهم هذه التفاسير تفسير (التفسير الكبير) المسمى بـــ(مفاتح الغيـــب) للإمام الفخر الرازي[1] من علماء القرن السادس الهجري.

وكأني أسمع همساً يتساءل كيف تطوي الزمن مباشرة لتصـــل إلى الإمـــام الفخر الرازي؟!.

فأقول: عن دراية فعلت، ولقصد قصدت ! وهو أن الإمام الرازي - رحمه الله - كان أشهر من أُثر عنه هذا الشيء باتفاق النقاد ! ولهذا كان التمثيل بـــه أولى من غيره.

هذا التفسير الذي كثر الحديث عنه على اختلاف في الرأي ما بين واصفاً يصفه بـــ(أن فيه كل شيء إلا التفسير)[2] وما بين معجب به يقول عنه: (جمع

---

(١) هو محمد بن عمر بن خطيب الري الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة أهمها: (التفسير الكبير والمحصول وغيرها)، كان إمام الدنيا في عصره، ولد سنة ٥٤٣ وقيل ٥٤٤ هـــ، وتوفي سنة ٦٠٦هـــ، ينظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير القرشي أبو الفداء(١٣/٥٥)، وأبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، لصديق بن حسن القنوجي(٣/١١١)، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت. ١٩٧٨م، والأعلام للزركلي (٦/٣١٣).

(٢) قاله ابن تيمية. ينظر: الوافي في الوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدي(٤/١٧٩)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت. طبعة سنة١٤٢٠هـــ-٢٠٠٠م.

فخر الدين الرازي في تفسيره كل غريب وغريبة) [1]، وما بين ثـــالث قـــد اتـــخذ العدل ميزانه فهو يزن بالقسطاس المستقيم فقال: (فيه مع التفسير كـــل شيء) [2]، وما أحسن العدل والإنصاف فالحق ما قاله المنصفون؛ وإذا تســـاءلنا عن السبب الذي جـــعل الكثـــير من العـــلماء يصف هذا التـــفسير بالوصف اللاذع، لوجدنا أن السبب في ذلك هو تكلفه في تفسير كثير من الآيات علـــى طريقة الفلاسفة والمتكلمين، والاستطراد المفرط في ميـــادين العلـــوم العقليـــة والكونية والفلك[3]...إلخ ؛ مع أنه لم يقصد التكلف..! كيف وهو مِن أكثر مَنْ ردد هذه الكلمة في سياق الإنكار، وخاصة على النحاة و أهل اللغة فقد قال في تفسيره بالحرف الواحد: (إني لأتعجب كثيراً من تكلفات هؤلاء النحـــويين في أمثال هذه المواضع...!!!)[4].

أجل.. فما الذي اضطره أن يقع فيما يتعجب منه؟!

---

(١) قاله ابن خلكان في وفيات الأعيان(٢٤٩/٤).

(٢) قاله أبي الحسن علي السبكي. ينظر: الوافي في الوفيات للصفدي(١٧٩/٤).

(٣) قال الدكتور محمد الخضير (والرازي مع إكثاره عن رؤوس المعتزلة كالجبائي... مكثر من الأقوال وتشقيقها وتوسيع دائرة الخلاف إما بما لا يُعرف له قائل أصلاً من السلف، وإما بالاحتمالات البعيدة المتكلفة)، ينظر: الإجماع في التفسير للدكتور محمد الخضير(ص: ١٢٤)، دار الوطن، وقال دروزة: (ومع ما على كلام المؤلف [يقصد الفخر الرازي] من طابع الاستقلال بوجه عام وما تدل عليه استطراداته وتعليقاته واستدراكاته ومنقولاته من قوة العقل وسعة الأفق... فإن المدقق فيها يجد كثيراً من التكلف والتحكم والاضطراب والتخمين والمفارقة والمبالغة والإغراب..)، ينظر: التفسير الحديث لدروزة(٢٥١/١).

(٤) التفسير الكبير لمحمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى(٢٩٣/٥)، دار إحياء التراث العربي.

لقد هدف الإمام الرازي من تأليف تفسيره إلى تحقيق عدة أهداف من أهمها:

١) الدفاع عن القرآن والاستشهاد له بالعلوم والمعارف.

٢) الدفاع عن العقيدة، والوقوف في وجه الماديين والملحدين، ورد الشبهات والمطاعن.

٣) انتزاع زعامة التفسير من المعتزلة [1].

فلما كان يهدف إلى ذلك، اضطره أن يتكلف لتقريره في كثير من المواضع من تفسيره؛ فمثلاً عندما يريد أن يدفع شبهات الفلاسفة يخرج التفسير في قالب الفلاسفة، وعندما يمر على وادي العلوم تراه يضرب فيه الخيام ويظل متنقلاً بين أفانينه حتى إذا قضى منه وطره انتقل إلى غيره وهكذا؛ ومما شد انتباهي أيضاً في هذا التفسير كثرة الألفاظ المشعرة بِضعف التفسير أو بتكلفِه مثل (يُحتمل، معقول، مشعر) [2] وأمثالها. إن المعاني المحتملة والمعقولة و... و... إلخ، الأولى أن يتره عنها التفسير ما دام المعنى الظاهر موجوداً والله أعلم.

ولنتصفح هذا التفسير، لنجد فيه صريح المثال في أوضح صُوره... !

المثال الأول:

من أمثلة تكلفه - رفع الله قدره - ما قاله عند قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ

---

(١) ينظر: تعريف الدارسين للخالدي(ص: ٤٧٤).

(٢) فمثلاً كرر لفظ (يحتمل) فقط أكثر من ٧٤٥ مرة في تفسيره.

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[١] فقد تكلف تكلفاً خالفته الحقيقة العلمية اليوم، وذلك أنه ذهب إلى أن الأرض مسطحة غير كروية وثابتة لا تدور وهذا نص كلامه قال – رفع الله قدره –: (اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر هاهنا أنه جعل الأرض فراشاً، ونظيره قوله: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾[٢] وقوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[٣] واعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

الشرط الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق لأن من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاوٍ، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً، أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلاً إذا كانت إلى المشرق والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستدارة

(١) سورة البقرة الآية: ٢١.

(٢) سورة النمل الآية: ٦١.

(٣) سورة الزخرف الآية: ١٠

ولا بالاستقامة فهي ساكنة)[١]، ثم ذكر خلافهم في سبب ذلك السكون، ويا ليت شعري يختلفون في ماذا ؟! أيختلفون في مسألة لا قبل لهم بمعرفتها؟! إنهم لو علموا ما ثبت بالحقيقة العلمية اليوم من دوران الأرض لَمَا ترددوا أن يصفوا أنفسهم بالتكلف !

ومع كونهم تكلفوا في بيان مسألة ليست من التفسير في شيء فإنهم قد فتحوا ثغرة للطاعنين، والشانئين ينتقصون بها المسلمين.

ألا ليته وقف عند التفسير و لم يحمل الآية هذا المعنى الذي كشف العلم خطأه.

المثال الثاني:

ومن أمثلة تكلفه أيضاً أنه تساءل – رحمه الله – عن فائدة ذكر السماء في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[٢]، مع أن الصيّب لا يكون إلا من السماء؟! ثم تكلف الإجابة على ذلك بجواب خالفته - أيضاً - الحقيقة العلمية في هذا العصر فقد أفاد:

(إن ذلك لئلا يظن احتمال نزول الصيّب من بعض جوانب السماء دون بعض (!!) فلما ذكرت السماء دلّ على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء جميعها (!!)، ثم استطرد فقال: إن من الناس من قال إن المطر يحصل من ارتفاع أبخرة من الأرض إلى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بيّن أن الصيّب نزل من السماء ،

---

(١) التفسير الكبير للرازي(٢/٣٣٦).

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩.

وأكّده في آيات أخرى مثل ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[١]، و﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[٢])[٣].

ولا يخفى أن هذا الكلام فيه من التكلف ما هو معلوم، وماذا يقول الرازي – رحمه الله – لو علم أنه قد ثبت بالعلم القطعي أن المطر يحصل بالعملية التي تكلف ردها؟! لذا نقول: إن تفسير الآية بهذا المعنى تفسير متكلف، وقد رده المفسرون ومنهم على سبيل المثال محمد عزت دروزة فقال: (والتكلّف في التساؤل واضح كما أنه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية وفي هذا تعريض للقرآن للنقاش الجدلي)[٤].

المثال الثالث:

ومن أمثلة تكلفه أيضاً ما قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ..﴾[٥] فقد عكف عليها مستغرقاً ثلاثين صفحة، حيث تكلم عن خلق الأفلاك والنجوم وما هو بطيء وما هو سريع، وعن أيام خلق السموات، والاستواء، ثم أكثر من العلوم المستنبطة كما هي عادته؛ وهاأنذا أثبت هاهنا طرفاً من ذلك فقد قال – رحمه الله – وأعلى درجته في العليين:

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٤٨.

(٢) سورة النور الآية: ٤٣.

(٣) ينظر: المصدر السابق(٢/٧٢).

(٤) التفسير الحديث لدروزة(١/٢٥٢).

(٥) سورة الأعرف الآية: ٥٤

المسألة الثانية: (الخَلقِ) التقدير على ما قررناه فخلــق الســموات والأرض إشارة إلى تقدير حالة من أحوالهما، وذلك التقدير يحتمل وجوهاً كثيرة:

أولها: تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أن العقل يقضي بــأن الأزيــد منــه والأنقص منه جائز، فاختصاص كل واحد منهما بمقداره المعين لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص، وذلك يدل على افتقار خلق السموات والأرض إلى الفاعل المختار.

وثانيها: أن كون هذه الأجسام متحركة في الأزل محال، لأن الحركة انتقال من حال إلى حال، فالحركة يجب كونها مسبوقة بحال أخــرى، والأزل ينــافي المسبوقية فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً.

إذا ثبت هذا فنقول: هذه الأفلاك والكواكب إما أن يقال إن ذواتها كانت معدومة في الأزل ثم وجدت، أو يقال: إنها وإن كانت موجودة لكنها كانــت واقفة ساكنة في الأزل ثم ابتدأت بالحركة، وعلى التقديرين فتلــك الحركــات ابتدأت بالحدوث والوجود في وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك الوقــت وبعده، وإذا كان كذلك كان اختصاص وابتداء تلك الحركات بتلك الأوقات المعينة تقــديراً وخلقاً، ولا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر ومختار.

وثالثها: أن أجرام الأفلاك والكواكب والعناصر المركبة من أجزاء صــغيرة، ولا بد وأن يقال إن بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام وبعضها حصلت على سطوحها فاختصاص حصــول كل واحد من تلك الأجــــزاء بحيزه المعين لا بد وأن يكــون لتخصيص المخصص القادر المختار.

ورابعها: أن بعض الأفلاك أعلى من بعض، وبعض الكواكب حصل في المنطقة وبعضها في القطبين، فاختصاص كل واحد منهما بموضعه المعين لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص قادر مختار.

وخامسها: أن كل واحد من الأفلاك متحرك إلى جهة مخصوصة، وحركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة، وذلك أيضاً خلق وتقدير يدل على وجود المخصص القادر.

وسادسها: أن كل واحد من الكواكب مختص بلون مخصوص مثل كمودة زحل ودرية المشتري، وحمرة المريخ، وضياء الشمس، وإشراق الزهرة، وصفرة عطارد، وزهور القمر، والأجسام المتماثلة في تمام الماهية. فكان اختصاص كل واحد منها بلونه المعين خلقاً وتقديراً ودليلاً على افتقارها إلى الفاعل المختار.

وسابعها: أن الأفلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة، وواجب الوجود لا يكون أكثر من واحد فهي ممكنة الوجود في ذواتها، فكلما كان ممكناً لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، والحاجة إلى المؤثر لا تكون في حال البقاء، وإلا لزم أن تكون الكائن فتلك الحاجة لا تحصل إلا في زمان الحدوث، أو في زمان العدم؛ وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الأجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصاً بوقت معين وذلك خلق وتقدير، ويدل على الحاجة إلى الصانع القادر المختار.

ثامنها: أن هذه الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون فهما محدثان، ومالا يخلو عن المحدث فهو محدث، فهذه الأجسام محدثة وكل محدث فقد حصل حدوثه في وقت معين، وذلك خلق وتقدير ولا بد له من الصانع القادر المختار.

وتاسعها: أن الأجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التي كانت لأجلها كانت سموات وكواكب، والبعض الآخر بالصفات التي لأجلها كانت أرضا أو ماء أو هواء أو ناراً لا بد أن يكون أمرا جائزاً، وذلك لا يحصل إلا بتقدير مقدر وتخصيص مخصص.

وعاشرها: أنه كما حصل الامتياز المذكور بين الأفلاك والعناصر فقد حصل أيضاً مثل هذا الامتياز بين الكواكب وبين الأفلاك وبين العناصر بل حصل مثل هذا الامتياز بين كل واحد من الكواكب، وذلك يدل على الافتقار إلى الفاعل القادر المختار)[1].

هكذا كتب – رحمه الله – وما أظنك بعد هذه الرحلة الفلكية إلا تاعباً من طول النظر في هذا التفسير، فإن كنت كذلك فاعلم أن هذه العشرة الاحتمالات إنما هي في تقرير لفظة (خلق) فحسب، أما بقية الآية فلا يزال في وَتَر قَوسِها مَنْزَع !

أليس هذا هو التكلف على حد تعبير النووي - رحمه الله - حين عرفه بقوله فيما سبق ذكره: قول وفعل ما لا مصلحة فيه بمشقة، فأي مصلحة نجنيها من جراء هذا التطويل؟!

وإذا سلمنا أن الآية تحتمله، ألا كان بعبارة أيسر من هذه؟!

ولا شك أن الإمام - رحمه الله - كان يحس أنه يطيل في تفسيره بما لا تحتمله الآية، وأن سهام النقد ستصيبه فقال مستدركاً: (وربما جاء بعض

(١) التفسير الكبير للرازي(١٤/ ٢٧٨).

الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم، وذلك خلاف المعتاد !

فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته)[١].

إن توليد المسائل ليس في الأصل تفسيراً، بل هو تعقيد الْمُفَسِر للمفَسَّر، ويُحوج الناظر فيه إلى طويل فكر، و الكلام إذا (احتاج الناظر فيه إلى فكر خرج عن نمط الحُسن إلى نمط القبح والتكلف وذلك ليس من كلام العرب، فكذلك لا يليق بالقرآن من باب الأولى)[٢].

وبعد فالذي نخلص به أن الإمام الرازي - رحمه الله - قد حشا تفسيره باحتمالات كثيرة ظهر التكلف فيها واضحاً، وكان الأولى أن لا يثقل بها التفسير، لأن غاية التفسير البيان، والبيان إذا كثرت عباراته، عسر إدراكه، وتلك علامة التكلف ! مع أننا نوافقه على كثير من اللفتات والإشارات التي ذكرها.

ومهما يكن الأمر فإن الفخر الرازي سيظل علماً من أعلام الإسلام لا ينقص من قدره بيان موضع الخطأ الذي وقع فيه، والذي تناوله العلماء الأفذاذ بالبيان، ثم كنا بأقوالهم مستشهدين، وإلا ما تجرأنا على رجل من العالِمِين، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه !

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٢) الموافقات للشاطبي(٤/٢٦٢).

المطلب الثالث: التكلف في التفسير في العصر الحديث

إن أهم ما ميز هذا العصر عن ما سبقه من العصور الانفجار العلمي والتكنولوجي الذي شهده، فاكتشفت كثير من الحقائق التي غابت عن الأولين، كما (شهد العصر الحديث تحكم المادية الجاهلية الغربية في العالم، حيث تقدمت أوروبا وأمريكا كثيراً في العلم والمادية والتكنولوجيا، وبالغت في الجاهلية والابتعاد عن الله، وانتشار الأفكار الفلسفات المادية والإلحادية، والآراء التي تهاجم الدين والإيمان، وتدعو إلى اللادينية والنظريات العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، ظهر فلاسفة ومفكرون لا دينيون كفار...، وظهرت الماركسية والقومية والرأسمالية والاشتراكية وغيرها...! وبينما شهد العصر الحديث تقدم وتحكم الجاهلية الأوروبية، فقد شهد تأخر وانحطاط المسلمين، حيث ابتعد المسلمون كثيراً عن إسلامهم، وتأخروا عن ركب العلم والحضارة والتقدم...)[1].

وزادت في هذا العصر قداسة العقل وأعطيت له الحرية القصوى، فهو الذي اخترع وابتكر وأبدع وفكر وصعد القمر..! فما حسّنه فهوَ الحَسَن وما قبّحه فهو القبيح، ومن هنا نجد أن العصر الحاضر هو الأرض الخصبة التي ترعرع فيها التكلف مطلقاً حتى ازدهر وأثمر، وكان بالنسبة إلى ما قبلة من العصور أسوأها؛ فإذا كان العصر العباسي قد شهد انفتاحاً ثقافياً كبيراً عَكَس موروثه سلباً على علوم الشريعة والتفسير، وظهرت الفرق والطوائف والتعصب المذهبي، فإن هذا

(١) ينظر: تعريف الدارسين للخالدي(ص: ٥٦١).

العصر قد انفتح انفتاحاً أشد وأظهر.

ولا شك أن ذلك سيؤثر حتماً في بناء ثقافة أبناء المسلمين، كما سيؤثر في لغة الطرح ونوعية الأسلوب الذي سيواجه بها هذا الجيل المتطور!!!

(وأمام هذا الواقع المؤلم قام المخلصون والمصلحون والدعاة، وقد أصابتهم الدهشة وتملكتهم الحيرة. من أين يبدأون؟ وما هي الطريق التي يسلكونها لمقاومة المادية الجاهلية المستعمرة، وبعث الأمة الإسلامية من جديد!... فبعضهم وجه وجهه نحو المادية الغربية نفسها، يستعير منها مناهج الإصلاح،... وبعضهم وجه وجهه نحو عقيدة الأمة ودينها...، وأُدخل القرآن الكريم المعركة مع الجاهلية،... ومن ثَمَّ ظهرت تفاسير مختلفة للقرآن الكريم، يركز كل منها على لون من ألوان التفسير، ويلتزم فيه صاحبه منهجاً خاصاً وطريقة معينة، بحسب المدرسة التي ينتمي إليها والتيار الذي يسير معه)[1].

إن الناظر في نتاج التفسير المعاصر ليجد إنما هو امتداد لما شيده الأقدمون ليس إلا، وغاية ما فيه أنه خرج بلغة العصر، وهذا أمر اعترف به المفسرون أنفسهم، قبل غيرهم؛ ففي مقدمة تفسير ابن عاشور يقول - رحمه الله -: (والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل)[2].

وفي رأيي أن اتجاهات التفسير في العصر الحديث هي نفسها اتجاهات

(١) ينظر: مدخل إلى ظلال القرآن لصلاح الخالدي(ص:٦١)، دار المنارة – جدة. الطبعة الأول: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١/٢).

التفسير في العصر القديم[١] إلا القليل كالاتجاه الاجتماعي، والأدبي، والموضوعي وبالأخص الموضوعي[٢] فإن هذه الاتجاهات برزت مؤخراً أكثر من غيرها وإن كانت قد ظهرت من ذي قبل، وهذا يعني أن التكلف في التفسير سيكون له حظ وافر في هذا العصر كما كان في اتجاهات التفسير عند المتقدمين، وأنت إذا قرأت في نتاج المفسرين في هذا العصر وجدهم على ثلاثة أقسام:

١) قسم ظل محتفظاً بطريقة السلف مع مراعاة لغة العصر.

٢) وقسم تأثر بالعلوم المستجدة فهو على تقريرها عاكف.

٣) وقسم قدّس الغرب وعلومه وحضارته ونظر إلى الدين وأهلة بعين الازدراء والسخرية والتنقص.

فأما القسم الأول وهم الذين احتفظوا بطريقة السلف وراعوا لغة العصر، لم يكونوا على مستوى واحد:

١) فمنهم من اقتصر على التفسير و لم يتعرض للحديث عن غيره من المسائل إلا في القليل النادر، وفي مقدمة هؤلاء الإمام عبد الرحمن السعدي[٣] في

(١) اتجاهات التفسير قديماً وحديثاً هي: الاتجاه الأثري، الاتجاه العقلي، الاتجاه الاجتماعي، الاتجاه الأدبي، الاتجاه الموضوعي، الاتجاه العلمي، الاتجاه الإلحادي. هذه خلاصة ما وقفت عليه من أقوال العلماء، فقد ذكروا اتجاهات كثيرة تندرج تحت ما ذكرناه. والله أعلم.

(٢) قد وقفت على أكثر من ٤٠ مؤلفاً في التفسير الموضوعي.

(٣) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسر من علماء الحنابلة، من أهل نجد ولد في عنيزة (بالقصيم) سنة ١٣٠٧هـ، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها، له نحو ٣٠ كتاباً من أهمها (تفسير تيسير الكريم المنان) و (القواعد الحسان في تفسير القرآن)، توفي في عنيزة (بالقصيم) ١٣٧٦هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(٣/٣٤٠)، ومن أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة =

(تيسير الكريم الرحمن) ومصطفى المنصوري[(١)] في (المقطف من عيون التفاسير)، والجزائري في (أيسر التفاسير) وغيرهم؛ ولك أن تتصفح تفسير السعدي مثلاً، لتجد عذوبة اللفظ وسلاسة العبارة ولا عجب فإن هذا هو المنهج الذي رسمه لنفسه في المقدمة حيث يقول: (وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله ويقابل بينه وبين نظيره)، إلى أن قال: (ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت)[(٢)].

أما المنصوري فهو كذلك جانب التكلف في التفسير في تفسيره حتى وصفه محققه بأنه (شذرات وزهرات يانعة من رياض علم التفسير)[(٣)].

وصاحب (أيسر التفاسير) ذكر في بداية تفسيره أهم مميزاته[(٤)]، وكلها تشير إلى أنه سيجانب ما يجر إلى التكلف كالخوض في المسائل النحوية والاختلافات

لعبدالله العقيل(ص:٣٨٥)، دار التوزيع والنشر.

(١) هو مصطفى بن ميمش بن الحسين الحصني المنصوري ولد مدينة حصن المنصور سنة ١٣٠٧هـ ودرس العلوم الابتدائية والرشيدية بمحل ولادته والتحق بمدرسة الواعظين ثم مدرسة القضاة، كان عالماً الفقه والأصول والفرائض وأصول الصك وأحكام الأوقاف ويتكلم ويكتب بثلاث لغات هي: التركية، والعربية، والفارسية، توفي سنة ١٣٩٠هـ. ينظر: المقتطف من عيون التفاسير (١/٧-٨)، تحقيق: محمد علي الصابوني دار السلام – القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن السعدي(ص: ٣٠)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

(٣) تفسير المقطف من عيون التفاسير لمصطفى المنصوري(١/٦).

(٤) تفسير أيسر التفاسير للجزائري(١/٦)، طبعة خاصة بالمؤلف- المدينة المنورة. طبعة سنة: ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

المفسرين وعدم الخوض في أمر المتشابهات والغيبيات وأنه سيكتفي بمنهج السلف في العقيدة والتفسير.

ومن خلال تتبعي لهذه التفاسير أستطيع القول: إنها خلت تماماً من التكلف ولهذا حظيت بالتداول أكثر من غيرها، ويلحق بهذه التفاسير تلك المختصرات التي عنيت بإبراز المعنى دون غيره وهي من الكثرة بمكان في هذا العصر مثل (زبدة التفسير)[١] للأشقر.

٢) ومنهم من تعرض للتفسير بشيء من التوسع مع إعطاء مساحة للرأي المحمود، كما فعل الشيخ ابن عاشور في(التحرير والتنوير)، وسيد قطب[٢] في (في ظلال القرآن)، والدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره (التفسير المنير) وغيرهم، وهذه التفاسير وإن أعطت للرأي مساحة إلا أنها قلّ فيها التكلف في التفسير، لا سيما وأن بعض أصحابها عُرف بانتقاده للتكلف في التفسير كما سيأتي إن شاء الله تعالى في المبحث الآتي.

أما الذين توسعوا في التفسير بالرأي مثل رواد المدرسة العقلية[٣] فَمَع اتهامهم للمتقدمين وانتقادهم إياهم بأنهم ملأوا تفاسيرهم بتكلفات النحاة وأساطير الإسرائيليات[٤]..!!، إلا أنهم سطروا في تفاسيرهم

(١) اختصره من تفسير فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني - رحمه الله -.

(٢) سيأتي التعريف به وبتفسيره.

(٣) كالإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا وأحمد مصطفى المراغي - رحمهم الله -.

(٤) الإسرائيليات: جمع إسرائيلية نسبة إلى بني إسرائيل وهم اليهود، ومعناها ما يروى عن اليهود والنصارى من أخبار، وإنما أطلق على جميع ذلك بالإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي، لأن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر وكثر عنه النقل. ينظر: التفسير والمفسرون =

أشياءً ليست من قبيل التكلف في التفسير فحسب؛ بل الأولى في حقها أن تسمى زلات أعَلاَم، و شطحات أقلام!!. لقد كنت منذ زمن - ليس باليسير- أقرأ عن هؤلاء المفسرين وما يصفهم به كثير من المعاصرين من أوصاف مقذعة وعبارات لاذعة، فكنت – والحق يقال – أحس بزيادة خفقان القلب فرقاً مما أقرأ من تراشقٍ بالكلمات الساخنة، وكان من الطبيعي أن أنكر مثل ذلك جرياً على أن الأصل في المسلم البراءة[1] ؛ لكنْ كان ذلك دافعاً قوياً للقراءة في موروثهم، فلما مثلته بين يدي ورمقته بعيني، إذا أنا بالهجوم المتطرف على المفسرين – المستقدمين منهم والمستأخرين – والاتهامات المجازفة! وجدت منهم من يتهم الصحابة والتابعين فيقول: (ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الأحبار وممن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه ومنهم المدلسون كقتادة وكذا غيره كبار المفسرين كابن جريج)[2]، وقال في موضع آخر: (بمثل هذه الخرافات كان كعب الأحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسنتهم، وخدع به الناس لإظهاره التقوى، ولا

للدكتور الذهبي(١/١١١)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير. للدكتور: محمد بن محمد أبو شهبة(ص: ١٢)، مكتبة السنة. الطبعة الرابعة.

(١) ينظر: الوجيز في شرح القواعد الفقهية للدكتور عبد الكريم زيدان(ص: ٣٧)، مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد بن علي رضا(٩/ ٤٢٣)، الهيئة المصرية العامة للكتاب. طبعة سنة: ١٩٩٠م.

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !)[١]؛ وأفضع من هذا ما قاله عن كعب أخيراً: (كعب الأحبار الذي أجزم بكذبه بل لا أثق بإيمانه) [٢] وهو كلام أربأ بنفسي ومن يقرأ هذه السطور أن يتقبله لما فيه من اتهام جائر على الصحابة وعلماء الحديث الذي أفنوا أعمارهم في تنْقيَة السُّنة وإيصالها لنا ناصعة نقية؛ ولما قرأت ذلك كله قلت في نفسي: (كما تُدين تُدان) [٣]، مع أننا نتعرف ما لهؤلاء المفسرين من جهود مشهودة على الإسلام والمسلمين.

وأما القسم الثاني الذي تأثر بالعلوم فكما هو الحال في تفسير (الجواهر) للشيخ طنطاوي جوهري - وسيأتي الكلام عنه في المبحث التالي إن شاء الله- و(التفسير الفريد للقرآن المجيد) للدكتور محمد عبد المنعم وغيرهما.

(وظهرت في الفترة الأخيرة كتب كثيرة تقدم تفسيرات علمية لكثير من الآيات على ضوء نظريات العلم، مثل: (التفسير العلمي للآيات الكونية) لحنفي أحمد، و(الإسلام والطب الحديث) للدكتور عبد العزيز إسماعيل، و(القرآن والعلم الحديث) للدكتور عبد الرزاق نوفل)[٤] - رحمه الله -؛ وهذه

---

(١) المصدر نفسه(٩/ ٤١٦).

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي(٢/٧٥٨)، مؤسسة الرسالة- بيرت. الطبعة الثالثة: ١٤١٨ه ١٩٩٧نقلاً عن مجلة المنار.

(٣) مصنف عبد الرزاق(١١/١٨٧)، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري(٢/١٦٨)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر. الطبعة الثانية: ١٩٨٨م. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة(٤/٧٧)، حديث رقم: ١٥٧٦، دار المعارف - الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٤) تعريف الدارسين للخالدي (ص: ٥٦٧-٥٦٨).

التفسيرات أقرب للتكلف منه للصواب إذ فيها مبالغة في موافقة النظريات العلمية، وهذه هي نقطة الضعف فيها، لأنها تحاول موافقة نظريات لم يكتب لها الاستقرار والثبوت بعد، وهذا يعني فساد هذا التفسير إذا علم فساد النظرية، وكفى بهذا تلاعباً بالقرآن الكريم !

وحتى لا أكون راجماً بالغيب خذ شاهداً ينطق بصدق ما ذُكر:

فمثلاً فسر الدكتور عبد الرزاق نوفل - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾(١) الآية. أن المراد بالنفس الواحدة هي البروتون وزوجها الإلكترون فقال: (وقد اعتبر اكتشاف الإلكترون أكبر نصر علمي أمكن العقل البشري أن يصل إليه حتى أنهم يطلقون على هذا العصر الذي نعيش فيه الآن العصر الالكتروني إذ يعتبر أن هذا أروع وأهم اكتشاف تميز به عصر من العصور إذ أمكن الوصول إلى الجوهر الفرد الذي وحدة الخلق التي منها خلق كل شيء في الوجود.. فوجد أنها وحدة تناهت في الصغر إلى درجة لا يقبل الفكر أن يتمثلها... وهذه الحقيقة العلمية التي يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ١٤٠٠سنة في صراحة ووضوح إذ تقرر الآية ١٨٩من سورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها... أليست هذه البروتونات والالكترونات.. الكهارب الواحدة موجبة وسالبة أي النفس الواحدة.. الزوجية الجنس بين موجب وسالب)(٢) وهذا التفسير لم يقل به سلف ولا خلف، بل هو تفسير

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٩.

(٢) القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل(ص: ١٥٦)، دار الكتاب العربي- بيروت. طبعة ١٣٩٣هـ.

متكلف، غاية في التعسف يَصْدُق عليه قول الإمام ابن تيمية - رحمه الله -: (إن أكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم)[١]، ولهذا وصفه القرضاوي بأنه: (تكلف بارد لا معنى له، ولا دليل عليه... والقرآن ليس بحاجة إلى ذلك التكلف والإعتساف)[٢].

ولو أن الدكتور نوفل - رحمه - الله قرأ تكملة الآية لعلم التفسير الصحيح لها فالله يقول: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الآية. فهل يستسيغ العقل فضلاً عن النقل أن الالكترونات والبروتونات تحمل وتضع وتطلب من الله صلاح الولد ؟!!! ولكن هكذا يصنع التكلف بأصحابه فهو لا يكتفي بأن يضلهم عن الجادة فحسب، بل ويضطرهم أن يأتوا بالعجائب والغرائب!

إن جمهور المفسرين يقول: (المراد بالنفس الواحدة آدم. (وجعل منها زوجها): يعني حواء. (ليسكن إليها): أي ليأنس بها ويطمئن. (فلما تغشاها) كناية عن الوقاع. (فمرت به): يعني المني، أي استمرت بذلك الحمل الخفيف. (فلما أثقلت) صارت ذات ثقل ومعنى (صالحاً): يريد ولداً سوياً.)[٣] وهذا هو التفسير الصحيح لهذه الآية.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية(١٣٨/٤)، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء. الطبعة الثالثة: ١٤٢٦هـ.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للدكتور القرضاوي(ص: ٣٧٦)، مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، مع ملاحظة أنه ذكر هذا التفسير للآية الأولى من سورة النساء.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٠/٤-٢٩١).

وأما القسم الثالث - وهو أخطرها-: وهم الذين قدسوا الغرب وحضارته فنادوا بتفسير القرآن بما يلبي احتياجات العصر- كما يزعمون- على الإطلاق من غير تقيد بقيود ولا انضباط بضوابط، مع أن كثيراً من هؤلاء بضاعتهم في العلم مزجاه، ولقد حاول قوم منهم - عبثاً- أن يتسلقوا أعلام التفسير بحبال الجهل البالية فخانتهم في منتصف الطريق ووقعوا وما كانوا مفلحين!

يقول الدكتور الذهبي: (ظهر في هذا العصر- أي الحاضر- أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة..)(١).

وتأويل هذا وصفه أولى به أن يُطوى ولا يُروى، ويُحرق ولا يُحقق، فالكتاب العزيز أعز من أن تعبث به آراء قوم لم تشم أنوفهم رائحة التقوى والاستقامة التي ينبغي أن يتحلى بها من يتعاطى هذه الصناعة الشريفة.

ويقول الدكتور القرضاوي -حفظه الله -: (ابتلينا في عصرنا بأناس جرآء على كلام الله سبحانه، يرفضون تفاسير السلف والخلف، وأفهام القدامى والمحدثين، ويلقون تراث الأمة كله في سلة المهملات، ليبدؤوا من الصفر، ليطوعوا القرآن لأهوائهم وأفكارهم، مما تأباه العقول، وتخالفه النقول)(٢).

ويصفهم الدكتور فهد الرومي بأنهم (طائفة من الناس ليست من علماء

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (٢/٣٥٢).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقؤضاوي(ص: ٢٥٤).

الشريعة وليست من المنتسبين إلى العلم كافة في شتى صنوفه، اتجهت إلى تفسير القرآن لم تسلك سبيل هؤلاء ولم تسر في درب هؤلاء ولا التزمت ما التزمه العقلاء والذين ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء فزجوا بأنفسهم في تفسير القرآن الكريم فجاءوا بتفاسير لا تقوم على أسس شرعية ولا علمية وليس لها سند لا في القديم ولا في الحديث ولا صلة بين معاني ألفاظها ومعاني ألفاظ القرآن ولا مطابقة لغوية ولا معنوية ولا شكلية فجاءوا بهذيان كهذيان المحموم...)[١]. ثم يتساءل (هل هؤلاء أصحاب هذا اللون من التفسير مجانين حقاً ؟! أم أنهم عقلاء كتبوا كما يكتب أولئك، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا فعلوا هذا؟ وهل يعتقد أحد منهم أن – حقاً – أن تفسيره هذا سيلاقي القبول ولو من شخص واحد!) [٢] وأخيراً يقول: (قد هممت أن أسميه تفسير المجانين) [٣].

أما رأيي فأعتقد أن أمثال هؤلاء لا ينبغي أن يطلق عليهم لقب (مفسر) إلا تجوزاً لأن للمفسر شروطاً يلزم توفرها[٤]، فكما قيل: ليس كل من صعد المنبر خطيباً، ولا كل من قال الشعر أديباً، فكذلك ليس كل من تعاطى التفسير مفسراً، وإلا لقال مَن شاء ما شاء متى شاء ! وما ذا بقي للقرآن من القداسة حينئذ ؟!

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي(٣/١٠٦٢).

(٢) نفس المصدر(٣/١١٤٥).

(٣) نفس المصدر(٣/١٠٦٢).

(٤) سيأتي ذكرها لاحقاً إن شاء الله.

وقد تولى كبر هذا المنهج محمد أبو زيد في تفسيره – تجوزاً – (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)؛ ومن يقرأ هذا العنوان يظن بمؤلفه الخير، ولكنْ نظرة واحدة فيه أو فيما قاله عنه الأثبات تكفي لأن تكشف القناع عن زيف باطله، وأن تُفنِّد عُجَرَه وبُجَره[1]!!! وسنؤخر الحديث عنه إلى المبحث الثالث من هذا الفصل إن شاء الله.

بعد هذه اللمحة السريعة عن التكلف في التفسير في العصر الحديث، يدرك العاقل الحد الذي وصل إليه التكلف في التفسير، ولا أظنك أيها القارئ – والحال كما عرفت – إلا موافقاً لي في الرأي عندما أقول بلا تردد: إن التكلف في التفسير بلغ ذروته في هذا العصر؟! كيف وقد نطق الرويبضة الذي أخبر[2] عنه النبي ﷺ حتى إنه ليفتح فاه إلى منتهاه ليس في أمور العامة فحسب؛ بل وحتى في أمور الدين والتفسير والفتوى والله المستعان.

بهذا الاستنتاج نختم هذا المبحث، ويليه المبحث التالي لنتعرف فيه على تفصيل أكثر حول التكلف في التفسير عند المعاصرين، وذلك من خلال تتبع أشهر التفاسير والمؤلفات التي أكثرت منه، عسى أن يكون قريباً....

---

(١) المراد بالعجر والبجر عيوبه، وأصل العُجر: تعقد العصب والعروق في الجسد حتى تصير ناتئة، والبجر مثلها إلا أنها مختصة بالتي تكون في البطن، قال الأصمعي استعملا في المعايب، و قال الخطابي: أرادت عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة. ينظر: الفتح لابن حجر(٢٦٠/٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم(٢١٣/١٥).

(٢) وذلك في حديث (إن بين يدي الساعة سنين خداعة..)، إلى أن قال: (وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة. قيل: المرء التافه يتكلم في أمر العامة)، ينظر: المستدرك للحاكم (٥١٢/٤)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٥٢/٥)، برقم: ٢٢٥٣.

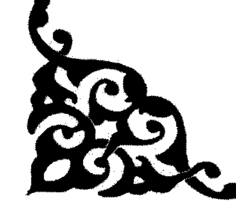



المبحث الثالث: مظان التكلف في التفسير عند المعاصرين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أشهر التفاسير والمؤلفات التي أكثرت من التكلف في التفسير.

المطلب الثاني: أشهر المفسرين والمؤلفين الذين عَنَو بنقد التكلف في التفسير.




المطلب الأول: أشهر التفاسير والمؤلفات التي أكثرت من التكلف في التفسير.

المسألة الأولى: أشهر التفاسير المعاصرة التي أكثرت من التكلف في التفسير.

عرفنا فيما سبق أن العصر الحديث هو العصر الذي كثر فيه التكلف في التفسير وذلك لما امتاز به هذا العصر من إفراط وإسراف في حرية العقل واشتغال بالاكتشافات العلمية وغيرها، وبناءاً على هذا فمن الطبيعي جداً أن تظهر تفاسير يكون هذا اللون مسيطراً عليها، وفي هذا المطلب سنتعرض لبعضها- إن شاء الله - مع التعريف بها بمؤلفيها ثم ذكر بعض الأمثلة.

لكن ليس من السهل – حقيقة - أن تقف على أشهر التفاسير التي أكثرت من التكلف في التفسير! كيف وأنت أمام كمّاً من التفاسير التي تربو على الخمسين تفسيراً، فضلاً عن التفاسير الجزئية لبعض الأجزاء أو السور. ولا شك أن هذا يحتاج إلى جهد جهيد، وقبل ذلك يحتاج إلى عون المعين – سبحانه – ذلك لأنه:

إن لم يكن عون من الله للفتى ** فأكثر ما يجني عليه اجتهاده[1]

ولما كانت مصداقية البحث لا تتم إلا بالرجوع إليها فقد تجشمت مسحها قدر الاستطاعة فوجدت أن في مقدمة التفاسير التي أكثرت من التكلف في التفسير تلك التفاسير التي انحرف أصحابها انحرافاً عقدياً فكانت امتداداً لما فطره

(١) البيت من قول المتنبي كما في الشكول لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي(٢/١٣٣)، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ -١٩٩٨م. وقد بحثت عنه في ديوانه فلم أجده.

أسلافهم، فالشيعة مثلاً لا تزال أجيالهم تسبح في بحور أسلافهم، والإباضية - التي تعتبر أقرب فرق الخوارج لأهل السنة - لا تزال أقلامهم بأيدي أعلامهم! وسنرجئ الحديث عنها إلى الفصل الثاني عند حديثنا عن السبب الأول من أسباب التكلف.

ويلحق بتفاسير هذه الفرق تلك التفاسير التي ألحدت في كتاب الله بما هو أبعد من التكلف فاقتحموا حدوده تجرؤوا عليه، وقد عرفت أن الذي تولى كبر هذا المنهج هو محمد أبو زيد في تفسيره (الهداية والعرفان)، وحيث قد وعدت بالحديث عنه مع التمثيل، فهاأنذا أوفي بوعدي.

لست مدعياً أني قرأت هذا الكتاب أو نظرت فيه، فقد حال بيني وبين ذلك مصادرته ومنعه من التداول ومحاكمة صاحبه ووصفه بأنه (أفاك خرّاص، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه من وأوفى بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث في شأنه وترديد سيرته)[1]، ولهذا اكتفيت بدراسة الدكتور الذهبي والرومي لتفسيره وفيه الغُنْية عن الرجوع إليه.

وإنا لنحمد الله أن هذا المفسِر لم يشتهر كما لم يشتهر تفسيره، وغاية ما عُرف عنه أنه (التحق مدة بالأزهر ومدة أخرى بدار الدعوة والإرشاد التي كان قد أسسها بالقاهرة الشيخ رشيد رضا، وأصدر عدداً من الأبحاث اتسمت بالجرأة سواء كانت هذه الجرأة طلباً للشهرة أو انعكاساً لفكره واجتهاده.. ومع

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٥٩)، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي(٣/١٠٧٧).

الأسف أن صاحبه يذكر أنه ألفه بعد بلوغه الأربعين من عمره) [١].

وأهم ما تميز به هذا التفسير:

١) عدم اعتبار السنة في تفسير القرآن.

٢) جرى فيه المفسر على تأويل قصص القرآن.

٣) الحملة الشديدة والاستخفاف بالمفسرين.

والكتاب كله يصلح لأن يكون مثالاً لتكلفه، فما ظنك برجل يوصف بالإلحاد، وهل يصل إلى إلحاده إلا على جسر من التكلف الفاضح في صرف كلام الله عن معناه وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة! فإن قلتَ: هذا ادعاء وعلى المدعي البينة ! قلتُ: بيِّنتي قوله في تفسيره عند آية حد السرقة: (واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معنى التعود!!، أي أن السرقة صفة من صفاهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة و لم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده لان قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه) [٢] كبرت كلمة تتهوع بها أفواههم إن يكتبون إلا ضلالاً، أهذا هداية وعرفان! أم غواية وهذيان !

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ** إن كان في القلب إسلام وإيمان [٣]

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر(٣/١٠٧٦)، نقلاً عن كتاب: الأصلان العظيمان لجمال البنا.

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٦٥).

(٣) البيت لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي في نونيته. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني(٤/٤٨٨)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر — =

وواعجباً كيف تزين لمثل هذا نفسه فيأتي بمثل هذا التكلف، وهو يعلم أنـــه كاسد البضاعة، جهول بالصناعة - أعني التفسير - وكيف يبيح لنفســـه أن يلوي معنى الآية من أجل أن توافق ثقافته العصرية، إنه ليحق أن يقال له:

فدع عنك الكتابة لست منها ** ولو سودت وجهك بالمداد[1]

أَمَا إنه لو قرأ التفاسير لوجد المعنى واضحاً جلياً لا يحتاج لمثل تلجلجه هذا الذي خالف به عامة المفسرين، وأنكر ما هو من الدين بالضرورة !.

إن هذه الآية نص في قطع يد السارق، ولذلك لم يختلف في معناها المفسرون، وإنما وقع الخلاف عند الفقهاء في موضع القطع ومقدار المال المسروق[2]؛ أما هذا التفسير المتكلف فيقتضي أن السارق إذا أخذ الملايين مرة واحدة لا يشمله الحكم إلا إذا تكرر منه ذلك، ولا شك أن هذا مخالف لما عليه

بيروت. طبعة سنة: ١٩٦٨م

(١) البيت لأحد العراقيين في أبي مسهر الكاتب، وقيل: في صالح بن شِيرزاد، و لم أجد من نسبه لقائل معين.

(٢) أمّا موضع القطع فقد اتفق الأئمة رحمهم الله تعالى على أن السارق إذا وجب عليه القطع وكان ذلك أول سرقة له وأول حد يقام عليه بالسرقة وكان صحيح الأطراف فإنه يبدأ بقطع يده اليمنى مع مفصل الكف. ينظر: الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري(٥/١٥٩)، دار الفكر والكتب العلمية – بيروت. توزيع مكتبة الباز – مكة المكرمة.

وأما مقدار النصاب فقال الحنفية: نصاب حد السرقة دينار أو عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة أو قيمة إحداهما. وقال المالكية: نصاب حدّ السرقة ثلاثة دراهم مضروبة خالصة فمتى سرقها أو مما يبلغ ثمنها فما فوق من العروض والحيوان وجب إقامة الحدّ عليه وقطع يده. وقال الشافعية: نصاب السرقة ربع دينار أو ما يساويه من الدراهم والأثمان والعروض فصاعدا وقال الحنابلة: إن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مراد شرعي فمن سرق واحدا منهما أو ما يساويه قطع. ينظر: نفس المصدر(٥/١٥٧-١٥٨).

العلماء[١]؛ ولولا أن المسألة فقهية لا علاقة بالبحث لفصلتها ولكن ما أشرنا إليه فيه الكفاية.

ومن التفاسير التي أكثرت من التكلف في التفسير تفسير (الجواهر) حيث يقع في خمس وعشرين جزءاً أضاف إليها مؤلفها الجزء السادس والعشرين ليكون ملحقاً لتفصيل ما أجمل فيه من العلوم الكونية والأحكام الشرعية واختلاف المذاهب فيها، وقد صودر هذا التفسير ومنعت بعض الدول العربية من دخوله إليها[٢]وقد بحثت جاهداً للحصول على نسخة منه حتى كدت أن أفقد الأمل، بل فقدته فعلاً، ولكن كتب الله لحدقتي أن تسعد بالنظر فيه.

فاللهم لك الحـــمد على اليسر بعد العـــسر؛ والحقيقة أني سررت لذلك كثيراً، لأن نقلي عنه مباشرة أدعى للثقة فـــ(ليس الخبر كالمعاينة) [٣].

ومؤلف هذا التفسير هو الشيخ طنطاوي جوهري المولود بكفر عوض الله حجازي في الشرقية سنة ١٢٨٧هـــ، وقد تلقى علمه في الأزهر ثم في المدرسة الحكومية وعني بدراسة الانكليزية، ومارس التعليم في بعض المدارس الابتدائية، ثم دار العلوم وعين بعد تخرجه مدرساً بها، وألقى محاضرات في الجامعة المصرية.

---

(١) قال الإمام الشافعي – رحمه الله-: (وإذا أقرَّ الرجل بالسرقة مرة واحدة وثبت على الإقرار وكانت مما تُقطَع فيه اليد قُطع). كتاب الأم للإمام الشافعي(١٥٩/٧)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٣٤٣/٢).

(٣) قد يظن البعض أن هذا من الأمثال العربية؛ ولكنه في الحقيقة حديث شريف. ينظر: صحيح ابن حبان(٩٦/١٤)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

وناصر الحركة الوطنية، فوضع كتاباً في (نهضة الأمة وحياتها) نشره تباعاً في جريدة اللواء، وقد طلب للقضاء فلم يقبل، وكان رئيساً لجمعية المواساة الإسلامية بالقاهرة، وتولى رياسة تحرير (مجلة الإخوان المسلمين) مدة، وانقطع للتأليف فصنف نحو ٣٠مؤلفاً من أهمها: (جواهر العلوم)، و(أصل العالم)، و(الأرواح)، و(النظام و الإسلام)، و (سوانح الجوهري)، توفي - رحمه الله - في القاهرة سنة ١٣٥٨هـ[١].

واعلم أن الشيخ طنطاوي رجل فاضل لم يُتهم في دينه و لم يوصف بإلحاد ولاشيء من قبيل ذلك، وقد أفاد معاصروه ومن كتب عنه، أنه كتب تفسيره عن حسن قصد ونية؛ ولكن ما هكذا تورد يا سعد الإبل[٢]!!.

يقول الشيخ مصطفى الحديدي الطير: (وعلى الرغم من أن الشيخ - رحمه - الله كان رجلاً تقياً على ما عرفته فيه وجربته منه فإنه كان ذا خيال خصيب..) [٣].

ويقول الدكتور عبد المجيد المحتسب: (والحق يقال أن الشيخ طنطاوي جوهري – مع مخالفتنا إياه في منحاه ونزعته – يبدو حسن النية فيما ذهب إليه..) [٤].

(١) ينظر: الأعلام للزركلي(٣/٢٣٠)، ومعجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس(٢/ ١٢٤٣)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري(١/٩٣).

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث لمصطفى الحديدي الطير(ص: ٧٥)، سلسلة البحوث الإسلامية ١٣٩٥هـ.

(٤) اتجاهات التفسير في العصر الراهن لعبد المجيد المحتسب(ص: ٢٧٦ - ٢٧٧)، دار البيارق. الطبعة الثالثة: ١٤٠٢هـ - ١٩٩٢م.

وقال محمد بن لطفي الصباغ: (وليس عندي من شك – رحمه الله – كان يريد الخير ويسعى إليه وربما أخطأ طريقه، وإنه كان يريد أن يمكن للإسلام وأن يسود العالم..)[١].

وأما الدكتور محمد إبراهيم شريف فقال: (ومع توافر حسن النية لدى طنطاوي جوهري فيما ذهب إليه... قوبل تفسيره في الأوساط الإسلامية في مصر والبلاد العربية بالمعارضة والإنكار..)[٢].

نعم لاقى الانتقاد الشديد على صنيعه في تفسيره لما فيه من تكلف بالغ يذهب بعظمة الكتاب، ولولا هذه المزية - حُسن النية - لعديته ضمن الفريق الأول، لأن تفسيره مكتوب بلغة التكلف - أن صح هذا التعبير - وقد أحس بمبالغته هو نفسه قبل أن نقوله نحن اليوم عنه، وهذا نص عبارته قال - رفع الله قدره -: (ولم يكن في شيء من ذلك – أي كتبه ورسائله - مني تكلف بل كان الوجدان هو الذي يسوقني وهناك تجلت في النفس أحوال تدعو إلى النشر بين المسلمين لا محل لذكرها الآن)[٣].

ومع اتفاق كلمة النقاد على رمي هذا التفسير بالتكلف والمبالغة التي تذهب

---

(١) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير للدكتور محمد لطفي الصباغ(ص: ٣٠٣- ٣٠٤)، المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(٢) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر للدكتور محمد إبراهيم الشريف (ص: ٧٠٩)، دار التراث- القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ.

(٣) الجواهر لطنطاوي جوهري (٧٥/١١)، انتشارات آفتاب تهران، بواسطة اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي(٦٤٢/٢).

بعظمة القرآن، إلا أن صاحبه مُعجَب به غاية الإعجاب، ولذا فقد أطراه بما لم يُطرِ به الزمخشري[1] كشافه فهو في نظره (نفحة ربانية، وإشارة قدسية، وبشارة رمزية أمرت بطريق الإلهام وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الأرض)[2]، وكثيراً ما يدعو المسلمين لقراءته فهو يعتقد أن (ظهور هذا التفسير اليوم في بلاد الإسلام موافق لحركة الإصلاح..)[3]، ليس هذا فحسب بل جعله كفيل بأن يُظهر الله به الدين على سائر الأديان، بل توعد المعرضين عنه بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود!

قد تظنني مبالغاً، فدونك عبارته قال - عفا الله عنا عنه - (وإني أدعو جميع أمم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول، وإلا فكيف يقول الله (ليظهره على الدين كله) وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية وهي أن الديانات لم تتعرض لعلوم الكائنات، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين، لِيُعَلِّم كل عالم أو ملك أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الإسلام كما سيظهر أن شاء الله في هذا التفسير، فإذا أبى

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري من أهل خوارزم ولد سنة ٤٦٧هـ ولقي العلماء الأفاضل وكان له حفظ في علم الأدب واللغة وصنف التفسير الكبير وغريب الحديث أقام بخوارزم والحجاز مدة وورد بغداد غير مرة كان يتظاهر بالاعتزال توفي بخوارزم ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ. راجع: لسان الميزان للذهبي(٦/٤)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٢/٢١٩)، والأعلام للزركلي(٧/١٨٧)، وقد قال عن تفسيره:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ** وليس فيها لعمري مثل كشافي

(٢) الجواهر لجوهري(١/٣)، دار الفكر.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

المسلمون ما ذكرناه فإني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود... فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومن إلا نفسه)[١]، وهذا الذي قاله غير مُسلم به إلا أن يكون قوله وحياً سالماً من المعارضة!

ويمكن أن نُلخص أهم مزايا هذا التفسير بما يلي:

١) يعتبر أول تفسير علمي كامل للقرآن الكريم.

٢) الاستشهاد بأقوال الفلاسفة وبالنظريات وعلماء الشرق والغرب.

٣) أغفل الكثير من التفسير بالمأثور.

وليته إذ أغفل التفسير المأثور أمسك قلمه عن الطعن فيه، ولكنه للأسف أخذ يُهون من شأنه فيقول: (إياك أيها المسلم أن يصدك بعض الأحاديث الواردة عن الحقيقة في ذاتها فإن الأحاديث ترد سواء أكانت ضعيفة أم حسنة أو مرفوعة أو مقطوعة ولكل واحد منها محمل مخصوص. فإياك أيها المسلم أن تتكل على بعض الروايات فتضيع دينك ويكون ذلك أشبه بكفر بالكتاب، وإلا فحديث واحد مهما كانت درجته كاف لهدم القرآن كله..)[٢]، سبحان الله! أيعقل أنّ السنة تهدم القرآن ؟! والله إنه لكلام يقشعر له الجلد.

وهنا يبرز سؤال عريض: ما الذي حمل الشيخ طنطاوي جوهري أن يَجْسُر على أن يقول مثل هذا؟!

إن الذي حمله على هذا في اعتقادنا – ونكاد نجزم به – أنه كان يحس أنه سيصطدم في كثير من تكلفاته ببعض الأحاديث الثابتة، فلذلك لم يجد بُدّاً من أن

---

(١) المصدر السابق: (١/٨).

(٢) نفس المصدر(٥/٤٧)، وقد قال هذا تحت عنوان: (نصيحة !!!).

يقلل من شأنها ويضعف من قيمتها، حتى يتقبل القارئ أقواله بقبول حسن.

والتفسير لا يكلفك جهداً كثيراً لتقف بنفسك على ما فيه من تكلف، فقد قال عنه طاهر محمود أنه (يُضرب به المثل في التكلف في التفسير العلمي(١)) (٢) وجولة سريعة في بدايته تكفي لأن ترى صدق ما نقول.

المثال الأول:

في مطلع تفسيره لسورة الفاتحة يقول: (نزلت هذه السورة لتعليم العباد كيف يتبركون باسم الله عز وجل؛ ثم ما لبث أن شرع في بيان ما هو مغرم به من تقرير العلوم، فذكر كلاماً يطول المقام بذكره لا يمت إلى التفسير بِصِلَة حتى شعر في قرارة نفسه بذلك فقال: لعلك تقول: مالي أراك تحمل الفاتحة ما لا تحتمل، وتدخل فيها من العلوم ما لا يعقل؟ مع أن الناس يقرؤونها ولا يلحظون ما تذكرون، ويكررونها صباحاً ومساءاً ولا يتهيأ لهم ما تصفون، وإنما أنتم تقولون هذا استطراداً لا استنباطاً، وتطويلاً لا تأويلاً، وتعليماً لا تفسيراً، وإكثاراً لا استخراجاً ! أقول: - والكلام له - على رسلك واصغ لما ألقي عليك مثلاً أضربه تذكرة لأولي الألباب) (٣).

ثم ضرب مثالاً بحقل جميل وفد إليه مزارعاً ودابة وصبياً ومهندساً وطبيعيا وحكيما إلهياً وتساءل: هل تكون نظرتهم للحقل واحدة ؟ وبعدها أردف قائلاً: (فقس عليها نظرة الناس في الفاتحة: إن الفاتحة كلام الله، والحقل وما فيه فعل

(١) سيأتي التعريف بالتفسير العلمي إن شاء الله.

(٢) أسباب الخطأ في التفسير لطاهر يعقوب(٢/٨٨٨).

(٣) تفسير الجواهر لجوهري(١/ ١٦- ١٧).

الله أفلا ترى أن تخلف أنظار الناس في الثاني كما اختلفت في الأول؟ أولست ترى أن حافظ القرآن الذي لا يعنيه إلا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفاراً(١)؟!!! اللهم إنا لا نقوى على قول هذا فاغفر لقائله؛ أهذه جواهر يا جوهري ؟! أم تعسف فلسفي؟!.

ولا شك أن هذا هو عين ما أراد أن يلقيه عن نفسه ويهرب منه من (تحميل الآية مالا تحتمله، والاستطراد، والتأويل والطويل...)، ولذا فقد تعقبه غير واحد على هذا التكلف فأما مصطفى الحديدي الطير فقال: (وهذا الجواب – في الواقع – غير مقنع فإن القرآن أنزل لا أن يكون موسوعة لكل العلوم، فيجب أن نصرف آياته وكلماته إلى مفهومها اللغوي أو المأثور عنه ومن الممكن تأليف كتب مستقلة عن التفسير في هذه العلوم)(٢).

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: (قد ذهب بعض المعاصرين مذهبا أبعد من هذا وذاك فِي تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن، فهو يرى أن تفسير لفظ العالمين – مثلاً – يَقتضي بيان كل ما وصل إليه علم البشر من مدلول هذا اللفظ، وأن تفسير لفظي (الرحمن) و (الرحيم) يَقتضي بيان كل مَا يُعرف من نعم الله

(١) نفس المصدر(١/ ١٦– ١٧)، وهذا كلام فيه إجحاف بحق القراء وفيه تعريض بأنهم لا يعرفون من المصحف إلا رسمه. وهو يفيد كذلك أن من قرأ القرآن بقصد التعبد ولم يعرف معناه يشمله هذا التشبيه، وهذا مخالف لما جاءت به السنة أن (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله بكل حرف عشر حسنات) أخرجه الترمذي، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (١٧٥/٥)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) اتجاه التفسير في العصر الحديث لمصطفى الطير(ص: ٧٢).

وَإحسانه بخلقه..) إلى أن قال: (وَإن عُدَّ مثل هذا من التفسير [فهو] إضلالٌ عَن القرآن) [١].

وأما قياسه الفاتحة بالحقل فهو قياس فاسد، لأنه يقتضي أن المفسرين المتقدمين كانت نظرهم للفاتحة كنظرة الدابة والطفل والمزارع والمهندس للحقل، وأن نظرته هو نظرة حكيم إلهي، وأقل ما يُقال عن هذا إنه تقليل من شأن المفسرين من السلف.

المثال الثاني:

ومن أعجب ما رأيت من تكلفه كذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [٢]، قال غفر الله لنا وله: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ دخل في ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعة قديماً وحديثاً وقوله: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا في زماننا، وهما علم طبقات الأرض المتقدم مراراً في هذا التفسير، وعلم الآثار المتقدم بعضه في سورة يونس والآتي بعضه في سورة سبأ وأن قوله هناك: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [٣] يشير إلى ما ظهر في بلاد اليمن التي تشتمل على (سبأ) فلقد ظهرت هناك نقوش ومدائن لم تكن معروفة من قبل وظهر (سد العرم) وسيأتي رسمه. كل ذلك والمسلمون لا علم

---

(١) تفسير المنار لمحمد رضا(١/٨٥).

(٢) سورة طه الآية: ٦

(٣) سورة سبأ الآية: ٢

لهم بذلك مع أنه في بلادهم وعلى قرب منهم فالله هنا يقول: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التي تظهر الآن تحت الثرى المذكورين في هذه السورة...) اهـ.[1]

إني لأعجب حقاً من مثل هذا التفسير الذي لا يختلف اثنان على أنه منتحل من عقلية التكلف! فمتى عرف المصريون العلوم حتى تُنسب إليهم وتكون فيما بعد غاية يقصدها الله بقوله: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾، ثم ما هي الفائدة التي نتحصل عليها من جراء هذا التمحّل؟! وما هو النفع الذي نعود به على الإسلام والمسلمين ؟!

لقد كنت أظن وأنا أقرأ هذه الآية أن الشيخ - رحمه الله - سيتكلم على تقنية العلم اليوم في ضبط الأخطاء والمخلفات ثم يستدل بها على سعة علم الله الذي وسع كل شيء، ولكن سرعان ما انقشعت عني سحابة هذا الظن، حيث وجدت الشيخ - عفا الله عنا وعنه - عاكف على تقرير هذه العلوم. ولا شك أن تفسير القرآن بما يتوافق مع هذه العلوم، أمر يحمل على التكلف، ولذا قال عنه الدكتور الذهبي: (و لست أرى هذا المسلك في التفسير إلا ضرباً من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من يذهب بجلاله وجماله)[2] و(إعجاز القرآن غني عن أن يُسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف)[3].

---

(١) تفسير الجواهر لجوهري(٥/٦٦).

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٤٣).

(٣) نفس المصدر والصفحة.

ويزداد العجب عندما تجد التفسير الواضح قد دبجه المفسرون بأقلامهم على اختلاف حرفهم وكلها تشير إلى سعة علم الواحد الأحد، وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: لَّهُ ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾الثرى في اللغة: التراب النديّ، أي ما تحت التراب من شيء.) [1].

المثال الثالث:

ولما سئمت من طول النظر في هذا التفسير انقلبت إلى قصار المفصل لعلي أجد تفسيراً سهلاً سلساً سائغاً للقارئين، فاخترت سورة الزلزلة لكون معناها واضحاً جلياً، فأردت أن أنظر ماذا قال فيها فإذا هو عاكف على ما هو مغرم به فيقول:

(يعجب الإنسان من هذه السورة في زماننا كيف كان الناس الآن يستخرجون الفحم من الأرض وكذلك البترول، وبهما إيقاد النار، والأرض كهرباء كما في الجو، ثم كيف كان هذا الزمان قد كثر فيه استخراج الدفائن من الأرض، مثل أننا في مصر وجدنا أربع مدائن شرقي الأهرام في نحو ألف فدان! وكل مدينة لهرم، وهكذا في جميع الكره الأرضية يبحثون عن مكنون الأرض ويستخرجون الكنوز والناس الآن يتساءلون: ما هذه الثورة الفكرية

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي الشوكاني(٣/٤٢٢)، دار ابن كثير- بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

الإنسانية؟ ما هذه النهضة، ما مستقبل الإنسان ولا جواب ولكن العقول الإنسانية اليوم ظهرت فيها بوادر الإبداع والاختراع، وهذا فيه معنى الإلهام العام، ويظهر أن الناس اليوم يصلون إلى أيام العدل بحيث لا يعطل فيها أحد، وكل امرئ يكون مسئولاً عن قوته وله عمله الخاص به ومن ترك العمل حرم كل شيء.

ألست ترى هذه السورة – وإن كانت واردة لأحوال الآخرة – تشير من طرف خفي إلى ما ذكرناه في الدنيا فالأرض الآن كأنها في حال زلزلة !! وقد أخرجت أثقالها [و] كنوزها وموتاها وغيرها والناس الآن يتساءلون، وهاهم أولاء يلهمون الاختراع، وهاهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال. بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها، وكل إنسان في عمله الخاص به وينتفع)[(١)]، بهذه العبارات المتكلفة فسر طنطاوي جوهري سورة الزلزلة، وإن العاقل ليعجب والله كيف بلغ بهذا الشيخ الإعجاب بهذه العلوم حتى تكلف إيجاد ما يشير إليها من الآيات البينات مهما كلف الأمر.

ولا أعتقد أن عاقلاً يقرأ مثل هذا التفسير ثم لا يشعر بأنه متكلف، فإن كافة المفسرين – على اختلاف مشاربهم، وتنوع عقائدهم – لم يختلفوا أن السورة مسوقة في بيان بعض أهوال الآخرة وأن معنى ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[(٢)]: أي (ما في بطنها من أموات وكنوز)[(٣)] ولكن ذلك يوم القيامة

(١) الجواهر لجوهري (١٣/٢٥٧).

(٢) سورة الزلزلة الآية: ٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(ص: ٩٣٢).

وليس كما يقول طنطاوي أن المراد به ما يخرج الآن من كنوز الأرض.

وخلاصة القول أن يقال: إن الشيخ طنطاوي – رحمه الله – بفعله ذلك أراد صوباً فأمحلا، وكم من مريد للخير لا يبلغه، فلا يسعنا ونحن نصحح أخطاءه إلا أن نرفع أكف الضراعة لعالم الغيب والساعة، أن يفيض على قبره من سحائب غفرانه أنه سميع الدعاء.

وممن أكثروا من التكلف في التفسير في العصر الحديث أولئك الذي توسعوا في الأخذ بالتفسير بالرأي وإن تجرد عن الدليل أحياناً، لأن التفسير بالرأي مظنة التكلف والخطأ وهذه حقيقة ترددت في طرحها كثيراً حتى وجدت ما شجعني على تحريرها هنا، وهاأنذا أبوح بها في هذا المكان:

إن أي مفسر يأخذ بالرأي في تفسير كلام الله فلابد له أن يقع في بعض الهفوات، فإن فعل ذلك – أي إعمال العقل والرأي – بعلم مع وضوح المعنى فهو المتكلف وذمه معلوم، وإن فعله بجهالة فهو المتجرئ، وخطئه محتوم.

وقد أكدت الدراسات المتعلقة بالتفسير في العصر الحديث أن ثمة اتجاه غلب عليه إعمال العقل[1] المفرط في التفسير، فوقع في كثير من التكلف، وعندما يستطلع الباحث لمعرفة أهم هذه التفاسير فإن الواجب عليه أن يذكر أهم التفاسير التي كان لها رواج وتداول ما ليس لغيرها، وإلا فالتفاسير في هذا الجانب كثيرة.

وعندما استشرنا الواقع التفسيري في العصر الحديث، وجهنا إلى ثلاثة

---

(١) مثل كتاب(منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) للدكتور فهد الرومي.

تفاسير هي:

تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده[١] – رحمه الله – وتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا[٢]، وتفسير الشيخ أحمد المراغي- رحمها الله – ونرى أن نمثل بتفسير المراغي للأسباب التالية:

١) لأن الإمام محمد عبده ليس له تفسير مستقل غير (جزء عم)، وسورة العصر.

٢) ولأن محمد رشيد ضا لم يكمل تفسيره، حيث وصل إلى سورة يوسف.

٣) ولأن تفسير المراغي كامل للقرآن كله، ثم هو خلاصة التفاسير الثلاثة

---

(١) هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام وتعلم بالجامع الأحمدي. بطنطا، ثم بالأزهر وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف. وعاد إلى مصر سنة ١٣٠٦هـ وتولى منصب القضاء، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف، فمفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧هـ، واستمر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة ١٣٢٣هـ، ودفن في القاهرة. ينظر: الأعلام للزركلي(٦/٢٥٢)، والتفسير ورجاله لمحمد فاضل ابن عاشور(ص: ٢٣٨)، دار الكتب الشرقية – تونس. الطبعة الثانية: ١٩٧٢م.

(٢) هو الشيخ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل أحد رجال الإصلاح الإسلامي، ومن الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) سنة ١٢٨٢هـ، وتعلم فيها وفي طرابلس. ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده و تتلمذ له. وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد)، توفي فجأة في(سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة سنة ١٣٥٤هـ ينظر كلاً من: الأعلام للزركلي(٦/١٢٦)، والتفسير ورجاله لمحمد فاضل ابن عاشور(ص: ٢٤٧).

فإن آراء الأول جمعها الثاني مضيفاً إليها آراؤه ثم اختزلها الثالث وهذب عبارتها.

ويقع هذا التفسير في عشرة مجلدا كل مجلد يضم جزأين، طبعته دار إحياء التراث العربي، ومؤلفه أحمد بن مصطفى المراغي، أحد العلماء المصرين، تخرج العلوم سنة ١٩٠٩م ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، وولي نظارة بعض المدارس، وعين أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، من أهم كتبه (تفسير المراغي) و (الوجيز في أصول الفقه) و(علوم البلاغة)، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ، [١]. وأهم ما تميز به تفسيره:

١) يعتبر خلاصة لتفسير المنار.

٢) لم يهتم كثيراً بالتفسير بالمأثور.

٣) الاهتمام بالسياق والمبالغة في تحكيم العقل.

واعلم أن المزيتين الأخيرتين ليست خاصة بتفسير المراغي فحسب، وإنما أجمع عليها رواد المدرسة العقلية، خصوصاً المبالغة في تحكيم العقل فهي أهم مأخذ أخذه النقاد على هذه المدرسة؛ يقول الدكتور الذهبي: (وأما ما نأخذه عن هذه المدرسة فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليست هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب..) [٢].

ويقول سيد قطب - رحمه الله -: (لا بد أن ننبه هنا إلى منهج مدرسة الأستاذ الشيخ محمد عبده، المتأثرة بفلسفة غريبة عن الإسلام... مما جعلها تركز

---

(١) الأعلام للزركلي(١/٢٥٨).

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٧٠).

تركيزاً شديداً على (العقل) وتعطيه أكثر من مجاله في مسائل العقيدة) [١].

ويقول: (ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه — أي العقلي — فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل. وهو طلاقة مشيئة اللّه وقدرته من وراء السنن التي اختارها — سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف — هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير، ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه - كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة) [٢].

ويقول القرضاوي في سياق حديثه عن إسراف المدارس العقلية في التأويل: (ومن نظر إلى المدارس العقلية في تاريخ الفكر الإسلامي، يجد أن أصحابها ذهبوا بعيداً في تأويلاتهم الجائزة للنصوص أو — على الأقل المتكلفة — فقد انتهى بهم هذا الشطح إلى أودية بعيدة، بل إلى مفاوز مهلكة، انطمس فيها السبيل، وعدم الدليل) [٣]. ولهذا بالغ البعض حينما أطلق عليهم (معتزلة العصر) [٤].

ونحن وإن كنا لا نوافق على إطلاق هذه التسمية، إلا أننا نوافق على انتقاد توسعهم في تحكيم العقل؛ ولما كان تفسير المراغي خلاصة التفسيرين السابقين كما عرفت، كان من حقنا أن نجعل هذه المزايا هي أهم مزايا هذا التفسير،

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب(١٥٨٨/٣هامش)، دار الشروق - القاهرة.

(٢) المصدر السابق(٣٩٧٨/٦).

(٣) كيف نتعامل مع القرآن للقرضاوي(ص: ٣٤٩).

(٤) اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار لأنور الجندي(ص: ١٣٢)، دار الاعتصام. الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

وعلى كل حال فالأهم هنا أن نسوق الأمثلة ليصدق المقال، حتى لا يكون قولنا ادعاءاً عارٍ عن البينة.

المثال الأول:

عند تفسيره لأول قصة ذكرها الله في كتابه وهي قصة استخلاف آدم في الأرض وذلك في

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً.. ﴾[١] نفى أن تكون هذه القصة واقعية وأن تكون قد حصلت فعلاً وذكر أنها من المتشابه الذي لا يمكن حمله على الظاهر. ثم قال: (ومن ثم كان للعلماء في هذا وأمثاله رأيان:

(أ) رأى المتقدمين منهم، وهو تفويض الأمر إلى اللّه في بيان المراد من كلامه، مع العلم بأنه لا يخبرنا بشيء إلا لنستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا، بذكر ما يقرّب المعاني إلى عقولنا، فهذا الحوار المصوّر بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب لا ندرك حقيقة المراد منه)[٢] إلى هنا هذا كلام سليم نوافقه عليه لأنه يقتضي حصول هذه القصة حقيقةً، إلا أننا لا نستطيع الوقوف على كيفيتها. وهذا هو مذهب السلف كما أشار. وليته إذ ذكر هذا حمل الآية عليه، ولكنه وللأسف ذكر القول الثاني و تكلف حمل الآية عليه فقال: ((ب) رأى المتأخرين منهم – وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين، لأنها إنما وضعت على أساس العقل، فإذا ورد في النقل شيء يخالف حكم العقل، حمل النقل على

---

(١) سورة البقرة الآية: ٦.

(٢) تفسير المراغي (٨٧/١)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل)[١].

وما ذهب إليه من تحكيم النصوص للعقل وسبرها به باطل مردود، وهذا الاعتقاد هو الذي حمله على تكلف تفسير مثل هذه القصص، ولذا جعلها من باب التمثيل فقال: (وعلى هذا - فالقصة وردت مورد التمثيل ليقرّبها سبحانه من أذهان خلقه بإفهامهم حال النشأة الآدمية وما لها من ميزة خاصة)[٢].

إن حمل الآية على التمثيل تفسير متكلف، لم يتكئ على دليل، ولم يسترشد بلغة، ولهذا بَعُد عن الصواب، فإن عامة من تكلم من المفسرين عن هذه الآية أفاد بأن الله أخبر عن قصة واقعية حدثت بينه وبين ملائكته الكرام وليس من باب التمثيل.

وكم أعجبتني كلمة جرى بها لسان الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - في تفسيره فقال: (ولقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله. واقرأ قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾[٣] كلمة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصاً. ولكن بغير حق. والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتي بغير حق، وهناك قصص تروي في الدنيا ولا واقع لها، بل هي من قبيل الخيال.. ومادمنا قد عرفنا أن الله يقص الحق،

(١) نفس المصدر(١/٧٩).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) سورة الكهف الآية: ١٣.

نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلاً)[١].

وقد تبين من خلال البحث أن المراغي - رحمه الله - قد استقى هذا التفسير من شيخه محمد عبده و جرى عليه محمد رشيد رضا في تفسير المنار[٢] ثم وافقهما هو عليه!

مع العلم أن الشيخ - رحمه الله - لم يذهب هذا المذهب في هذه القصة فحسب بل هو منهج سار عليه في معظم قصص وأخبار القرآن[٣].

ولنا أن نسأل من قال بهذا التفسير: هل عندكم من دليل على هذا فتخرجوه لنا؟! أم هل لكم سلف يقول بهذا التكلف؟! فإن لم يكن لكم من ذلك شيء فلماذا تتكلفون صرفه عن ظاهره.

المثال الثاني:

ومن أمثلة تكلفه - رحمه الله - أيضاً ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ .. ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[٤] فقد قال: (وحفظاً من كل شيطان مارد) أي وحفظنا السماء أن يتطاول لدرك جمالها، وفهم محاسن نظامها، الجهال الشياطين المتمردون من الجن والإنس، لأنهم

(١) ينظر: تفسير الشعراوي(١/٢٣٧)، أخبار اليوم - قطاع الثقافة، وراجع أيضاً: زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة(١/١٩٢)، دار الفكر العربي.

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(١/ ٢١٣).

(٣) ينظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير للرومي(١/٤٥٧)، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، وحقوق الطبع خاصة للمؤلف.

(٤) سورة الصافات الآية: من(٦-١٠).

غافلون عن آياتنا، معرضــون عن التفكر في عظمتها؛ فالعيون مفتحة، ولكن لا تبصــر الجمال ولا تفكر فيه، حتى تعتبر بما فيه. (لايسمّعون إلى الملأ الأعلــى) أي إن كثيراً من أولئك الجهال محبوسون في هذه الأرض غائبة أبصارهم عن الملأ الأعلى، لا يفهمون رموز هذه الحياة وعجائبها، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلــع إلى تلك العوالم العليا، والتأمل في إدراك أسرارها، والبحث في ســر عظمتـــها. (ويقذفون من كل جانب. دحوراً) أي وقذفتهم شهواقم وطرحتهم من كـــل جانب، فهم تائهون في سكراقم، تتخطفهم الأهـــواء والمطـــامع والعـــداوات والإحن، فلا يبصرون ذلك الجمال الذي يشرق للحكماء، ويبهر أنظار العلماء، ويتجلى للنفوس الصافية ويسحرها بعظمته، وهم ما يزالون يدأبون على معرفة هذا السر حتى ذاقوا حلاوته، فخروا ركعاً سجداً مذهولين من ذلك الجمـــال والجلال (ولهم عذاب واصب) أي وأولئك لهم عذاب دائم، لتقصـــريهم عـــن البحث في سر عظمة هذا الكون، والوصول بذلك إلى عظمة خالقـــه وبـــديع قدرته. ثم بين من وفقهم الله وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقـــال:(إلا مـــن خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) أي إلا من لاحت له بارقـــة مـــن ذلـــك الجمال، وعنت له سانحة منه، فتخطفت بصيرته كالشهاب الثاقب، فحـــن إلى مثلها، وصبت نفسه إلى أختها، وهام بذلك إلى الملكوت العظيم باحثاً عن سر عظمته، ومعرفة كنه جماله، وهم من اصطفاهم الله من عباده، ولآتاهم الحكمة من لدنه، وأيدهم بروح من عنده، وهم أنباؤه وأولياؤه الـــذين أنعـــم علـــيهم الصديقين والشهداء والصالحين.

والخلاصة: أن الدنيا بيت فرشـــه الأرض، وســـقفه الســـماء، وســـراجه

الكواكب، والبيوت الرفيعة العماد، العظيمة البناء، كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش التي تكسبها لألاء وبهجة في عيون الناظرين، ولكن لا يصل إلى إدراك تلك المحاسن إلا الملائكة الصافون، والعلماء المخلصون. أما الجهال والشياطين المتمردون من الجن والإنس، فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون، فلقد يعيش المرء منهم ويموت وهو لاه عن درك هذا الجمال، إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه، وقد تبدوا لهم أحياناً بارقة من محاسن هذا الجمال، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب، فيخطفون منها خطفة يتبعها قبس من ذلك النور يضيء، وينير ألبابهم، فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة، ويقيض لهم التوفيق والهداية، وممن اصطفاهم ربهم برضوانه، والفوز بنعيمه) [1].

غفر الله لك يا مراغي كيف تتكلف هذا وأنت تعلم أنه مخالف لما عليه المفسرون [2]؛ أَمَا كان بوسعك أن تقول ما قالوه وتكفي نفسك هذا التكلف؟! ثم أليس هذا من التزيد الذي ذكرته في سياق النقد في أول سطر في مقدمة تفسيرك؟!

فإن لم يكن هذا التفسير المتكلف من التزيد فلا ندري ما هو التزيد ؟! ولو لم يكن كذلك أيضاً لَمَا أسف له القرضاوي – حفظه الله – عندما قال: (ومما نأسف له ما وقع من تكلف واعتساف في التأويل لبعض المفسرين المعاصرين،

(١) تفسير المراغي(٨/٤٣-٤٤).

(٢) قال في الحاشية: وقد نحونا بهذا نحواً يخالف ما في كثير من التفاسير إذ أنهم قالوا: إن خطف الخطفة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق السمع ويأخذ أخبار السماء فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه ولم يستطع أخذ شيء منها وعصم الله وحيه وكتابه.

مثل صاحب تفسير المراغي فقد ذكر في تفسير قوله تعالى (إنا زينا السماء... الآيات) كلاماً متكلفاً، بعيداً عن المتبادر، ولا دليل عليه من شرع ولا عقل ولا عرف)[١].

إن معنى هذه الآيات أوضح من أن يتكلف لها مثل هذا التفسير، فعامة من تكلم عنها من المفسرين لم يختلفوا أن معناها تقرير فوائد النجوم وقد ذُكر منها هنا فائدتين:

الأولى: كونها زينة للسماء الدنيا.

والثانية: أنها قذائف نارية يُحرق بها مَرَدَة الجن والشياطين الذين يحاولون استراق السمع من السماء.

وذُكرت الثالثة في سورة الأنعام وغيرها وهي كونها معالم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر؛ على هذا التفسير درج المفسرون.

ولكن المراغي من مفسري المعاصرين والأستاذ حامد محيسن[٢] أنكرا كونها قذائف يحرق بها مَرَدَة الجن والشياطين، فتكلف كل منهما تفسيراً ليس له في اللغة وجهاً، ولا من الشريعة عَضُداً، وإنما هو التكلف المحض.

وكأنهما لم يقرأا قول النبي ﷺ: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله... فيسمعها مسترقو السمع... فَرُبَّما أَدرَك

(١) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي(ص:٣٦٢).

(٢) ذهب إلى أن معنى (رجوماً) حجج يُرجم بها الكافرون الذين استحقوا بكفرهم أن سموا شياطين، إنه لا يتصور أن يفهم أن النجوم التي جعلت زينة السماء وهداية في الأرض أن تكون قذائف للشياطين...)، ينظر: القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته لأحمد محمد جمال (ص:٦٣).

الشهَابُ الْمُستمِعَ قَبلَ أَن يَرمِي بِها إِلَى صاحِبِهِ فَيُحْرِقَه..)[١].

فالحديث يفصح و يصرح وهما ينفيان! ألا ساء ما ذهبا إليه، وكفى بمخالفة الوحيين تكلفاً، ورحم الله قتادة يوم قال: (إن الله جلّ ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها؛ فمن يتأوّل منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به)[٢].

لذا فإن ما ذهب إليه المراغي وأحمد محيسن تكلف واضح؛ لم ينسلخ عن الدليل فحسب؛ بل قد خالف الدليل وهو جدير أن يقال عنه بأنه تفسير متكلف.

المثال الثالث:

قال – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[٣]، قال:(أي وسينشق القمر، وينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض)[٤] ثم قال: والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماض أمور:

(١) صحيح البخاري(٤/ ١٧٣٦) كتاب: التفسير، باب: قوله (إلا من استرق السمع)، حديث رقم: ٤٤٢٤.

(٢) صحيح البخاري(٣/١١٦٨)، كتاب: بدء الخلق. باب: في النجوم.

(٣) سورة القمر الآية: ١

(٤) تفسير المراغي(٢٧/٧٦).

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لا عن ماض.

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حداً لا يمكن أحداً أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تُدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها.

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحاداً، بل كانوا لا يعدّون كثرة.

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح اللّه فارس فقال: ألا إن اللّه تبارك وتعالى يقول: اقتربت الساعة وانشق القمر، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، و السابق من سبق إلى الجنة، فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة وتوقع أحداثها، لا في كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته، ولأن ذلك كان في معرض العظة والاعتبار) [(١)].

إنه لغريب – والله – أن يصدر مثل هذا التفسير المتكلف من المراغي وهو

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

من هو في علمه! وغريب منه كذلك أن يأتي بحجج داحضة واهية أوهن من بيت العنكبوت ليشُدّ بها أزر تكلفه!

وكأني بك تقلب كفيك متعجباً وتقول: إن هذا القول الذي ذهب إليه المراغي ليس بدعاً من القول في التفسير؛ بل قد قال به مفسرون[١] من قبل فهل أولئك متكلفون؟!.

أقول: على رسلك ولا تعجل.. فإن هذا القول الذي ذهب إليه قد قال عنه أبو حيان والشوكاني: (والأمة مجمعة على خلافه)[٢]، ووصف الزجاج[٣] - فيما حكاه عنه الشوكاني - من قال به بأنهم قوم (عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم.. ثم قال: والأمر بين في اللفظ، وإجماع أهل العلم)[٤]، وقال عنه ابن

(١) كالقشيري والماوردي.

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان(١٠/٣٣)، وفتح القدير للشوكاني(٥/١٤٤).

(٣) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي داراً ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً؛ كان إماماً في علم النحو،وصحب أبا إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج ونسب إليه وعرف به، وسكن دمشق وانتفع الناس به وتخرجوا عليه. وألف كتباً كثيرة من أهمها: (الجمل الكبرى) و(الإيضاح في علل النحو) و(الزاهر) في اللغة، و (شرح الإلف واللام للمازني)، و (شرح خطبة أدب الكاتب) رسالة في خزانة المنوني بمكناس، و(المخترع) في القوافي، و (الأمالي). اختلف في تاريخ وفاته ورجح ابن خلكان أنه توفي في رجب سنة سبع وثلاثين. ينظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان(٣/١٣٦)، والفهرست لمحمد بن إسحاق أبو الفرج النديم(ص: ١١٨)، دار المعرفة - بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي(٢/٧٧)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان. وشذرات الذهب للعكري(٢/٣٥٧)، والأعلام للزركلي(٣/٢٩٩).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني(٥/١٤٥).

الجوزي[١] بأنه شاذ، وهذا يعني أن هذا التفسير على أقل تقدير بعيد الاحتمال وأن الظاهر خلافه؛ ثم هو مخالف لما صح من سبب النزول[٢]. وإذ قد انتظمت فيه هذه المثالب فلا معنى لحمل الآية عليه إلا التكلف؛ فإن قلت: وكيف حملت هذا القول المراغي وهو قول مسبوق؟!.

قلتُ: لأنه اختاره من دون القول المشهور، وتكلف لترجيحه بما ذكر من حجج لا تنهض للاحتجاج بها، ونحن نفدها فنقول:

إن ادعاؤه تجانس الخبرين في المستقبل غير مُسلم به وذلك لأن(حَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجوداً) [٣].

وأما قوله: إنها لو حدثت لرآها من لا يحصى كثرة ولصارت من المحسوسات و المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها، فهو تكلف

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث والتفسير، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، وقد ولد سنة ٥٠٨هـ. ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها. له نحو ثلاث مئة مصنف، منها(تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والإخبار) و (الأذكياء وأخبارهم) توفي سنة ٥٩٧هـ. راجع ترجمته في: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح(٢/٩٣)، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد - السعودية. طبعة سنة: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. و طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٥٠) الأعلام للزركلي(٣/ ٣١٦).

(٢) سبب نزول هذه الآية أخرجه البخاري(٤/١٨٤٣)، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة القمر، حديث رقم: ٤٥٨٣. ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر(٤/٢١٥٨)، حديث رقم: ٢٨٠٢.

(٣) زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي(٨/٨٨)، المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ.

فاضح ! فإن من المسلم به أن انشقاق القمر على عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - قد حدث فعلاً ورآه من لا يحصى كثرة من المشركين والمسلمين في الحضر والسفر، وقد صارت فعلاً معجزة لا يسع المسلم ولا غيره إنكارها؛ بل ذكر القاضي عياض[1] - رحمه الله - فيما حكاه النووي عنه(أنها من أمهات المعجزات)[2].

وأما اتّهامه لمن قال بتوترها بالشذوذ فهي جناية مردودة فقد ذكر التواتر الإمام ابن كثير[3] والشوكاني[4] وحكى غيرهما الإجماع [5]على تفسير الآية به.

(والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله، فقد أخبرنا بأنه انشقّ، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ، فقد ثبت في الصحيح، وغيره من

---

(١) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض العلامة عالم المغرب أبو الفضل اليحصبي السبتي الحافظ. ولد سنة٤٧٦هـ. أجاز له أبو علي الغساني. وتفقه وصنف التصانيف كالشفاء وطبقات المالكية وشرح مسلم والمشارق في الغريب، وشرح حديث أم زرع والتاريخ وغير ذلك. وبعد صيته وكان إمام أهل الحديث في وقته وأعلم الناس بعلومه وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم.وولي قضاء سبتة ثم غرناطة. مات سنة ٥٤٤هـ. راجع: وفيات الأعيان لابن خلكان(٤٨٣/٣)، والسير للذهبي(٢١٣/٢٠)، والأعلام للزركلي(٩٩/٥)، ومعجم المؤلفين لكحالة(١٦/٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي(١٤٣/١٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٤٧٢/٧)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٤) فتح القدير للشوكاني(١٤٥/٥).

(٥) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى لأبي الفضل عياض اليحصبي(٢٨١/١)، دار الفكر- بيروت. طبعة سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوّة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلـــم، فقد اتفقوا على هذا) [(١)].

وأما تكلفه في فهم ما قاله حذيفة ﷺ فظاهر فإن قول حذيفة: (قد انشق) واضح الدلالة، بين المعنى! ولا يحتاج إلى تكلف في فهمه.

ومهما يكن فتفسير الآية بعدم انشقاق القمر ما هو إلا (من باب التكلّف المخالف لما ذهب إليه عامة المفسرين، وللأحاديث الصحيحة الواردة في هـــذا الشأن) [(٢)].

ويكفى كل متكلف[(٣)] لهذا القول قوله تعالى في الآية الثانية (وإن يروا كل آية يعرضوا..) . فهي (قوية الدلالة ويصعب صرفها إلى معنى آخر) [(٤)]. أخـــيراً نؤكد أن هذه المواضع التي سقناها هنا إنما هي غيض من فيض، كما أنها جاءت على سبيل التمثيل لا الاستقصاء وإلا فالمواضع التي تكلف فيها هؤلاء المفسرون

---

(١) فتح القدير للشوكاني(١٤٥/٥).

(٢) الحجج البينات في تفسير بعض الآيات للدكتور فريد مصطفى السلمان(ص: ٣٠)، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة - الجامعة الأردنية - عمّان، بدون ناشر.

(٣) ممن تكلف لهذا القول عبد الكريم الخطيب في تفسيره (التفسير القرآني للقرآن)، فقد رد هذا القول وشكك في الروايات الواردة فقال: (و نحن إذ نخالف هذا الرأي لا نخالفه، استكثاراً على النبي الكريم أن يضع اللّه سبحانه في يده هذه المعجزة... ولكنا إذ نخالف هذه الأخبار، فإنما نخالفها ونحن في شك من صحة السند.. وإذا شككنا في السند كان المتن مجرد قول يضاف إلى آخر راو روى عنه. ثم قال: وإننا نخالف هذا القول بانشقاق القمر في عهد الرسول، لأمور:)، ثم شرع في تكلف مقيت. ينظر: تفسيره التفسير القرآني للقرآن(٦٣٠/١٤)، دار الفكر العربي - القاهرة.

(٤) التفسير الحديث لدروزة(٢٧٦/٢).

كثيرة وسنعرض بعضها – إن شاء الله – في الفصل الثاني عند حديثنا عن أسباب التكلف.

المسألة الثانية: أشهر المؤلفات المعاصرة التي أكثرت من التكلف في التفسير

لا شك أن العلم من أهم المرتكزات التي تعتمد عليها الأمم في بناء حضارتها، وصناعة مستقبلها، ومن هنا دأب الإنسان منذ القدم في سبيل تحصيله، ثم جاء الإسلام مؤكداً ذلك، فكان أول آية اخترقت حُجُب السماء لتصل إلى الأرض هي قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[1] وهكذا ظل يحث عليه حتى جاء الأمر صريحاً بالاستزادة منه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2] وعلى كل حال فمن وجهة نظر الباحث أن دعوة الإسلام للعلم والتعلُّم مسألة مفرغ منها فقد شهد له أعداؤه قبل أبناءه.

ولقد نَبَغ عبر تاريخ الإسلام علماء أجلاء في شتى الفنون وعلى مدى القرون إلى عصرنا الحاضر، ولكن الذي يحز في النفس أن يندس بين هؤلاء العلماء أشخاص يدّعون العلم وما هم بعالمين، ومنهم من يؤتى منه حظاً يسيراً فيتصدر بقلمه لمعضلات المسائل فيقع في تكلفات يفتح بها باب الاستهزاء بالدين أمام مريديه.

ومن هنا كثر تحذير العلماء من المتعالمين، حتى أفردوا هذه المسألة بالتأليف، وممن تناولها من المعاصرين فضيلة الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – فقد رقمت

(١) سورة العلق الآية: ١.

(٢) سورة طه الآية: ١١٤.

يَمينُه كتاباً أسماه (التعالم) ومما جاء فيه مما له علاقة بالبحث قوله:

(فهل سمعت بمفسر متعالم كذاب ؟

وهل سمعت بمفسر جاهل لا يدري السنة ولا يحفظ الكتاب؟

وهل سمعت بمفسر يحمل آيات التنزيل مالا يخطر ببال؟

كل هذا قد جمع في هذا العصر)(١).

وقد كان من سوء حظ المسلمين في هذا العصر أن كثر هذا الصنف حتى لا يكادون يحصون كثرة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعلى كل فسنُثبت فيما يلي بعضاً من أشهر المؤلفات التي أكثرت من التكلف في التفسير مع الاقتصار على مثال واحد فقط تفادياً للإملال، ومن شاء زيادةً فليعُد للكتب المعنية:

١) القرآن محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود، وهو طبيب وكاتب مصري عرفته الصحف، وقد تجرأ هذا الكاتب تجرءاً غريباً فاقتحم سُور التفسير فأتى بتفسيرات متكلفة تعرت عن الدليل، واعتمدت على حرية التفكير ولذلك تنكبت السبيل.

وإن كنا نعتقد فيما يبدو لنا – والله أعلم – أن مصطفى محمود كان حسن النية نبيل المقصد، إلا أننا لا نوافقه على تكلفه هذا في تفسير بعض الآيات، لأن حُسن النوايا ونُبل المقصد لا يخوّله أن يتجرأ على تفسير القرآن بما تسنح له خواطره وهو لم يتمكن من أصول هذه الصناعة، ولهذا فقد رد عليه

---

(١) المجموعة العلمية لبكر عبد الله أبو زيد(ص:٥٥)، دار العاصمة.

الكثير غيرةً على القرآن أن تُستَحلّ بيضته، وتذهب هيبته لمجرد نوايا حسنة!!!

وممن انتقده على صنيعه توفيق علي وهبة في كتابه: (شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي) حيث قال: إنه في (نظرته العصرية إلى القرآن كان يأتي ببعض الآراء الغريبة التي لا نوافقه عليها... لا نوافقه على بعض آرائه المتعلقة بتفسير آيات القرآن وليها لياً وتأويلها تأويلاً خاطئاً لتوافق رأيه) [1].

وعده عدنان زرزور من أبرز الباحثين المتكلفين الذين يسارعون إلى أخذ الآية القرآنية لتكون شاهدة على آرائهم العصرية، ووصف كتابه هذا بالسقيم [2].

وأما أحمد محمد جمال فقد تكلم عنه تحت عنوان (نقد كتاب: القرآن محاوله لفهم عصري) مستغرقاً الصفحات من (٢٢٠- ٢٥٦) حيث ختم كلامه قائلاً: (وبعد فلكي يحسن الدكتور مصطفى محمود فهم القرآن عصرياً، لا بد له من حفظ القرآن، ومراجعة تفاسيره القديمة والحديثة، المتفقة والمتعارضة.. ولا بد له من فهم أسباب النزول و...، وباختصار عليه أن يدرس (علوم القرآن) التي ألفها كبار العلماء قديماً وحديثاً، وبعد ذلك كله من حقه أن يفهم القرآن فهماً عصرياً..) [3].

(١) شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي لتوفيق علي وهبة(ص: ٣١). منشورات دار اللواء – الرياض. الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) ينظر: علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه للدكتور عدنان زرزور(ص: ٤١٢). دار الأعلام – الأردن. الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته لأحمد محمد جمال(ص: ٢٥٦).

من أمثلة تكلفه ما قاله عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) قال - عفا الله عنا وعنه -: (فأنّث الفعل [اتخذت] ليدل على أن التي تضع بيت العنكبوت أنثى وليس الذكر... واختار التشبيه ببيت العنكبوت لأنه أسوأ البيوت... وعبر الله عن الوهن – وهو الضعف – فنسبه إلى البيت لا إلى الخيط، لأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله في السُمْك، لو صنعنا مثيله من الصلب فهو متانة ثلاثة خيوط صلب، وهو كذلك أكثر متانة ومرونة من خيط الحرير) (٢).

قال عبد المتعال الجبري: (وقد أُخذ على هذا التأويل أنه يمسخ الصورة الأدبية ويفقدها الأثر النفسي المراد في بيان فساد ألوهية الأوثان، كما أن اللغة تشرك في التسمية بلفظ النمل والنحل والعنكبوت بين الذكر والأنثى مما يبطل خيال الكاتب، فلفظ العنكبوت يطلق على الذكر والأنثى) (٣).

وما دام أن هذا التأويل قد خالف الظاهر وما سيقت لأجله الآية إلى معنى لا تحتمله، و لم يقم عليه دليل فهو تأويل فاسد، وهذا كله يُعطينا الحق أن نصفه بأنه تفسير متكلف.

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤١

(٢) القرآن محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود(ص: ٥٣)، دار المعارف – القاهرة. الطبعة الثالثة. وقد اختلفت عبارة المؤلف وما نقله عنه عبد المتعال اختلافاً يسيراً وإن كان المضمون واحد فلعل مصطفى محمود قد أضاف بعض التعديلات في كتابه لأن الطبعة التي معي قديمة. لذا وجب التنبيه.

(٣) شطحات مصطفى محمود لعبد المتعال الجبري (ص: ٣٣)، دار الاعتصام – القاهرة.

٢) كتاب (في ظلال دلالات سورة الكهف بمنظور جديد معاصر)، لسليم الجابي. طُبع هذا الكتاب طبعته الأولى في دمشق سنة ١٩٩٦م بمطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة بدمشق، وهو كتاب وضعه صاحبه معتقداً أن (سورة الكهف ينبغي أن تفسّر تفسيراً مجازياً، ولا يجوز أن تفسّر ألفاظها حسب المتبادر الظاهر. وهذا ما فعله في كتابه كاملا من أوله إلى آخره)(١). فجاءت عباراته ملتوية الحروف، لا تعرف حُرمة للغة، ولا قداسة لدين ! فقال عنه الدكتور جمال أبو حسان: (لقد خطا الكاتب خطوة غير مسبوقة حين فسّر سورة الكهف كلها تفسيراً مجازياً ليس له ضابط ولا رابط... فأغفل كل ما جاء في تفسيرها وابتدع تفسيرا قائماً على أن ألفاظ تلك السورة لم تقصد معانيها الظاهرة المتبادرة)(٢)؛ قد تتقبل كلامي هذا بنوع من الاستغراب فإليك الشاهد:

عندما فسر قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾(٣)، قال: إن معنى الجدار هو محمد ﷺ؛ وإن معنى (الغلامين): موسى وفتاه؛ وإن معنى (أبوهما) أي كان إبراهيم أبو موسى وعيسى الروحي صالحاً؛ ومعنى (كنزهما) هو القرآن الكريم!)(٤). فهل ترى فيما قاله شيء تُسعفه اللغة أو يسعفه قول مروي عن نبي أو عن أحد من أهل القرون المفضلة وتابعيهم، أو حتى من المعاصرين ؟! فإن لم يكن له مما سبق من شيء، فاعلم أن

(١) ينظر: في ظلال دلالات سورة الكهف. عرض ونقد، للدكتور جمال أبو حسان أستاذ مساعد بكلية الشريعة، جامعة الزرقاء الأهلية(ص:٤)، بدون ناشر.

(٢) نفس المصدر(ص: ٩).

(٣) سورة الكهف الآية: ٨٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق(ص: ١٣).

حمل الآية عليه تكلف.

٣) كتاب (آيات قرآنية في مشكاة العلم) لـــ د. يحيى الحجري وقد قامت بنشره دار المختار الإسلامي. وهذا الكتاب يحاول مؤلفه أن يساير النظريـــات العلمية وقد قلنا غير مرة إن محاولة تطبيق النظريات على القرآن الكريم ســـبب رئيسي للتكلف في التفسير. ومن أمثلة تكلفاته ما قاله عند قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[١] فقد ذهب إلى أن معنى فروج كواكب تظهر في السماء وثم تكلف لغوياً وحاول – عبثاً – أن تكون ما النافية اسماً موصولاً فقال: (وقد فسر أكثـــر المفســـرين ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ بأن (ما) هاهنا (ما) النافية أي أن السماء خالية من الفروج التي تُنبـــئ بضعف أو خلل في بناء السماء. ونحن نرى أن العلم يقدم لنا تفسيراً آخر قائماً على أن (ما) في الجملة الأخيرة وفي الآية السابقة هي اسم موصول بمعنى الذي وليست (ما) النافية. وعندئذٍ تقرأ الآية في الصيغة التعجبية الاستفهامية كالآتي: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها؟ وأفلم ينظروا ما للســـماء من فروج؟ كذلك نرى أن فهم الآية الكريمة على هذا النحو يتمشى مع أكثـــر الصيغة الاستفهامية التعجبية التي بدأت بها الآية)[٢]. والتكلف فيه واضح.

فعجباً لهذا التحذلق المركب الذي يظنه القارئ كلاماً علمياً رزيناً و ما هو – والله – إلا التكلف!! وكيف لا يكون تكلفاً وهو يقرر أن معنى (فروج) بأنها كواكب! فهل تعرف ذلك العرب في لغتها ؟! وكيف لا يكون تكلفاً كـــذلك وهو يُكرِه (ما) النافية لتكون اسماً موصولاً وهي تأبى أن تكون كذلك !! وهل

(١) سورة ق الآية: ٦

(٢) آيات قرآنية في مشكاة العلم لـــ د. يحيى الحجري(ص: ١٠٠)، دار المختار الإسلامي.

غاب هذا الفهم على أساطين اللغة والمفسرين حتى يستدركه هذا الكاتب؟!

لقد طالعتُ هذه الآية في أكثر من عشرين مؤلفاً للسلف والخلف ما بين تفسير وإعراب للقرآن، فما وجدت أحداً منهم يذكر هذا التفسير المتكلف.

وهذا الكاتب يجوز التلاعب بمعنى الآيات بناءاً على النظريات فبعد خوضه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1]. يقول: (هذا هو التفسير الذي يقدمه العلم لنا الآن عن جري الشمس وعن مستقرها وقد يكون هناك تفسير أفضل يقدمه العلم في المستقبل القريب أو البعيد)[2]، أجل ماذا بقي من قداسة القرآن!!

من خلال هذه النماذج الثلاثة يدرك القارئ أن ثمة مؤلفات كثر فيها فعلاً التكلف في التفسير في العصر الحاضر، بغض النظر عن ما انطوت عليه النيات.

ولا شك أن هناك نماذج كثيرة في هذا الجانب وحسبك أن تدخل المكتبة القرآنية لترى بأم عينيك على ما لا يخطر ببالك.

---

(١) سورة يس الآية: ٣٨.

(٢) المصدر السابق(ص: ١١٩).

المطلب الثاني: أشهر المعاصرين الذين عَنَو بنقد التكلف في التفسير

المسألة الأولى: أشهر المفسرين الذين عنو نقد التكلف في التفسير

إن من حكمة الله البالغة أنْ لا يخلو عصر من قائم بحجته على خلقه، فإن سُنة التدافع تقتضي أن لا يستأثر الشر بالوجود دون نقيضه، واطراداً لهذه السُنة الكونية ظهر العراك بين الحق والباطل منذ القدم... ولكلٍ جنده.

فإذا كان أهل التحريف المغرضون من أصحاب العقائد الباطلة قد نفثت أقلامهم بسُمُوم أحلامهم، ودسوا في التفسير ما ليس منه، فإن حراس الدين قد وقفوا لهم بالمرصاد.. وقفوا يفندون سوأت الباطل بضياء الحق الأبلج.

هذا من جهة... ومن جهة أخرى وقفوا لقوم من أهل الفضل والصلاح، والإرشاد والإصلاح وقعت أقلامهم في هفوة عن حسن قصد، فأخذوا بأيدهم على منهج (وليتلطف) فبينوا لهم ما غاب عنهم من الحق، لا على سبيل الغط والإغماط، بل على سبيل التنبيه والتسديد، وهكذا عاش العلماء يدافعون عن حياض الكتاب، ويردون أخطاء الكُتَّاب، وما ذلك إلا إيفاءً بموعود الله القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (١).

وثمة أعلام من المفسرين المعاصرين اشتهروا بنقد التكلف في التفسير، فلا يكادون يمرون عليه إلا وهم له ناقدون، ولوجه خطئه مفندون؛ وفي هذا المطلب - إن شاء الله - نحاول أن نذكر من رأيناه أشهرهم، والله المسؤول أن نكون قد أصبنا كبد الحقيقة.

(١) سورة الحجر الآية: ٩.

وحسب علمي - وما أقل علمي - أن من أشهر من عَنَي بنقد التكلف في التفسير من المفسرين المعاصرين سيد قطب (في ظلال القرآن)، ومحمد الطاهر ابن عاشور في (التحرير والتنوير)، ومحمد عزت دروزة في (التفسير الحديث)؛ وفيما يلي تعريف بهم وبتفاسيرهم:

أولاً: تفسير الظلال:

يقع هذا التفسير في ستة مجلدات ضخمة طبعته دار الشروق وهو من أكثر التفاسير المعاصرة انتشاراً في الأوساط المثقفة، حتى ذُكر أن أصحاب دُور النشر يقولون: إذا أفلست تجارتك فاطبع تفسير الظلال[1].

ومؤلف هذا التفسير هو سيد قطب بن إبراهيم الحاج المولود في قرية (موشا) في أسيوط سنة ١٣٢٤هـ، حفظ القرآن صغيراً، وتخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في العديد من المجلات وعُين مدرساً للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف. ثم (مراقباً فنياً) للوزارة. وأوفد في بعثة لدراسة (برامج التعليم) في أميركا ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الانجليز، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية. وبنى على هذا استقالته (١٩٥٣م) في العام الثاني للثورة. وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم، وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه سنة ١٣٨٧هـ الموافق١٩٦٧م ومن أهم كتبه (التصوير الفني في

---

(١) ينظر: مدخل إلى ظلال القرآن للخالدي(ص: ٥١).

القرآن) و (مشاهد القيامة في القرآن) و(تفسير الظلال) وغيرها.[١]

أهم مميزاته:

١) التفسير مكتوب بأسلوب أدبي رفيع.

٢) التفسير يتسم بالحركية والواقعية.

٣) اعتنى فيه مؤلفه بذكر خلاصة السورة قبل تفسيرها.

(كان لا بد لسيد قطب الذي وقف على مجالات الفكر الإسلامي المعاصر، وخلفياته والعوامل المؤثرة فيه والذي عاش أحداث العالم الإسلامي المعاصر بمشاعره ونظراته وتحليلاته وحركته وكيانه؛ كان لا بد له وهو يفسر القرآن أن يقف على مظاهر الخطأ والانحراف في بعض نتاج كُتّاب ومؤلفين مسلمين معاصرين، ومن أن يرد بعض الأفكار الخاطئة التي عرضها بعض هؤلاء... ولذلك كثرت وقفاته حول هذا في الظلال، وطالت في أكثر من موضع حتى أصبح سمة من سماته)[٢].

نعم! كان الظلال من أهم التفاسير التي عنت بنقد التكلف في التفسير، والدعوة إلى تفسير القرآن بما يتفق وروح النص، من غير تكلف ولا تعسف.

فقد وقف – رحمه الله – ينظر من علو إلى ساحة التفسير ليشخص سبب

(١) ينظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/١٤٧)، ونثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر للدكتور يوسف المرعشلي(١/٤٩٩)، وقد ترجم له الكثير وأجمع من كتب عنه صلاح الخالدي في كتابه الفريد (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد)، دار القلم – دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن في الميزان لصلاح الخالدي(ص: ٣٥٣)، دار المنارة – جدة. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

التفسيرات المتكلفة التي راجت في عصره، فوجد أن السبب في ذلك هو دخول عالم التفسير بمقررات فكرية سابقة وحَمْل النصوص القرآنية عليها، ثم وضع الدواء الشافي لهذه العلة فقال: (إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره... أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود. ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن)[١]. ويقول أيضاً: (إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية، لعل هنا مكان تقريرها.. إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص)[٢].

ومن المفسرين الذين نقد تكلفهم: الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا[٣] والشيخ المراغي والشيخ عبد القادر المغربي[٤] وغيرهم.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب(٦/ ٣٧٣٠).

(٢) نفس المصدر(٦/٣٩٧٩).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن في الميزان للخالدي(ص: ٣٥٤).

(٤) هو عبد القادر بن مصطفى المغربي الطرابلسي أصله من البلاد التونسية، ولد في اللاذقية سنة:١٢٨٤هـ. نشأ في طرابلس الشام وقرأ على أبيه وبعض علماء دمشق والقسطنطينية. وعرف بالمغربي واتصل بجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده. ورغبه الثاني بالسفر إلى مصر، فقصدها (سنة ١٩٠٥م) قبيل وفاة محمد عبده. وانصرف إلى الصحافة فكتب كثيراً في كبريات الجرائد، ومن كتبه: (الأخلاق والواجبات) و(تفسير جزء تبارك) و(على هامش التفسير)، توفي في دمشق متأثراً بصدمة سيارة سنة ١٣٧٥هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(٤/٤٧).

ولكن أكثر من تعقبه من هؤلاء هو الشيخ محمد رشيد رضا، ولذا فإن الباحث سيقتصر في التمثيل على تعقُّباته عليه. وهذا شروع في ذكر الأمثلة:

المثال الأول:

من الآيات التي تكلف الشيخ محمد رشيد رضا تفسيرها وأولها مع وضوح المعنى قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1] فقد ذهب إلى أن الملائكة لم تقاتل مع المسلمين يوم بدر وإنما كان الإمداد معنوياً وأن الخطاب في قوله تعالى: (فاضربوا فوق الأعناق) موجه للمؤمنين واسمع إليه وهو يقول: (بين تعالى أن هذا الإمداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال: وما جعله الله إلا بشرى أي: وما جعل عز شأنه هذا الإمداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ولتطمئن به قلوبكم أي: تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم من مجادلتكم للرسول في أَمر القتال ما كان، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا وما النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية، إذ هو المسخر لها، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان إن الله عزيز حكيم عزيز غالب على أمره، حكيم لا يضع

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١٢.

شيئاً في غير موضعه.

وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة، وإمداد المسلمين بهم فائدته معنوية.. وأنهم لم يكونوا محاربين، وهنالك روايات أخرى في أنهم قاتلوا)[١].

هذا التفسير المتكلف تعقبه سيد قطب و لم يقبله فقال: (وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين وقد جزم — أي محمد رضا – في موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى: ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح المشركين.. هو منهج تلك المدرسة بجملتها.. هذا كله مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية حيث لا ضرورة لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها.. وكل ما ينبغي هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة.. وهو المنهج الذي اتخذناه فعلاً)[٢].

وقال في موضع آخر (وليس كالذي قاله المرحوم السيد رشيد رضا من أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر إلا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم، فهذا مخالف لظاهر النص. والنص أولى بالإتباع)[٣].

فقوله (هذا كله مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية حيث لا ضرورة لهذا التأويل) و (مخالف لظاهر النص)، وصف مفاده أن هذا التفسير

(١) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(٩/٥٠٦).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب(٣/١٥٣١).

(٣) نفس المصدر(٣/١٥٣٤).

متكلف، لأنه قد مر عليك أن التأويل إذا لم تكن له ضرورة ملجئة إليه، وكان المعنى الظاهر موجوداً، كان تكلفاً مذموماً.

المثال الثاني:

من أشهر الآيات التي كثر الجدل عندها قديماً وحديثاً قوله تعالى في سياق قصة يوسف : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] فقد خاض المفسرون في معنى (الهم)[2] وما المراد به؟! وهل حصل ذلك من يوسف – عليه السلام – بما يقضي الناظر فيه العجب العجاب، ويستغرب له غاية الاستغراب.

وجملة القول في اختلافهم في معنى الهم يرجع إلى ثلاثة أقوال:

١) أنه لم يهمّ بها أصلاً.

٢) أنه همّ بها ولكن لم يفعل.

٣) أنه همّ بضربها.

وأشهر الأقوال الأول والثاني، أما الثالث فلم يلتفت إليه الكثير من المفسرين المتقدمين لكونه لا دليل عليه.

ولكن محمد رشيد رضا تكلف لهذا القول تكلفاً عجيباً، بل ورد ما سواه بعد هجوم على المفسرين المتقدمين فقال: (ذهب الجمهور المخدوعون بالروايات

(١) سورة يوسف الآية: ٢٤.

(٢) ولكثرة ما ورد فيها من أقوال أفردها محمد حامد إبراهيم سليم في بحث بعنوان: القول الفصل في قضية الهم بين يوسف وامرأة العزيز، ويقع هذا البحث في ٨٢ صفحة.

إلى أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة و لم يكن لها معارض ولا مانع، وهمَّ هو بمثل ذلك، ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها و لم يستح بعضهم أن يروي من أخبار اهتياجه وتهوّكه فيه ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لا يقع مثله إلا من أوقح الفساق... وقد بلغ ببعضهم كـــ(السدي) (١) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الأدب أن يوسف لم ير برهاناً واحداً بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلاً له منكراً عليه وتكرار وعظه له، ومن رؤية الملائكة ونزولهم عليه بأشد زواجر القرآن بآيات من سورة فلم تنهه من شبقه، ولم تنهه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عاجزاً عن الإمضاء، أفبهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء وكان من عباد الله المخلصين ؟! وأنبيائه المصطفين الأخيار؟)(٢)، ألا ما أقسى هذه العبارة في وصف المتقدمين من المفسرين، حتى وإن وقعوا في الخطأ الذي يعجب المرء أن يصدر عن مثلهم؛ ولكن ألا يكفي أن تأتي عبارة النقد متلفعة بلباس الحياء احتراماً لمقام العلماء، فإنه أحرى بالقبول...، عودة إلى عبارة رضا قال: (ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الروايات الحمقاء، حماية لعقيدة عصمة الأنبياء فإنه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها في أنفسهم وتسليمهم أن الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة، إلا من خالف

---

(١) هو محمد بن مروان السدي الكوفي، وهو السدي الصغير. يروى عن هشام بن عروة والأعمش. تركوه واتهمه بعضهم بالكذب وهو صاحب الكلبي. توفي سنة:١٨٦هـــ. ينظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٣٢/٤).

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(١٢/ ٢٣٢).

قواعد اللغة[١] فقال إنَّ قَوله – تعالى –: (وَهَمَّ بها) جواب لقوله: (لولا أَن رأى برهان ربه)، وَمَن قال: إنَّ جوابه محذوف دلّ علَيهِ مَا قَبلَه، فهو على هذين القولين لم يَهمَّ بشيءٍ، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها... ولهم تأويلات من هذا، ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنًى عنها...، فأنا أرد على جميع من فسروا هَمَّ المرأة بغير ما اختَرته!!!)[٢]. وقد اختار أن معنى الهم هو الضرب، فقال: (كان هُمهماً واحداً وهو البطش بالضرب أَو ما في معناه)[٣].

قال سيد قطب منتقداً هذا التكلف (وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي. وقال: إنها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة، وهم هو برد الاعتداء ولكنه آثر الهرب فلحقت

---

(١) قوله إن هذا القول مخالف للغة ليس مُسلّم به فقد ذهب الكوفيون وغيرهم من أعلام البصريين على جواز تقديم جواب (لولا) على سائر الشروط كما أفاده أبو حيان في البحر المحيط (٢٥٧/٦)، بل قال محمد الأمين الشنقيطي إن هذا القول هو(أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية) كما في أضواء البيان(٣٦/٢)، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(٢) نفس المصدر(٢٣٤/١٢).

(٣) نفس المصدر والصفحة. ومن أغرب تكلفات المفسرين أيضاً عند هذه الآية ما ذكره الشعراوي في تفسيره في سياق النقد فقال: (وعندما تناقش من رأى هذا الرأي – أي الجلوس بين شعبتيها – يردُّ بأن هدفه أن يثبت فُحُولة يوسف! لأن الهمّ وُجِد وأنه نازع الهم)، تفسير الشعراوي (٦٩٠٨/١١)، الثقافة. ولو رجعوا إلى لآيات قبلها لعلموا أن يوسف ليس بحاجة إلى هذا التكلف لإثبات فحولته، فقد أثبتها الله له بقوله: (ولما بلغ أشده)، أي منتهى شبابه وشدته وقوته. أفاده البغوي في تفسيره ينظر: معالم التتريل(٢٢٦/٤)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

به وقدت قميصه من دبر.. وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة. وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص) [1].

ويرى الباحث أن الحق الذي تنشرح له نفس المنصف هو ما ذهب إليه الشهيد سيد قطب – رحمه الله – فهو الصواب الذي عليه المفسرون.

المثال الثالث:

تكلف محمد رشيد رضا في مفهوم العدد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2] وحاول أن يجد عِلّةً لذلك فقال ما ملخصه: (إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً. فتحداهم بعشر.. لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى) [3].

لكننا نجد أن سيد قطب يميل إلى أن هذا نوع من التكلف لا داعي له فيقول: (ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة، فأجهد نفسه طويلاً – رحمة الله عليه –... ونحسب – والله أعلم –

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب(١٩٨١/٤).

(٢) سورة هود الآية: ١٣.

(٣) نفس المصدر(١٩٨١/٤).

أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد. وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة. فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن. أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور. دون ترتيب زمني. لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن. كله أو بعضه أو سورة منه على السواء. فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره. والعجز كان عن النوع لا عن المقدار. وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة. ولا يلزم ترتيب)[1].

وواضح من كلام سيد انتقاده لهذا التفسير لأنه – كما – يقول: (تعقيد) واستفراغ جهد في غير ما حاجة، وقد مرّ معك أن هذه من أهم سمات التكلف في التفسير.

وإذا كنا قد عرفنا أن كثيراً من المعاصرين قد حاول تقديم تفسيرات علمية متكلفة جرياً وراء النظريات فقد وقف منتقداً أولئك قائلاً (وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقا من النظريات التي تسمى (العلمية) – حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق – فالنظريات(العلمية) قابلة دائما للانقلاب رأسا على عقب)[2] كرر هذا النقد فقال متعجباً: (وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء

(١) المصدر السابق (١٨٦١/٤).

(٢) نفس المصدر (١٨٥٧/٤).

والفلك وما إليها) [١] ثم أكد أن (القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية. و لم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي، كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم)[٢] وأخـــيراً يقرر أن (كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة – أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلـــفنا- تحتـــوي أولاً على خطأ منهجي أساسي كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم..

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع..

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن.

والثالثة: هي التأويل المستمر – مع التمحل والتكلف – لنصوص القرآن لكي نحملها ونلهث وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر) [٣].

من خلال هذه الأمثلة نجد أن سيد قطب – رحمه الله – كان من أشهر المفسرين المعاصرين الذين اعتنوا بنقد التكلف في التفسير.

ثانياً: تفسير التحرير والتنوير :

يقع هذا التفسير الذي بين يدي في ثلاثين مجلداً وهي طبعة مؤسسة التاريخ – ببيروت، التي طُبعت طبعتها الأولى سنة (١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠هـ).

---

(١) نفس المصدر(١/١٨١).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر(١/١٨٢).

ومؤلفه هو الإمام: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، رئيس المفتين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه.

ولد بتونس في جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ ونشأ في بيئة علمية فحفظ القرآن الكريم حفظًا متقنًا منذ الصغر، وحفظ المتون العلمية كسائر أبناء عصره من التلاميذ، ثم تعلم ما تيسر له من اللغة الفرنسية؛ والتحق بجامع الزيتونة في سنة (١٣٠٣هـ-١٨٨٦م)، والتحق بالقضاء سنة (١٩١١م) ثم مفتيًا مالكياً سنة (١٩٢٣م) فكبير المفتين سنة (١٩٢٤م) فشيخ الإسلام للمذهب المالكي سنة (١٩٣٢م) ثم ارتحل إلى المشرق العربي وأوروبا، وشارك في عدة ملتقيات إسلامية، كان عضوًا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٩٥٦م)، وبالمجمع العلمي العربي بدمشق سنة (١٩٥٥م)، برع في التفسير، والحديث، والقراءات، ومصطلح الحديث، والبيان، واللغة، والتاريخ، والمنطق وعلم العروض، وأما كتبه ومؤلفاته فقد وصلت إلى الأربعين، وهي غاية في الدقة العلمية وتدل على تبحر الشيخ في شتى العلوم الشرعية والأدبية، ومن أجلّها كتابه في التفسير: (التحرير والتنوير) وكتابه الثمين والفريد من نوعه: (في مقاصد الشريعة الإسلامية)، وكتابه (حاشية التنقيح للقرافي)، توفي في تونس سنة ١٣٩٣هـ.[1]

---

(١) راجع: الأعلام للزركلي(٦/٣٢٥)، وقد ذكر معالي الشيخ محمد الحبيب بن الخواجة - وهو تلميذ ابن عاشور ومن ألصق الناس به - أنه توفي سنة١٣٦٤هـ، ونحن نرجح ما ذهب إليه معالي الشيخ محمد. ينظر: مدخل لتفسير التحرير والتنوير لمحمد الحبيب بن الخواجة (ص: ١٧)، بدون ناشر.

وأهم مميزات التفسير :

١) التفسير جزل العبارة جرى فيه المؤلف على طريقة السلف نسقاً واعتقاداً.

٢) يعتبر في الجملة تفسيراً بلاغياً بياناً لغوياً عقلانياً لا يغفل المأثور ويهتم بالقراءات.

٣) اعتنى فيه المفسر بذكر الأقوال ومناقشتها مع الترجيح.

لقد اطلعت على هذا التفسير وقرأت منه قدراً كبيراً يصلح لأن أتحدث عنه بلغة الواثق مما يقول عنه، فوجدته يسوق في أول تفسيره قاعدة أصيلة من قول شرف الدين الطيب - رحمه الله - في كيفية تعاطي صناعة التفسير فيقول: (شـــرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سليماً من التكلف عرياً من التعسف)، وتقدم.

ووجدته أيضاً - مع كونه يذهب إلى القول بالاستفادة من العلوم في التفسير- يشترط ألا يكون فيه تكلف فيقول: (وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق[أي علاقة] بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه، وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، [ثم قال وتأمل ما قال] وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفاً بيناً ولا خروجاً عن المعنى الأصلي) [١].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور(١/٤١ - ٤٢).

فعلق بحسباني حينها أنه سيحمل سيف النقد ليلاحق به مواطن التكلف في التفسير؛ لكن هل يصدق الواقع ما في الحسبان؟ سؤال همّني الإجابة عليه...

لم يَطُل بي البحث كثيراً، فقد حصل بالفعل ما كان في الحسبان! حيث وجدته كثيراً وكثيراً ما ينتقد ذلك، فمرة يقول: وهو تكلف ظاهر، وأخرى يقول: تكلف لا دليل عليه، وثالثة يقول: تكلف لا داعي إليه وعباراته في هذا لا تكاد تحصى كثرةً[1].

غير أن من المهم أن أنبه إلى أن غالب تعقباته كانت للمتقدمين كالزمخشري والفخر الرازي وغيرهما وأكثرهم على الإطلاق الزمخشري فهو أكثر من تعقبه في تكلفاته، كما سيأتي في التمثيل به.

وإذا كنا قد عرفنا أن من مميزات هذا التفسير أنه يهتم بالجانب البياني فلا غرو إذن أن نجد أن غالب انتقاده لتكلفات المفسرين البيانية التي تؤدي إلى حمل الآية على مالا تحتمل، أو تؤدي إلى العدول عن الظاهر من غير حاجة.

أما المعاصرون فما رأيته تعقب أحداً منهم تصريحاً- حسب ما هداني إليه بحثي المتواضع - إلا واحداً وهو الأستاذ الإمام محمد عبده فقد ذكره في موضعين من تفسيره[2].

ولا شك أن هذا يثير التساؤل: لماذا لم يتعقب على المفسرين المعاصرين؟.

وبالتأمل يظهر للبحث أن السبب في ذلك هو أن التفاسير التي ظهرت إبّان

---

(١) فعلى سبيل المثال كرر قوله (تكلف لا داعي إليه) في (٣٤٦/١) و (١٨١/٤) و (١٩٧/٤) و(١٧٦/١٠) و (٣٤/٣٠)، من تفسيره.

(٢) نفس المصدر(١٤٩/١) و(١٢٢/٢٣).

عصره كان أصلها كتابات تَصدُر في بعض المجلات، ولم يكن قصد أصحابها تأليف تفسير للقرآن، فمحمد عبده بدأ تفسيره من مجلة (العروة الوثقى) [(١)] ومحمد رشيد رضا بدأ تفسيره من مجلة (المنار) [(٢)] وسيد قطب بدأ تفسيره من مجلة (المسلمون) [(٣)] و أبو الأعلى المودودي[(٤)] بدأ تفسير من مجلة (ترجمان القرآن)[(٥)] وطنطاوي جوهري بدأ تفسيره من مجلة (الملاجئ العباسية) [(٦)] وابن باديس[(٧)] بدأ تفسيره من مجلة

---

(١) ينظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين (ص: ٥٠٣)، دار الكتاب العربي – بيروت. طبعة سنة١٩٧٩م.

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(١/ ١٤).

(٣) تعريف الدارسين للخالدي(ص: ٦٠٢)، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد لصلاح الخالدي(ص: ٤٥)، دار القلم – دمشق، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م. وسيد قطب الأديب الناقد لعبد الله عوض الخباص (ص: ٣١١)، دار المنار– الزرقاء. الطبعة الأولى: ١٩٨٣م، وأعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة للعقيل(ص:٦٥٩).

(٤) ينظر ترجمته في: أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (ص: ٣٣١)، وأبو الأعلى المودودي لخليل أحمد الحامدي، مطبعة المكتبة العلمية – لاهور.

(٥) أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة للعقيل(ص: ٣٣٢)، تفسير سورة النور للمودودي(ص:٥)، دار الفكر.

(٦) تفسير الجواهر لجوهري(١/٣)، ومدخل إلى ظلال القرآن للخالدي (ص:٦٧).

(٧) هو عبد الحميد بن باديس أحد زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المولود في ٥ ديسمبر١٨٨٩م بمدينة قسنطينة في أسرة ذات جاه وشهرة بالعلم والفضل، تلقى دراسته الأولى في قسنطينة ثم ارتحل إلى جامعة الزيتونة وتتلمذ على يد مجموعة من العلماء منهم ابن عاشور صاحب التحرير والتنوير، ثم ارتحل إلى الحجاز سنة ١٩١٢م، وعاد إلى الجزائر عام ١٩١٣م وبدأ نشاطه الإصلاحي، أسس مجموعة من الجمعيات وشارك في بعض المؤتمرات وكتب في بعض المجلات توفي =

(الشهاب) [١] وهكذا.

فلذا لم يعدها تفاسيراً ينبغي التعقيب عليها بل اكتفى بالإشارة إليها في مقدمة تفسيره عندما قال: (فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانباً، جالباً من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالباً، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره) [٢].

ومما يدل على هذا أنه تعقب الإمام محمد عبده في تفسير جزء عم - كما سيأتي - ومن المعلوم أن محمد عبده وضع هذا التفسير بقصد التأليف في التفسير.

والآن لنرى مدى انتقاده للتكلف التفسير، وهل هو فعلاً المفسر الذي يستحق أن يكون من أشهر المفسرين الذين عنو بملاحقة هذا النوع من التفسير؟

المثال الأول:

ذهب الزمخشري - رحمه الله - إلى أن معنى (لمن يشاء) من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [٣]، أي: لمن يشاء الشرك، وليس المعنى: لمن شاء الله أن

في عام ١٩٤٠م، وقد قيل إنه مات مسموماً ينظر ترجمته في: الإمام عبد الحميد باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية للدكتور محمود قاسم (ص: ١٥-٣٤)، دار المعارف - مصر.

(١) نفس المصدر (ص: ٢١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١/ ٣٥).

(٣) سورة النساء الآية: ٤٨.

يغفر له؛ فقال: (قوله تعالى: (لِمَن يشاء) كأنه قيل إن اللّه لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أنّ المراد بالأول من لم يتب، وبالثاني من تاب. ونظيره قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله) [1] وما قاله تكلف واضح، فإن معنى الآية كما يقول المفسرون: إن الله لا يغفر ذنب الإشراك به، ويغفر مادون ذلك من الذنوب - تفضلاً منه - وإن كانت من الكبائر كل ذلك مقيد بمشيئة الله تعالى إن شاء غفر وإن شاء عذب[2].

ولما كان هذا التفسير من الزمخشري بهذه المثابة من التكلف تعقبه ابن عاشور فقال: (والمعتزلة تأولوا الآية بما أشار إليه في الكشاف: بأن قوله (لمن يشاء) معمول يتنازعه (لا يغفر) المنفي (ويغفر) المثبت. وتحقيق كلامه أن يكون المعنى عليه: إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء، ويصير معنى لا يغفر لمن يشاء أنه لا يشاء المغفرة له إذ لو شاء المغفرة له لغفر له، لأن مشيئة الله الممكن لا يمنعها شيء، وهي لا تتعلق بالمستحيل، فلما قال (لا يغفر) علمنا أن من يشاء معناه لا يشاء أن يغفر، فيكون الكلام من قبيل الكناية، مثل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا، أي لا تفعل فأعرفك فاعلاً، وهذا التأويل تعسف بيّن) [3]. ومعنى تعسف بين أي: أن حمل الآية عليه تكلف.

---

(١) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(١/٥٢٠)، دار الكتاب العربي- بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر على سبيل المثال: جامع البيان للطبري(٨/ ٤٤٨)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(٢/٣٢٥)، وتفسير تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ١٨١).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور(٤/١٥٢).

المثال الثاني:

من المتفق عليه عند المفسرين أن معنى (بظلم) في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] أي بشرك لِما روي عن النبي ﷺ أنه فسرها بذلك[2]، ولكن الزمخشري – رحمه الله – ذهب إلى أن معناها: بمعصية تفسقهم[3] وأن قوله تعالى (الذين آمنوا و لم يلبسوا...) من قول إبراهيم وليس من قول الله ! وهذا التكلف من الزمخشري لم يسكت عنه المفسرون وفي مقدمتهم من المعاصرين ابن عاشور حيث قال: (وحمل الزمخشري الظلم على ما يشمل المعاصي – لأن المعصية ظلم للنفس كما في قوله تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)[4] – تأويلاً للآية على أصول الاعتزال لأن العاصي غير آمن من الخلود في النار فهو مساو للكافر في ذلك عندهم، مع أنه جعل قوله: (الذين آمنوا و لم يلبسوا) إلى آخره من كلام إبراهيم، وهو إن كان محكياً من كلام إبراهيم لا يصح تفسير الظلم منه بالمعصية إذ لم يكن إبراهيم حينئذ داعياً إلا للتوحيد و لم تكن له بعد شريعة، وإن كان غير محكي من كلامه فلا يناسب تفسيره فيه بالمعصية، لأن تعقيب كلام إبراهيم به مقصود منه تأييد

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

(٢) ينظر: صحيح البخاري(١/٢١)، كتاب: بدء الوحي، باب: ظلم دون ظلم، حديث رقم: ٣٢. وصحيح مسلم(١/٨٠)، دار الجيل، دار الآفاق، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، حديث رقم: ٣٤٢.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري(٢/٤٣).

(٤) سورة التوبة: ٣٦.

قوله وتبيينه، فالحق أن الآية غير محتاجة للتأويل على أصولهم نظراً لهذا الذي ذكرناه)[١]. وماذا يفهم العاقل من قول ابن عاشور (أن الآية غير محتاجة للتأويل) إلا أن معناها ظاهر، وأن محاولة تفسيرها بغيره تكلف ظاهر؟! وكيف لا يكون كذلك وهو قد خالف تفسير النبي ﷺ.

المثال الثالث:

فسر الزمخشري – رحمه الله – قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢] بأن قال: (كثيراً من الجن والإنس هم المطبوع على قلوبهم الذين علم اللّه أنه لا لطف لهم، وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق اللّه نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات اللّه سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم - لإعراقهم في الكفر وشدّة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار– مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار)[٣]. وهذا التفسير يقتضي أن الله تعالى هو الذي خلق أفعال أهل النار و لم يقترفوها باختيارهم!!! كما هو معتقد المعتزلة.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٨٨/٦).
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.
(٣) تفسير الكشاف للزمخشري(١٧٩/٢).

قال ابن عاشور منتقداً هذا التكلف (وجهنم مستعملة هنا في الأفعال الموجبة لها بعلاقة المسببية، لأنهم خلقوا لأعمال الضلالة المفضية إلى الكون في جهنم، ولم يخلقوا لأجل جهنم لأن جهنم لا يقصد إيجاد خلق لتعميرها، وليست اللام لام العاقبة لعدم انطباق حقيقتها عليها، وفي الكشاف جعلهم لإغراقهم في الكفر، وأنهم لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار، مخلوقين للنار دلالة على تمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار، وهذا يقتضي أن تكون الاستعارة في (ذرأنا) وهو تكلف راعى به قواعد الاعتزال في خلق أفعال العباد وفي نسبة ذلك إلى الله تعالى) [(١)].

وهكذا نجد أن ابن عاشور كثيراً ما يتعقب الزمخشري في تكلفاته التفسيرية سواء كانت البيانية أو العقدية، ولك أن تراجع تفسير ابن عاشور لتقف أكثر على تعقباته عليه.

ثالثاً: التفسير الحديث:

يقع هذا التفسير في اثني عشر جزءاً ومؤلفه هو محمد عزة دروزة المولود في ليلة السبت الموافقة للحادي عشر من شهر شوال سنة ١٣٠٥هـ، في مدينة نابلس - فلسطين - وأبوه عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة. درس في مدارس الحكومة الابتدائية والرشدية والإعدادية في نابلس وتخرج سنة ١٣٢١هـ، وحفظ القرآن الكريم في سجنه في دمشق. وانكب على المطالعة والدراسة الشخصية بدون انقطاع. وقد تسنى له أن يقرأ عدداً كبيراً من الكتب

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(٨/٣٥٨).

العربية في اللغة والأدب والشعر والتاريخ والاجتماع والفلسفة والتفسير والحديث والفقه، وقد كان يجيد اللغة التركية وبعض اللغات الأجنبية.

شارك في تأسيس الكثير من الجمعيات والمؤسسات، وتقلد الكثير من المناصب، وكان عضواً فعالاً في المؤتمرات الدولية. وكتب عشرات المقالات والبحوث ونشرت في صحف ومجلات فلسطين وسورية ولبنان والعراق ومصر.

له العديد من المؤلفات تصل إلى ٣٥ مؤلفاً مطبوعة من غير المخطوطة، من أهمها: (الدستور القرآني في شؤون الحياة)، و(سيرة الرسول عليه السلام من القرآن)، و(القرآن واليهود)، و(التفسير الحديث) توفي – رحمه الله- في دمشق ٢٨ شوال ١٤٠٤هـ[1].

وأهم ما تميز به تفسيره:

١) جرى فيه المفسر على ترتيب أسباب النزول حيث ابتدأ بسورة العلق.

٢) المعارضة التامة للتفسير والإعجاز العلمي.

٣) التأكيد على عدم الخوض فيما سكت عنه القرآن.

ومن يطالع هذا التفسير يجد أن المفسر كأنما وضعه لتتبع التكلف في التفسير حيث ابتدأه بمقدمات كلها توحي برفضه للتكلف في التفسير، وتؤكد فهم القرآن من خلال نصوصه الواضحة وعدم التزيد وتحميل الآيات ما لا تحتمل... وهذه المقدمات هي في الأصل عبارة عن كتاب ألفه قبل التفسير ثم جعله بمثابة مقدمة لتفسيره.

(١) ينظر ترجمته وافية في تفسيره التفسير الحديث(١٠/٢٣-٣٢).

ويهمنا أن نذكر من هذا الكتاب ما يلتصق بالبحث وهو الفصل الثالث والرابع فأما الثالث فقد خصصه للحديث عن الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره[١]، ولو لا أن كلامه في هذا طويل الذيل لأثبت منه طرفاً ولكن حسبي أن نشير إليه في الحاشية[٢].

وأما الفصل الرابع فقد تحدث فيه عن تعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم[٣]. والحق أنه برز فيه نقد التكلف في التفسير بشكل واضح وهذا ثبتٌ لبعض عباراته في ذلك:

فمثلاً يقول تحت عنوان (تعليقات المفسرين على القصص): (إن كثيراً من المفسرين قد ولعوا بالتعليق على ما ورد في القرآن من قصص ولعاً كبيراً تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة إلى الصحابة والتابعين على علات كثير من هذه الروايات، وجالوا في ساحات التخمين والتخرص والتكلف والتزيد والمبالغة جولات مسهبة حيناً وموجزة حينا آخر، ومنسوبة إلى رواة من غير تلك الطبقة بالأسماء حيناً وبدون أسماء حيناً وصادرة عنهم أو موهمة أنها كذلك حينا آخر، حتى ليقع في نفس القارئ من فحوى عباراتهم وأساليب إيرادهم أحيانا أنهم يعنون أن القصص القرآنية أو بعضها على الأقل قد وردت في القرآن لذاتها،

---

(١) ينظر: نفس المصدر(١/١٤١).

(٢) ينظر: ما قاله عند حديثه عن مشاهدات الكون ونواميسه(١/١٨٣)، وما قاله عند حديثه عن الذات الإلهية في القرآن (١/١٨٩)، وما قال في سياق حديثه عن تفسير القرآن بالقرآن(١/١٩٨).

(٣) ينظر نفس المصدر(١/ ٢١٨).

وبقصد الإخبار والماهيات والحقائق أكثر من قصد العظة والتذكير، وكثير مما أورده لا يتفق مع دلالات الآيات ولا تتحمله أهدافها ولا تقتضيه عباراتها) (١) ثم ذكر أمثلة لذلك.

وتحت عنوان (الولع بأسرار القرآن ورموزه ومنطوياته) يقول: (إن بعض المفسرين والمشتغلين بالقرآن قد ولعوا بتخمين انطواء القرآن على أسرار ورموز، واستغرقوا في استقراء الحروف والكلمات والتراكيب القرآنية بقصد الكشف عن تلك الأسرار والرموز واتسع مجال التفريع والتكلف والإغراب في هذا المجال كثيراً. ثم وقف طويلاً مع هذا العنوان حيث استغرق من صفحة ٢٣٩ إلى صفحة ٢٤٨ واختتم قائلاً: (وواضح أن في كل ما ذكرناه في هذا المبحث ثغرات عديدة من شأنها التشويش على القرآن ومداه وعلى الناظر فيه والراغب في تفهمه، وصرف القلب عن روحانيته وأهدافه الوعظية والإرشادية والتذكيرية والتوجيهية، والاستغراق في هذه الناحية حتى تنقلب جمل القرآن وكلماته وحروفه إلى معادلات جبرية ورياضية وكيمياوية وتنجيمية ومنطقية وكلامية وجدلية إلى آخره مما يخرجه عن قدسيته ولا يتسق مع طبيعة توجيهه إلى مختلف طبقات الناس،... وهذا فضلا عن ما في الأقوال أو كثير منها من التكلف والتزيد والتجوز والتحكم) (٢).

وبنفس هذه اللهجة تكلم عن مسألة الخوض في الغيبيات(٣) والولع بالتفريع

---

(١) المصدر السابق(١/٢١٨-٢١٩).

(٢) نفس المصدر(١/٢٣٩-٢٤٨).

(٣) نفس المصدر (١/٢٢٦).

والاستطراد[١] وغيرها من المسائل التي يكثر عندها التكلف.

وممن انتقد تكلفاتهم الإمام الرازي والزمخشري ومفسري الشيعة والخوارج ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا والقاسمي وغيرهم، كما سيأتي في التمثيل.

غير أن من المهم أن يذكر الباحث: أن انتقاده للمعاصرين لم يكن صريحاً في بعض المواضع بل كان يكتفي بالإشارة كقوله على سبيل المثال: (ومنهم من أوّل)، وهو يقصد الشيخ رشيد رضا[٢]، وذلك في موضع لا يقبل التأويل، وكذا قوله: (قال الذين يميلون إلى استنباط الأسرار والفنون من القرآن والتوفيق بينه وبين النظريات العملية و الفنية)[٣] ثم ذكر تفسيراً قاله محمد رضا في تفسيره[٤].

ومن الملفت للنظر أيضاً أنه يذكر بعض تكلفات المعاصرين ولا يصرح بلفظ التكلف مثلما فعل مع محمد عبده[٥] والقاسمي [٦]، رحمة الله على الجميع.

والسؤال الذي يطرح نفسه على طاولة النقاش: لماذا عدل دروزة عن التصريح إلى مقام التلميح ؟!

---

(١) نفس المصدر(١/ ٢٤٩).

(٢) المصدر السابق(٣/ ٤٥٥).

(٣) نفس المصدر(٥/ ٣٠٩).

(٤) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(٢٦٨/٤)، وهي مسألة أصل خلق الإنسان وقد وعد رضا أنه سيتناولها بالتفصيل عند تفسيره لسورة المؤمنون، ولكن قَصُر به الأجل قبل أن يبلغها. رحمه الله رحمة الأبرار اللهم آمين.

(٥) ينظر التفسير الحديث لدروزة(٢/ ٤٣).

(٦) نفس المصدر(٧/٣٤٠).

والجواب كما توصل إليه البحث: هو احترامه الجم وتوقيره الشديد لمقام هؤلاء المفسرين[١] - كما هو شأنه مع المفسرين المتقدمين- خصوصاً علماء أهل السنة، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يوافقهم في بعض ما يذهبون إليه مثل مسألة الجهاد في الإسلام هل كله جهاد دفاع أم بعضه جهاد طلب[٢]؟! وعلى كل حال بقي أن نذكر الأمثلة:

المثال الأول:

عند قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[٣] ذكر العلامة القاسمي[٤] ورشيد رضا[٥] - رحمهما الله - من الآية أنها تشمل السياحة بمفهومها اليوم أي الذهاب في الديار، لأجل الوقوف على الآثار، تواصلاً للعظة بها والاعتبار، ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التاريخ؛ لكن دروزة - رحمه الله - يرى أن في حمل الآية على هذا المعنى

(١) ينظر على سبيل المثال ما قاله عن محمد رشيد رضا(٢٥٦/١)، وما قاله عن القاسمي(٥٤/٩)، من تفسيره.

(٢) يذهب دروزة ومحمد رضا والزحيلي وغيرهم إلى أن الجهاد سياج للإسلام وليس جوهر منه، وبمعنى آخر الجهاد في الإسلام عبارة عن دفاع وليس للطلب ينظر كلاً من: التفسير الحديث لدروزة(٨٠/٧)، و(٢٧١/٩)، وتفسير المنار لمحمد رضا(١٦٨/٢) و(٢١٤/٥) و(٣٦٦/١٠)، والتفسير المنير للزحيلي(٢١/٣)، وقد رد هذا القول سيد قطب في الظلال ينظر(٧٣٤/٢).

(٣) سورة التوبة الآية: ١١٢

(٤) ينظر: محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي (٥١٢/٥)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٥) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(٤٢/١١).

تكلف لأنه احتمال بعيد لا سيما وأن المعنى الظاهر موجوداً، واسمع إليه وهو يقول: (ولقد رأينا المفسر القاسمي يقف عند كلمة السَّائِحُونَ ويروي ما قاله بعض العلماء من أنها بمعنى السياحة في الأرض مطلقاً وينقل عنهم ما ذكروه من فوائد السياحة المتنوعة حيث يبدو أنهم يرون الكلمة إيعازا قرآنيا للمسلمين بالسياحة في الأرض واجتناء فوائدها. وشيء من هذا في تفسير رشيد رضا أيضاً.

ومع أن فيما قالوه من فوائد السياحة وكونها مستحسنة للمسلمين وجاهة، فإن في الاستدلال على ذلك من الكلمة في مقامها تكلفاً. ولا سيما أنها تصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة إذا ما قاتلوا في سبيله بأوصاف تدخل في نطاق عبادة الله والإنابة إليه. ولم تكن السياحة بمعناها هذا قد تحققت في المسلمين المخاطبين الأولين في الآية. والله تعالى أعلم)[1].

المثال الثاني:

قال القاسمي – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] يدل قوله تعالى: (وابتغوا من فضل الله) على عدم مشروعيته تعطيل يوم الجمعة، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يومي السبت والأحد، وردّ على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل. والأصل

(١) التفسير الحديث لدروزة(٩/٥٤٢).

(٢) سورة الجمعة الآية: ١٠

أن كل ما لم ينص عليه الكتاب الحكيم، ولا الهدي النبويّ، من خبر قويم، فهو تشريع ما لم يأذن به الله. وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا، فما بالنا نستجرها إلينا بالأسباب الضعيفة)[١].

ولا شك أن الآية لا تحتمل هذا المعنى الذي ذهب إليه، ولذا رد دروزة هذا التفسير فقال: (ولقد رأينا المفسر القاسمي يقول إن جملة: (وابتغوا من فضل اللّه) تدل على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة الذي فيه تشبيه بأهل الكتاب. ولسنا نرى هذا محلّه. فالآيات انطوت على تقرير كون الممنوع هو البيع والشراء وقت الصلاة ثم إباحتهما بعدها. والإباحة لا تعني الإيجاب)[٢].

المثال الثالث:

ومن الأمثلة التي تعقب فيها على المفسرين قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ...﴾[٣] فقد قال: (ومما رواه المفسرون عن أهل التأويل أيضا أن الصفات جميعها في صفاتهم المذكورة في التوراة والإنجيل. وما رووه أيضا أن جملة (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ...) إلى آخر الجملة هي مستأنفة أو تمثيل ثان لهم. وأن الزرع فيها يعني محمداً ﷺ وشطأه هو أبو بكر وآزره هو عمر

(١) محاسن التأويل للقاسمي(٩/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) التفسير الحديث لدروزة (٧/ ٣٤٠).

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٩

واستغلظ هو عثمان واستوى على سوقه هو علي ﷺ . ويتبادر لنا أن في هذه الأقوال تكلفاً)[١].

وما قاله – رحمه الله – هو عين الصواب إذ ليس في الآية ما يدل على هذا التفسير المتكلف، فالمعروف عند أهل التفسير أن معنى قوله تعالى: (كزرعٍ أخرَجَ شَطْأَهُ...) أي (أن صفة المؤمنين في الإنجيل، أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه، كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا في ذلك)[٢].

بهذا المثال نأتي إلى تمام الكلام على أهم التفاسير المعاصرة التي عنت بنقد التكلف في التفسير، على أن يكون الحديث في المسألة التالية عن أهم المؤلفات المعاصرة التي عنيت بنقد التكلف في التفسير وبالله التوفيق.

(١) نفس المصدر(٨/٦١٧).

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لشيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي(١٣/ ٢٨٨).

المسألة الثانية: أهم المؤلفات التي عنيت بنقد التكلف في التفسير.

إن دفاع الأمة عن قرآنها أمرٌ لم يتولاه قوم دون آخرين، بل إن الأمة بأجمعها تمثل سياجاً وحصناً منيعاً حفاظاً على المعنى القرآني أن يصرفه شخص حسب إلى ما تميل إليه نفسه، ولهذا لم يكن المفسرون هم الشريحة الوحيدة التي تولت نقد التكلف في التفسير وإنما وجد كتاب ومؤلفون كانت لهم كلمات قوية في نقد التكلف في التفسير، وسنعرض للحديث عن بعضها في هذه الصفحات:

أولاً: كتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي – رحمه الله – فهو – بحق – أكبر موسوعة علمية تُعنى بمناهج المفسرين منذ صدر الإسلام وحتى العصر الحديث وهذا ما لم يأت عليه أحد من قبل بهذا التسلسل – حسب علمي –.

وإن كتاباً بهذه المثابة حري به أن يقف أثناء حديثه عن المفسرين، على نقد التكلفات التي يقعون فيها، وقد كان ذلك بالفعل !! بل إن هذه القضية من أهم القضايا التي قصدها عندما وضع هذه الدراسة ! وأقوى دليل على ذلك أنه تعرض لذكرها أثناء تقديمه للكتاب، ومن المعلوم لدى الباحثين أن مقدمة الكاتب هي في الأصل خلاصة للكتاب، وقد جاء في تقديمه للكتاب (وكان من بين المسلمين مَن أهمل هداية القرآن، وركب رأسه فى طريق الغواية، فَلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذي سلكه سلفه الصالح في فهم القرآن الكريم والأخذ به، فأخذ يتأوَّل القرآن على غير تأويله، وسلك فى شرح نصوصه طريقاً ملتوية، فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول)[(١)].

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(١/٨).

وحين تحدث عن أهم مزايا التفسير في عصر الرواية ذكر أن أهم مزية هي بُعد السلف عن التكلف في تفسير الآيات والاكتفاء بالمعنى الظاهر[١].

وهكذا سار على هذا المنهج في دراسته، فلا يمرّ بمفسر ظهر منه هذا الخُلق إلا تناوله بالنقد[٢] المتجرد، بعبارة يعلوها الأدب ووقار الإنصاف، بعيداً عن التجريح والازدراء، وهذا عزيز في هذا الزمن.

ولما وصل في دراسته إلى العصر الحديث وجدناه لا يزال يكرر هذه الكلمة (التكلف) في سياق النقد فيقول: (أما في عصرنا الحاضر، فقد غلب اللون الأدبي الاجتماعي على التفسير، ووُجِدت بعض محاولات علمية، فى كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير)[٣].

وعن أصحاب التفسير العلمي يقول: (وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف)[٤].

ومن أمثلة نقده للمعاصرين ما قاله عن صاحب كتاب (القرآن والمفسرون)[٥] عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[٦] حيث قال:

---

(١) نفس المصدر(١/٦٧).

(٢) ينظر ما قاله عن الزمخشري وتفسيره في نفس المصدر (١/٢٨٧).

(٣) نفس المصدرالسابق(١/١٠١).

(٤) نفس المصدر(٢/٣٣٣).

(٥) لم يشر المؤلف إلى صاحب هذا الكتاب، وقد بحثت عن هذا العنوان فلم أجده، وأظن أن المؤلف يقصد كتاب (القرآن والكتاب)، لمحمد شحرور فأخطأ التسمية. والله أعلم.

(٦) سورة ص من الآية: ٤١-٤٤.

(تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحاً يخالف ما ذهب إليه المفسِّرون جميعاً، مدَّعياً أن ما ذهب إليه هو الذي يساير كل ما ورد من آيات القصص في القرآن، ومؤكداً أنه هو الذي يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال: يجب أن ننظر في الآية نظرة أُخرى - يعني خلاف ما عليه المفسرون- تساير بها نظائرها من آيات القصص، ونحن إذا التفتنا إلى ما في هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عَزَى النُصْب والعذاب للشيطان فقال: (مسني الشيطان بنصب وعذاب) كان ذلك مانعاً كل المنع من أن يُراد بالنُصْب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسِّرون.. إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه، ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلى الشر، وعن العزم في سبيل الغاية إلى التردد والهزيمة، وإنه ما من نبي ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب.. مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين، وصد الشيطان لهم عن سبيل الله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ... ﴾[1] الآية، وما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذي كان يبلغ أحياناً حد الإهلاك للنفس إلا لبطء في سير الدعوة إلى الله تعالى، انظر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ إِنَّ .. ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[3]، ولمّا كانت الشكوى تُشعر بوهن في العزيمة، وضعف في الثقة، وعدم القوة في السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن

(١) سورة الحج الآية: ٥٢

(٢) سورة النحل الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الكهف الآية: ٦.

قيل له: (اركض برجلك) فالمراد الركض هنا، عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلى الغاية، فهي كناية من أعذب الكنايات وأروعها، وهي من وادي شمر عن ساعد الجد. شمّر عن ساقيك - غير أنها أوفر منها صياغة وترفعاً. إذ من المعروف المشاهَد أن السائر إلى جهة بغير تردد، بل بقوة وعزيمة، ترى لرجليه ضرباً، وتسمع لقدميه على الأرض وقعاً. ولّما كان تردد المرء في غايته، ووهن عزيمته إليها. وضعف ثقته بها، صدأً يغشى الأرواح، ومرضاً يتعب النفوس ويضايق الصدور، كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلاً للروح من صدئها، وشفاء للنفس من مرضها، ونفعاً لغلة الصدور، لذلك قال الله لرسوله أيوب: (هذا مُغتسل بارد وشراب)، والآية كما ترى ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركض المفهوم من قوله: (اركض) المكنى به عن توثيق العزم، والأخذ بالحزم، كما هو مقتضى النظم الكريم، الجاري لقواعد اللُّغة، التي تأبى أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين، كما يقتضيه تفسير المفسرين، إذ ليس في النظم ما يدل عليهما بأي وجه من وجوه الدلالة. ولما كان أيوب - عليه السلام - باعتباره رسولاً لا بد أن يأتمر في إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بيّن الله ثمرة جهاده وصبره، ومضاء عزمه، فقال: (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم) أي هدينا له أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد، بل هبة الهداية والإرشاد، بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذُرِّية والولد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾[1]، إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدى الله بهم، لا أن يُولَد لهم. ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيى

(١) سورة مريم الآية: ٥٣.

لزكريا، وإسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين؛ الأول: أنه قد وُلِد لإبراهيم ولزكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط.

والثاني: أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادى. فموضع المنة في هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين). [ثم ختم تفسيره هذا بقوله:] (هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استناداً إلى ما جرى عليه قصص القرآن، وتحامياً لما يترتب على ما فسّر به المفسِّرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام، باعتباره نبياً رسولاً، ومن منافاة ذلك لحكمته السامية، وتفادياً من أن يُحدِّثنا القرآن عن أمر عادي، وهو أن شخصاً مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه.. ذلك الحديث الذي لا يتحدث به عظيم من الناس فضلاً عن الله تعالى، ولا يُحَدِّث به عن رجل عادى فضلاً عن أيوب الرسول الكريم)[١].

قال الدكتور الذهبي منتقداً هذا التكلف: (هذا هو التفسير الصحيح في نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد في الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره الذي عُرِف منذ عهد الصحابة والتابعين، وأي شيء يقف في سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول؟)[٢].

ثانياً: كتاب (القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته) لأحمد محمد جمال، وهو

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (٢/٣٥٥). نقلاً عن مجلة الإيمان العدد الثالث من السنة الثانية سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

كتاب رقمته يد صانعه ليكون خصيصاً في نقد التكلف في التفسير، وقد أفصح بهذا هو عن نفسه فقال في مقدمته: (أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه إياي للاهتمام بدراسة القرآن الكريم، وتتبع ما يكتب عنه وحوله من أبحاث دراسات، والتعقيب على المفهومات الخاطئة لبعض آياته المتضمنة أحكاماً أو أخباراً أو قصصاً أو اعتقاداً أو أخلاقاً.

وهذا هو الجزء الثالث من كتابي (القرآن: كتاب أحكمت آياته) وقد سبق أن صدر الجزء الأول سنة ١٤٠٢هـ، وصدر الجزء الثاني سنة١٤٠٤هـ، وهما يتضمنان الموضوع نفسه، وهو كون القرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، أي أن القرآن الكريم ميسر للفهم المستقيم والتدبر الأمين، دون أن نذهب بعيداً نحو التأويل الباطل، وافتعال المفهومات الخاطئة، وخاصة أن القرآن نفسه يفسر بعضه بعضاً، فما نجده مجملا في بعض آياته نجده مفصلاً في آيات أخرى)[١].

وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق فعبارته أوضح من الشمس في رابعة النهار!! وغاية ما نريد قوله في هذا المقام أنه عبر عن التكلف في التفسير بقوله: (التأويل الباطل، وافتعال المفهومات الخاطئة)، ولا مشاحة في المصطلحات.

ومن أمثلة نقده للتكلف في التفسير ما قاله عن الأستاذ محمد حسن عواد الذي تكلف تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢] قال العواد: أي

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته لأحمد محمد جمال(ص:٩).

(٢) سورة الذاريات الآية:٢١.

انظروا في داخل أنفسكم وفتشوا عما فيها من ضعف أو عيب أو انحراف. فرد أحمد محمد جمال هذا وقال: بأنه (أضاف إلى تفسير تلك الآية بغير معناها وبعيداً عن موضوعها، دون اعتباراً لسياق الآيات قبلها وبعدها [ثم] أضاف قوله: إنه يفهم اللغة العربية كما كان يفهمها الطبري وابن كثير والزمخشري وغيرهم من مفسري القرآن الكريم ومن حقه إذن أن يقول برأيه في معاني الآيات كما يفهمها!

لقد ظن أن آيات القرآن كالنصوص الأدبية من شعر ونثر، قابلة للنقد واختلاف الفهم، والقول فيها بمجرد القدرة على معرفة اللغة العربية وحدها ونسي أن لتفسير القرآن قواعد وأصولاً وأدوات لابد من امتلاكهم وامساكها عند الإقدام على محاولة التفسير.

ونسي أنه مع فهم اللغة العربية لابد من معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ،.. وما تحدث به الرسول ﷺ عند نزول هذه الآية أو تلك كتفسير أو توضيح، وما قاله الصحابة من آراء في تفسير بعض الآيات التي يجمعها موضوع واحد، أو معنى مشترك، وملاحظة أن هناك آيات يفسر بعضها بعضاً كما أسلفنا.

ونعود للآية القرآنية التي حملها صاحبنا نظرية النقد الذاتي فنجدها في المقطع الثاني من سورة الذاريات، ونجد المقطع الأول من السورة يبدأ بالقسم بالرياح الذارية، والسحاب الممطر و..و..و.. ثم يبدأ المقطع الثاني بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[(١)] وتتلو هذه الآية موضوع البحث ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٠.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ فهما مرتبطتان متصلتان لفظاً ومعنى وموضوعاً؛ وموضوع الآيتين وما بعدهما هو دعوة القرآن للناس جميعاً وبخاصة المشركين المكذبين المنكرين للبعث والجزاء.. إلى تأمل آيات الله في الأرض من جبال وشجر و.. و.. و.. وآيات أخرى في أنفسهم من أسماع وأبصار وأفئدة، وأيد وأرجل، وأجهزة هضمية وعصبية داخل أجسامهم، يأكلون بها ويشربون ويتحركون... فأين نظرية النقد الذاتي في هذه الآية.. وفي سياق الآيات قبلها وبعدها؟!

إن اللغة العربية وحدها لا تكفي لفهم القرآن وتفسيره، بل لا بد معها - كما أسلفنا - من مؤهلات كثيرة لمن يحاول فهم القرآن، وتفسير آياته البليغات..)[(١)].

وهكذا رأينا أحمد محمد جمال يتعقب أصحاب التكلف في التفسير.

ثالثاً: كتاب (شطحات مصطفى محمود)، لعبد المتعال الجبري، وهو وضعة صاحبه خصيصاً لنقد تكلفات مصطفى محمود الذي سبق وأن عرفنا أنه من أشهر المؤلفين - إن لم يكن أشهرهم - الذين أكثروا من التكلف في التفسير. ومما جاء في مقدمته: (لا ينبغي نشر هذه الأفكار، دفعاً بعدم اختصاص الكاتب، وعدم توفر الشروط اللازمة لخوض هذه الدراسة لديه، فللتخصص في أي فن مزية، وهو ضرورة كبرى لا يجادل فيها إلا الجاهلون الخبثاء الطوية)[(٢)] ويضيف قائلاً: (والحق أن المفسر لكتاب الله، أو القائل شيئاً في أمر الدين سواء كان شفهياً أو تحريرياً، وبخاصة ما يذاع منه - أي ما ينشر - حين يكون ما يقوله

(١) ينظر: المصدر السابق(ص: ١٠٨-١١٠).

(٢) شطحات مصطفى محمود لعبد المتعال الجبري(ص: ٦).

خطأ.. إنما يحمل وزر خطئه ووزر من ضل به، والثواب الذي وُعِد به من اجتهد فأخطأ، أخشى أن يكون مقصوراً على الخطأ المقصور على المخطئ لا إلى الخطأ الذي يخالف ما عليه إجماع الذين يعتد بإجماعهم)[١].

ومن أمثلة نقده للتكلف في لتفسير ما قاله رداً على مصطفى محمود في تفسير الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، قال مصطفى محمود: (وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت الذين تلازما في قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارئ الموت.. و لم تكن الكائنات قبل ذلك تعرف الموت بل تتجدد وتعود إلى الشباب بالانقسام الذاتي.

كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم، وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين.. وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة النكاح و التلاقح الجنسي فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة.

وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هي إيذان ببدء الموت والطرد من جنة الخالدين، فكذب على آدم وسول له أنها شجرة الخلود بعينها وأغراه أن يخالط زوجه بالجسد.

ومما يدل على أنها رمز للجنس ما يروي القرآن عن آدم وحواء بعد تذوق

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

الشجرة وكيف بدت لهما سوءاهما (والسوءة هي العورة) وكيف طفقا يغطيان بأوراق الشجر خجلاً.. والخجل من الأعضاء التناسلية لا يأتي إلا بعد ذوق اللذة منها ولهذا لا يخجل الطفل من أعضاءه التناسلية ولا يغطيها على حين يخجل البالغ حتى من ذكر اسمها.. ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق على أنهما جمع فيقول: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[(١)] على حين كان الخطاب في الآيات نفسها قبل الخطيئة إلى مثنى ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[(٢)] ومعنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر، وما زالت اللذة الجنسية إلى الآن رمزاً للتهابط الدنيوي والبهيمية وما زالت مناط الإغراء والسقوط)[(٣)] هذا هو التفسير العصري الذي كتبه مصطفى محمود، ولا أظنك إلا قد حكمت عليه بالتكلف قبل أن أنقل رد عبد المتعال عليه!

قال عبد المتعال رداً على هذا التكلف: (توهم الكاتب أن الأكل من الشجرة هو العملية الجنسية حيث يكشف كل من الرجل والمرأة عن سوءتهما فلما تم ذلك خجلا من نظرها فسترا العورة.. وهذا الفهم خاطئ لأن القرآن جعل كشف العورة أمراً تالياً ومترتباً على الأكل من الشجرة، يعني أن الأكل تم أولاً ثم أعقبه انكشاف العورة كما هو نص الآية ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[(٤)] والعجيب أن الكاتب يقرر أنهما

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩.

(٣) ينظر: القرآن محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود(ص: ٦٦-٦٧).

(٤) سورة الأعراف الآية: ٢٢.

خجلا فسترا العورة بورق الشجرة، فيجعل الشجرة تعبيراً مجازياً عن شيء معنوي وهو إشباع غريزة الجنس، ويجعل ورق الشيء المعنوي ورقاً حسياً حقيقياً يتلهفان بسرعة إليه ليسترا به، وهذا منتهى الاضطراب في الفهم.

ويذكر الكاتب أن الخجل من العورة لا يكون إلا بعد الإشباع الجنسي.. ومن ثم قال إن الأطفال الذين لا يعرفون عن الإشباع الجنسي لا يخجلون من كشفها.. وهو قول غير علمي، فكم من الرجال يفخرون بعد عملياهم الجنسية بذلك بين أصحابهم، وهكذا تتباهى بعض النساء، وإن كنا نصم هؤلاء بقلة الحياء بحكم التقاليد التي أرساها الإسلام حين نهى عن ذلك[1].

أما استشهاد الكاتب بقوله ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾ وزعمه أن الجمع لآدم وحواء والحمل فهو خطأ فاحش)[2] ثم شرع في تفنيد هذا الخطأ يطول المقام بذكره[3].

وخلاصة القول ونحن نأتي على ختام هذا المبحث أن نقول: إن تصنيفنا لتفسير ما أنه كثُر فيه التكلف في التفسير لا يعني أنه انعدم فيه التفسير الصحيح، وبالمقابل كذلك لا يعني أن كون تفسير من التفاسير قد عني بنقد التكلف في

(١) وذلك في حديث (ألا هل عست امرأة أن تخبر القوم بما يكون من زوجها إذا خلا بها ؟ ألا هل عسى رجل أن يخبر القوم بما يكون منه إذا خلا بأهله ؟ فقامت منهن امرأة سفعاء الخدين فقالت: والله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن قال: فلا تفعلوا ذلك أفلا أنبئكم ما مثل ذلك ؟ مثل شيطان أتى شيطانة بالطريق فوقع بها والناس ينظرون)، وهو حديث صححه الألباني. ينظر: السلسلة الصحيحة، للألباني(٨/ ١٦٠)، حديث رقم: ٣١٥٣.

(٢) ينظر: شطحات مصطفى محمود للجبري(ص: ١١٣- ١١٤).

(٣) ينظر: نفس المصدر من(ص: ١١٤-١٢٨).

التفسير أنه خلي هو منه تماماً، كلا.. فليس هذا هو القصد، بل من الظلم أن نعتقد ذلك، فَكِلا القسمين فيهما حق وصواب، وغاية الأمر أن القسم الأول برز فيه التكلف حتى كان ذلك سمة بارزة فيه، أو كاد يكون كذلك، وأن القسم الثاني برز فيه نقد التكلف في التفسير حتى كان ذلك سمة بارزة فيه، أو كاد يكون كذلك. وهذه هي النظرة المتزنة التي ينشرح لها صدر المنصف.

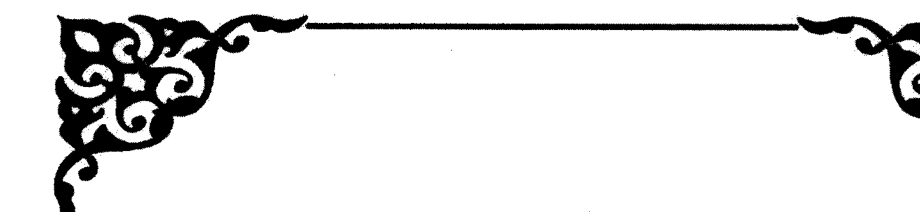
وبهذه النظرة يصل الباحث إلى تمام ما قصد تبيينه في هذا المبحث بعد أن ضرب بقلمه في أودية الكتب، وجاهد بفهمه ليصيب كبد الحقيقة...

فاللهم اجعل ما كتبناه سداداً، وما استنبطناه صواباً، واغفر لنا إن زلّ بنا الفهم، أو قصُر بنا النظر، واجمعنا بأهل التفسير في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وبالجملة هذا هو الفصل الأول الذي تعرفنا من خلاله على التعريف بالتكلف في التفسير منذ صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، ويبقى السؤال الذي يحتاج إلى الإجابة:

ما هي الأسباب التي دفعت هذا المفسر أو ذاك أن يتكلف مثل هذا التفسير؟

هذا ما سنتعرف عليه في الفصل الثاني إن شاء الله.



الفصل الثاني: أسباب التكلف في التفسير

ويشتمل على مبحثين اثنين:

المبحث الأول: الأسباب المشتركة التي وافق فيها المعاصرون المتقدمين.

المبحث الثاني: أسباب التكلف في التفسير عند المعاصرين.








المبحث الأول

الأسباب المشتركة التي وافق فيها المعاصرون المتقدمين.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الانحراف العقدي.

المطلب الثاني: الخوض فيما سكت عنه الشرع.

المطلب الثالث: التعصب المذهبي والفقهي.

المطلب الرابع: إغفال التفسير بالمأثور.

المطلب الخامس: التوسع في التفسير الإشاري.




المبحث الأول: الأسباب المشتركة التي وافق فيها المعاصرون المتقدمين.

إن المسلمات القطعية التي لا يختلف عليها اثنان أن هناك قواسم مشتركة بين الماضي والحاضر، والقديم والجديد، فما يُمارسه الجديد ما هو إلا امتداد لما ابتكره القديم، إما مضموناً وشكلاً، وإما مضموناً دون الشكل، وهذه قاعدة مطردة في كل العوالم، وعلى مختلف الأجناس.

وعلى هذه القاعدة سار المفسرون - كما قد عرفت - فكما أن في الماضي قد وُجد بعض المفسرين الذين تكلفوا تفسير بعض الآيات، فكذلك الأمر في هذا العصر، ولا شك أن من الأسباب ما هي مشتركة، وهو ما نريد بيانه في السطور الآتية.

المطلب الأول: الانحراف العقدي.

الانحراف مصدر مأخوذ من الفعل (انحرف) والذي يعني في اللغة الميل والعدول عن الشيء؛ جاء في معجم مقاييس اللغة: (الحاء الراء والفاء ثلاثة أصول: حدُّ الشيء، والعُدول، وتقدير الشَّيء)[1]، فـ(يقال انْحَرَفَ عنه و تَحَرَّفَ و احْرَوْرَفَ أي مال وعدل)[2]، والعقدي مأخوذ من الفعل(اعتقد) أي: اشتد وصلب يُقال اعتقد الإخاء بينهما صدق وثبت، واعتقد الأمر صدقه وعقد

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس(٢/٤٢).

(٢) مختار الصحاح للرازي(ص: ١٦٧).

عليه قلبه وضميره[١].

المقصود بالانحراف العقدي: هو اعتقاد ما خالف معتقد السلف من الصحابة رضوان الله عليهم ومن سار على نهجهم.

إن المؤسف جداً أن عقائد المسلمين قد اختلفت في مجال العقيدة اختلافاً كثيراً، بالرغم أن ربنا واحد، ونبينا واحد، وقرآننا واحد، فالربّ قد اختلف في صفاته، بين نفي وإثبات، والقرآن قد اختلف في ما هيّته أهو مخلوق أم لا ؟! وهكذا..

وكل ذلك قد انعكس سلباً على تفسير نصوص الكتاب، فكل مفسر ينطلق مما يعتقد!!!(وهذا الاتجاه التفسيري من أخطر مناهج التفسير وأسوأها، حيث يجعل المفسر أو الكاتب في الدراسات القرآنية ينظر في آيات القرآن وفي ذهنه معتقدات مسبقة خالية من الدليل... يريد أن يبحث عن أدلتها من القرآن.

لا يريد أن يجعل تلك المعتقدات و.. و.. إلخ. تابعة لنصوص القرآن، بل يتعسف في جعل النصوص القرآنية تابعة لها، ويتكلف في حملها على ما لا تحتمل انتصاراً لمذهبه وإرغاماً لخصومه، وتأييداً لهواه وتفنيداً لمخالفته) [٢].

(فليست بدعة الخوارج، والرفض، والتجهم، والتشيع، والتصوف، والقدر، إلا ولأصحابها تكلفات وتمحلات لحمل النصوص على بدعتهم ومصطلحاتهم الزائفة) [٣].

وأؤكد أن هذه القضية لسيت بحاجة لذكر الأمثلة لها وتوضيحها، فهي أوضح لكل من له أدنى معرفة بعلم الشريعة، فضلاً عن أهل الاختصاص، ولو لا

(١) ينظر: المعجم الوسيط ــ لمجموعة مؤلفين(٢/٦١٤)، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

(٢) أسباب الخطأ في التفسير لطاهر يعقوب(٢/٦٢١).

(٣) نفس المصدر(٢/٩٠٧).

أن منهجية البحث تفرض علي أن أذكر مثالاً لَما فعلت:

فإذا كان الزمخشري قديماً قد تكلف تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (١) بناءاً على عقيدة المعتزلة (٢) فإن سلطان محمد بن حيدر الجنابذي(٣) - من مفسري الشيعة المعاصرين - قد تكلف تفسير هذه الآية بنفس ما تكلف به الزمخشري، وذلك في تفسيره المسمى (بيان السعادة في مقامات العبادة) فقال: (أي إلى ربها المضاف لظهور الولاية وصاحبها في ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أي إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربها. روى عن أمير المؤمنين في حديث: ينتهي أولياء الله بعد ما يُفرغ من الحساب إلى نهر يسمى (الحيوان) فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقاً، فيذهب كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنَّة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم قال: فذلك قوله تعالى: (إلى ربها ناظرة)، وإنما بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. وفى الخبر: والناظرة في بعض اللُّغة هي المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: (فناظِرة بِم يرجِع المرسلون) أي منتظرة) (٤).

وهذا التفسير المتكلف لم يقل به سلف ولا خلف فالذي اعتقده الصحابة الكرام أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وكيف لا يعتقدون ذلك وقد أخبرهم به الصادق المصدوق، فعن جرير قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة،

---

(١) سورة القيامة الآية: ٢٣.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري(٤/٦٦٢).

(٣) هو سلطان بن محمد بن حيدر الجنابذي الخراسانى أحد متطرفى الإمامية الإثنا عشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى. هذا غاية ما عرف عنه حتى قال الدكتور الذهبي (لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا)، كما في التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/١٣٧).

(٤) المصدر السابق (٢/١٦٠).

يعني البدر – فقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) [١].

ولما كان هذا هو المعتقد الصحيح لم يختلف المفسرون في معنى هذه الآية فقد اتفقوا على أن معنى (إلى ربها ناظرة) أي إلى خالقها ومالك أمرها (ناظرة)، أي: تنظر إليه) [٢]، قال ابن كثير – رحمه الله-: (وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام) [٣].

وما دام أن هذا التفسير مجمع عليه، وهو الظاهر من الآية، والمتفق مع نصوص الشريعة، فلا معنى للقول بخلافه إلا التكلف، ولا سيما إذا كان القول الذي تُكُلِفَ تفسير الآية به قد قال عنه القرطبي: إنه (ضعيف جداً، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار) [٤].

ألا إن من العجيب أن يعلم المعاصرون مبلغ هذا القول من الضعف، ثم يحاولون حمل الآية عليه، والله المستعان.

---

(١) صحيح البخاري(١/٢٠٣)، كتاب: بدء الوحي، باب: فضل صلاة العصر، حديث رقم: ٥٢٩. وصحيح مسلم(٢/١١٣)، كتاب: المساجد، باب: فَضْلِ صلاتي الصبح والعصر، حديث رقم: ١٤٦٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني(٥/٤٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٨/٢٨٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١٩/١٠٨).

المطلب الثاني: الخوض فيما سكت عنه الشرع.

سبق وأن عرفنا موقف الشريعة من المتكلفين، ولعل من المناسب هنا أن نذكر ما له صلة بهذا المطلب، فقد روي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إِنَّ اللَّه فرض فرائض فلا تُضيِّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن كثير من غير نسيان فلا تتكلفوها رحمة من الله فاقبلوها)[1].

وفي الحديث دلالة صريحة على وجود أشياء مسكوت عنها في الشريعة المطهرة، سواء في مصدرها الأول (القرآن الكريم)، أو مصدرها الثاني (السنة المطهرة)، كما أن فيه نهي عن تكلف معرفة ذلك.

واعلم أن ما سكت عنه القرآن الكريم لا يخلو أن يندرج تحت أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ما يتعلق بالغيبيات.

القسم الثاني: ما يتعلق بالمتشابهات.

---

(١) المعجم الصغير، لسليمان بن أحمد الطبراني(٢/ ٢٥٠)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. والمعجم الأوسط له أيضاً (٨/ ٣٨١)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين — القاهرة. طبعة سنة: ١٤١٥هـ. والحديث مروي من طرق وقد قال عنه النووي: أنه حسن كما في رياض الصالحين ولفظه (إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) من حديث أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر ﷺ، وقال الألباني في تخريجه لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية: حسن لغيره. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز(ص: ٣٣٨)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي — بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ، وضعفه في سائر كتبه.

القسم الثالث: ما يتعلق بقصص الأنبياء، وهاك الحديث مفصلاً عن هذه الأقسام:

القسم الأول: ما يتعلق بالغيبيات:

الغَيْبُ: مصدر للفعل غاب المنقلب ألفه عن ياء ومعناه الاستتار عن العين، فيقال: غاب عني كذا؛ واستعمل في كلّ غَائِبٍ عن الحاسّة، وكلما غاب عن علم الإنسان فهو غيب، جاء في معجم مقاييس اللغة (الغين والياء والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تستُّر الشيء عن العُيون)[١] زاد في اللسان (سواء كان مُحَصَّلاً في القلوب أَو غير محصل)[٢]، ومعنى محصلاً في القلوب: أي أننا اعتقدنا وجوده وإن لم نره، والمقصود به هنا ما غاب عنا من أمور الغيب و لم نكلف البحث عنها كصفات الله والجنة والنار والميزان والملائكة والروح وما إلى ذلك.

ومع توجيه الله لنا بعدم الخوض في هذه القضايا، ومع تسليم العقل على عدم إدراكها إلا أن بعض المفسرين تكلفوا تفسيرها، وحاولوا تبريرها، فمن ذلك خوضهم في معنى الروح في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٣] ولعل هذه المسألة من أشهر إن لم تكن أشهر الغيبيات التي تكلف المفسرون تفسيرها، قديماً وحديثاً[٤] وتالله إن

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (٤٠٣/٤)، دار الفكر. طبعة سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب لابن منظور(٦٥٤/١)، وتاج العروس للزَبيدي(٤٩٧/٣).

(٣) سورة الإسراء الآية: ٨٥. وقد اختُلف في المراد بالروح، والراجح أنها ما يحيا به الكائن.

(٤) قال الشوكاني: وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة =

هذا لشيء عُجاب !!!.

ولكن العجب ينتسخ بمعرفة السبب، والسبب هو تأثر الخائضين في ذلك بأهل الكلام[١] و الفلاسفة[٢] الذين يحاولون معرفة الأشياء على حقيقتها، فهم الذين تَخَرَّصُوا أقاويلاً ألقاها عليهم التعمق والتكلف المذموم، ولذا حذر العلماء منهم:

قال الخطابي[٣]: (فلم ينته أهل التعمق من المتكلمين حتى تكلموا في الروح و تكلموا في القدر والتعديل والتجويز وتكلموا في النفس والعقل وما

قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع. ينظر: فتح القدير للشوكاني(٣/٣٠٢)، و حسب علمي لا توجد مسألة بلغت الأقوال فيها مثل هذه.

(١) علم الكلام: هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة. كما في المواقف للإيجي (١/٣١)، وسمي المشتغلين به أهل الكلام.

(٢) الفلاسفة: جمع تكسير مشتق من الفلسفة المشتق من اليونانية و أصله (فيلا- صوفيا)، و معناه محبة الحكمة كما في المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا(٢/١٦١)، بدون ناشر.

(٣) هو الإمام العلامة المفيد المحدث الرحّال أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، صاحب التصانيف كان ثقة متثبتاً من أوعية العلم أخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد والفقه عن القفال وابن أبي هريرة. وصنف شرح البخاري ومعالم السنن وغريب الحديث وشرح الأسماء الحسنى والعزلة وغير ذلك. وله شعر جيد. مات ببست في ربيع الآخر سنة ٣٨٨هـ. راجع ترجمته في كل من: وفيات الأعيان لابن خلكان(١/٤٩)، والسير للذهبي(١٧/٢٣)، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي(٢/٢٨٢)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود.عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروزأبادي(ص٢٠)، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت. الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.

بينهما وتكلموا في أشياء لا تعنيهم ولا تجدي عليهم شيئا كالكلام في الجزء والطفرة وما أشبه ذلك من الأمور التي لا طائل لها ولا فائدة فيها فزجر العلماء عن الخوض في هذه الأمور وخافوا فتنتها والخروج منها إلى ما يفضي بالمرء إلى أنواع من المكروه: من الأقوال الشنعة والمذاهب الفاسدة ورأوا أن يقتصروا من الكلام على ما انتهى إليه بيان الدين وتوقيف الشريعة)(١).

وغاية مقصود المتكلمين من وراء تطويلهم إيضاح المسائل؛ وما علموا أن الله قد كفانا ذلك بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال الإمام ابن القيم(٢) - رحمه الله -: (وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد)(٣).

واعلم أن ما ورد في ذم المتكلمين، هو وارد كذلك في ذم المـــتكلفين، لأن

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية(٧/٣٢٩)، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية - الرياض. طبعة سنة: ١٣٩١هـــ.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي المجتهد المطلق المفسر الشهير بابن قيم الجوزية ولد سنة ٦٩١هـــ لازم الشيخ تقي الدين [ابن تيمية] وأخذ عنه وتفنن في علوم الإسلام كان عارفاً بالتفسير وأصول الدين وبالحديث ومعانيه والفقه ودقائق الاستنباط منه والعربية وكلام أهل التصوف وإشاراتهم بعلم الكلام وغير ذلك وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم توفي سنة ٧٥١هـــ. ينظر: شذرات الذهب للعكري(٦/١٦٨)، والأعلام للزركلي(٦/ ٥٦)

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية(١/٤٤)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٥هـــ- ١٩٧٥م.

المتكلمين إخوة المتكلفين، لم يختلفوا إلا في الفاء والميم على أن بينهما - أي الحرفان - اشتراك في اللف والدوران عند كتابتهما ! فما يقال عن هؤلاء يقال عن هؤلاء.

وما أحسن ما حكاه ابن القيم- رحمه الله - عن الفخر الرازي -رحمه الله - في آخر حياته، وهو ممن خاض في هذه المسألة[١] على طريقة المتكلمين (واعلم أن بعد التوغل في هذه المضائق والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق - يعني الغيبية - رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب على طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم وهو ترك التعمق)[٢]. وكلام العلماء في هذه القضية كثير وطويل فلا نطيل.

نعود ونقول: (إن الإيمان بالغيب والتسليم بمدلول بالنصوص الواردة فيه من أهم الأمور الضرورية في العقيدة الإسلامية فيجب الاكتفاء بدلالات هذه النصوص كما جاءت والاستغناء بها عن خوض الخائضين وتقولات الناقلين من المفسرين المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين الذين توغلوا وتكلفوا في تفسير الأمور الغيبية وشرحها اعتماداً على الإسرائيليات، أو تعويلاً على مجرد العقل، أو استناداً إلى نظرية من نظريات العلم الحديث)[٣].

ولما كان هذا العصر عصر اكتشاف الحقائق، طمع المعاصرون في الوقوف

(١) ينظر: التفسير الكبير للرازي (٣٠/٢١).

(٢) ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم (٢٧/١٢)، مكتبة ابن تيمية – مصر. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

(٣) أسباب الخطأ في التفسير لطاهر يعقوب(٥٦٦/١).

على حقيقة الروح فتكلفوا ذلك، وتجاهلوا قول الله: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

ولما لم يكن لديهم علم شرعي بحال الروح تخبطوا فيها، ووصلوا إلى حيث انتهى المتكلفون قبلهم، ثم جَرَّهم هذا التكلف إلى ما يسمى بـ(علم تحضير الأرواح)[2].

وأجمل عبارة قرأهًا للمعاصرين في الروح عبارة السيد سابق - رحمه الله - حيث يقول: (أما الروح فإن أمرها كان وما زال مثار لجدل ونقاش بين العلماء والفلاسفة، ولم ينتهوا في شأها إلى رأى حاسم بعد.... فالروح من أمر الله الذي لا يعلمه غيره، ولم يُطلع عليه أحداً، ولم يُعط الإنسان الوسائل التي توصله إلى هذا اللون من العلم والإحاطة به، فعلم الإنسان قليل ومحدود)[3].

وعلى كل حال فأكثر من أطال الكلام عند هذه الآية من المفسرين المعاصرين ثلاثة وهم: جمال الدين القاسمي[4] ومحمد رشيد رضا[5] وطنطاوي

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٢) علم تحضير الأرواح: نوع من أنواع الشعوذة في العصر الحديث، حيث يدّعي من يمارسه أنه يحضر أرواح الموتى، ويخاطبها وما إلى ذلك! وقد اشتد نكير العلماء المعاصرين على هذه الخرافة وممن تناولها الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه (تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية). فارجع إليه إن شئت.

(٣) ينظر: العقائد الإسلامية للسيد سابق (ص: ١٦٢)، دار الفتح للإعلام العربي ـــ القاهرة.

(٤) تكلم عنها من صفحة (٥٠٠-٥١٠)، من المجلد السادس من محاسن التأويل.

(٥) تكلم عنها من صفحة(٢٦٨-٢٧٠) من المجلد الرابع من تفسير المنار.

جوهري[1] – رحمهم الله جميعاً – فعلى سبيل المثال قال محمد رضا بعد أن ذكر اختلاف المتقدمين في الروح: (وإنما كان الفلاسفة هم الَذين بحثوا كعادتهم عن حَقيقَة هذا الأمر، ولا يزالون يبحثون، وقد قالَ- تعالى -: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: إن قلةَ ما عندكم من العلم لا يُمَكِّنُكُم من معرفة حَقيقة الروح. قال كثير من العلماء: إنّ الآية تدل على أنه لا مطمع في معرفة حقيقة الروح، وأقول: إنها لا تدل علَى ذَلك، بل تدل علَى أَنه إِذَا أوتي الناس من العلم أكثر مما أوتي أولَئك السائلون جاز أَن يعرفوها..) ثم قال: (لَم أَرَ مُوَضحًا، أَو مقربًا لمعنى الروح والنفس في الإنسان كالتمثيلِ بالكَهربائية، فالمادي الذي يقول: إنه لا روح إلا هذَا العرض الذي يُسمى الحياة، يُشَبِّهُ الجسد بالبطارية الكهربائية، ويقول: إنها بوضعها الخاص وبما يودع فيها من المَوَاد تَتَوَلَّدُ فِيهَا الكهربائية، فإذا زال شيء من ذلك فُقِدَت، وكذَلك تتولد الحياة فِي البدنِ بِتركيب مزاجه بكيفية خاصة وبزوالها تزول. ويَقول المُعتقد استقلال الأرواح: إن الجسد يشبه المركبة الكهربائية، وشبهها من الآلات التِي تُدار بالكهرباء، تُوجه إلَيها من المعمل المولد لها، فإذا كانت الآلة على وضع خَاص فِي أَجزائها، وأدواتها كانت مستعدة لقبول الكهربائيات التِي تُوَجه إِليها، وأداء وظيفتها فيها، وإن فُقد منها بعض الأَدوات الرئيسية، أو اختلّ وَضعها الخَاص، فارقتها الكهربائية، ولم تعد تعمل بِها.

على أَنهم كانوا يظنُّون أن الكهرباء قوة تعرض للمادة لا وجود لها في ذاتها،

---

(١) تكلم عنها من صفحة(٩٢-١٠٠)، من المجلد الخامس من تفسير الجواهر.

فصاروا مِن عَهدٍ قَرِيبٍ يُرجحون أَنها هِي أَصل الموجودَات كلها أي أنها موجودة بذاتها، وكل المواد الأخرى موجودة بها، ويقرب من هذا قول الروحِيِّينَ: إِنَّ الرُّوح هِي حقيقة الإنسان الثابتة، وإِنَّ قِوام الجسد بِها، فهي الحافظة لوجوده والمنظمة لشؤونه الحيوية، فإذا فارقته انْحَلَّ وعاد إلى بسائطه، وإنما يُقال هذا بِاعتبار الأَسباب، والظواهر، وإلى الله ترجع الأمور. وهذا المذهب الجديد فِي الْكهربائِية قَرِيب من أَهل وحدة الوجود من الصوفية، وربما كَانَ سُلَّمًا موصلا إليه، وسنعود إلى هذا المبحث فنبسط القَول فيه علَى مذاهب أَهل الفلسفة، والعلومِ الطبِيعية لهذا العهد في موضع أَليق به من هذا الموضع إِن شاء الله تَعَالَى..)!![1].

سبحان الله ! أبعد هذا التكلف كله يَعِدُ ببسط القول على مذاهب أهل الفلسفة! ويا ليت شعري ماذا أفادنا المتفلسفون؟! هل أفادونا إلا بكلام مثل (لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فينتقل،.. فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد)[2].

إن هذا التفسير ينطبق عليه أوصاف ابن القيم الثلاثة أعني (التكلف والتطويل والتعقيد) فأما كونه تكلف: فلا يخفاك أنه قد خاض فيما لا سبيل للوقوف على حقيقته، مع مخالفته لتوجيه الخالق، وكفى بمخالفة توجيه الخالق تكلفاً.

وأما كونه تطويل: فلأنه جارى الفلاسفة في طرحة، بل ووعد بالمزيد منه،

(١) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(٤/ ٢٧٠).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان لابن القيم(١/ ٤٤).

وقد عُلِمَ بالبديهة أن الفلاسفة لا يصلون إلى حقائقهم إلا بعد نفس طويل.

وأما كونه تعقيد: فقد ضرب مثالاً بالكهرباء وهي مادة معقدة يصعب فهمُ عملها على الدارسين - بل والمتخصصين أحياناً – كيف تتولد، وما هي حقيقتها، وما إلى ذلك، واختلاف الماديين فيها، كل هذه الأشياء أمور معقدة لا يتيسر فهمها للمثقفين فضلاً عن العاميين !! وفوق هذا وذاك يذكر هذا الكلام ضمن تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ.. ﴾[1] الآية. فهل ترى هذا التفسير تحتمله الآية؟!

يتبين مما سبق أن هذه المسألة الغيبية هي من أشهر المسائل التي تكلف المفسرون تفسيرها بالرغم ما فيها من زجر (الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيته وإيضاح حقيقته)[2]، ولذا كان الخوض فيها من أهم أسباب التكلف قديماً وحديثاً.

القسم الثاني ما يتعلق بالمتشابهات:

المتشابهات جمعٌ مأخوذ من الفعل الثلاثي (شبه)، بضم الشين وفتحه، فبالفتح يدل على تشابه الشيء أي تماثله، وبالضم يدل على الالتباس[3] قال ابن فارس[4] (الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابه الشّيء وتشاكُله لوناً

(١) سورة النساء الآية: ١.

(٢) فتح القدير للشوكاني(٣/٣٠٢).

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ١٦١٠)، بدون ناشر

(٤) هو الإمام العلامة، اللغوي المحدث أبو الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي الشافعي اللغوي، ولد بقزوين سنة ٣٢٩ هـ، وأقام مدة في همذان، =

وَوَصْفاً. يقال شِبْه وشَبَه وشَبيه)[١]، و (الشُّبْهةُ الالتباس و المُشْتَبِهاتُ من الأمور المشكلات) [٢] والمتشابه: اسم فاعل من تشابه أي أشبه بعضه بعضاً.

وفي الاصطلاح: (هو ما خفي بنفس اللفظ ولا يرجى دركه أصلاً كالمقطعات في أوائل السور) [٣] وقيل: (المُتَشابَه: ما لم يُتَلَقَّ معناه) [٤].

وقد جاء في القرآن أن آياته جاءت على قسمين: محكمة ومتشابهة، تجد هذا صريحاً في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [٥] لكن ما هو المقصود بالمتشـــابهات في

ثم انتقل إلى الري، وحدث عن: أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وسليمان ابن يزيد الفامي وغيرهما، وقرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان، له تصانيف كثيرة منها: (معجم مقاييس اللغة و ذم الخطأ في الشعر و جامع التأويل في تفسير القرآن)، توفي في الري سنة ٣٩٥هـ. ينظر: طبقات الفقهاء الشافعية لتقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح(٢/٦٥٧)، تحقيق: محيي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية - بيروت. طبعة سنة: ١٩٩٢م، والسير للذهبي(١٧/ ١٠٣)، والأعلام للزركلي(١/١٩٣). وقد ذكر الإمام الذهبي أنه مالكي المذهب وليس الأمر كما قال وإنما هو شافعي المذهب كان ينصر مذهب مالك - كما أفاد صاحب طبقات الفقهاء الشافعية — فلعله لذلك توهم الإمام الذهبي أنه مالكي المذهب والله أعلم.

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣/ ٢٣٤)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر. طبعة سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) مختار الصحاح للرازي(٣٥٤).

(٣) التعريفات للجرجاني(ص: ٢٥٣).

(٤) النهاية في غريب الأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري(٢/١٠٨٥)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية — بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٥) سورة آل عمران الآية: ٧.

الآية؟!

هذا الذي وقع الخلاف فيه على أقوال كثيرة ذكرها غير واحد من العلماء(١) وحسبنا أن نختار من هذه الأقوال ما رجحه كثير منهم وهو أن المقصود بالمتشابه في الآية (ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور) (٢) وقد ذهب إلى هذا القول: (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود ﷺ وعامر الشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خثيم(٣)، واختاره أبو حاتم بن حبان)(٤). و ذكر الأستاذ أبو منصور البغدادي(٥) أن هذا هو الصحيح، وقال ابن السمعاني(٦) أنه أحسن الأقوال

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر(٨/ ٢١٠)، والإتقان للسيوطي(٢/٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ٢١٠).

(٣) هو الربيع بن خثيم ابن عائذ أبو يزيد الثوري الكوفي، الإمام القدوة العابد، أحد الأعلام، روى عن عبد الله بن مسعود، وأبي أيوب الأنصاري، وعمرو بن ميمون وهو قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن حدث عنه: الشعبي، والنخعي وآخرون. توفي الربيع بن خثيم قبل سنة خمس وستين. ينظر: السير للذهبي(٤/٢٥٨).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي(٢/٥).

(٥) هو سعيد بن محمد بن عمر بن الرزاز، الشافعي البغدادي، مدرس النظامية. ولد سنة ٤٦٢هـ، وتفقه بالغزالي، وأبي سعد المتولي، والكيا الهراسي، وأبي بكر الشاشي، وأسعد الميهني. وسمع من رزق الله التميمي وجماعة، تصدر وأفاد وكان ذا وقار وسمت وحرمة تامة، ولي تدريس النظامية مدة، ثم عزل. وتخرج به الأصحاب. روى عنه: السمعاني، وعبد الخالق بن أسد، وطائفة. مات في ذي الحجة سنة ٥٣٩هـ، وصلى عليه ولده أبو سعد، وعاش سبعاً وسبعين سنة. ينظر: السير للذهبي(٢٠/ ١٦٩)، وطبقات الشافعية للسبكي(٧/٩٣).

(٦) هو محمد بن منصور ابن السمعاني نسبته إلى سمعان (بطن من تميم) المروزي الشافعي. ولد بمرو في في ذي القعدة سنة ٥٣٧هـ، واعتنى به أبوه اعتناءاً كلياً، ورحل به، وأسمعه ما لا يوصف كثرة.

والمختار على طريقه أهل السنة) [١]. و قال السيوطي - رحمه الله- (ومن المتشابه أوائل السور والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى) [٢].

وواضح من هذا القول أن هذا الفريق لا يجوّز الخوض في معنى هذه الحروف، بل يوجب التفويض في معناها إلى الله.

وأما من ذهب إلى أن الحروف المقطعة ليست من المتشابه فقد خاضوا في بيان معناها، ولكنهم – وعلى كثرة جعجعتهم – لم يستطع أحدهم القطع بمعنى ما ذهب إليه، حتى الذين تكلموا فيها من الصحابة والتابعين لم يتفق قولهم فيها، بل لم يتفق قول الواحد منهم في معناها[٣]، ولذا وجدنا من المحققين من يقول: (اعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً أن ذلك هو ما أراده الله

رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم، وأخذوا عنه من كتبه: (الأنساب)، و(تاريخ مرو) يزيد على عشرين جزءاً، و(تذييل تاريخ بغداد). توفي سنة ٥٦٢هـ. ينظر: السير للذهبي(٢٢/١٠٧)، والأعلام للزركلي(٤/٥٥).

(١) فتح الباري لابن حجر(٨/٢١١).

(٢) الإتقان للسيوطي(٢/٢١).

(٣) فمثلاً عبد الله بن عباس – رضي الله عنه- قد روي عنه أكثر من قول في المقطع الواحد من الحروف المقطعة، فمثلا قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ روي عنه أنه قال: هجاء مقطّع، الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد من المصور، وقال أيضاً: كبير هاد أمين عزيز صادق، وقال أيضاً: الكاف الكافي والهاء الهادي والعين العالم والصاد الصادق. وهذا الاضطراب يضعف الثقة في نسبة هذا إلى ابن عباس – رضي الله عنه. ينظر هذه الأقوال في: المصدر السابق(٢/٢٢).

عز وجل فقد غلط أقبح الغلط وركب في فهمه ودعواه أعظم الشـــطط..)[١]، ووجدنا أيضاً من يقول: إن أقوال المفسرين فيها منها(ما هو معقول وقريب ولا عيب فيه إلا عدم الدليل[وكفى به عيباً]، ومنها يفقد الدليل مع البعد والغرابة، والشطط والتكلف)[٢]؛

وعلى كلٍ فالكلام حول هذه المسألة مما تنوء به أسطر هذه الصـــفحات، وحيث قد وُجد من المعاصرين من تناولها بالتفصيل، فحسب الباحث أن يحيـــل القارئ عليه، فإن فيه شفاء العليل[٣].

والذي اتفق العلماء قديماً وحديثاً على أنه تكلف، فهو ما يسمى بحســـاب الجمل واستخراج عمر الأمة الإسلامية أو كرامة شخص أو نحو ذلـــك مـــن الحروف المقطعة، ولعل هذا صلته بالبحث أكثر من الأول لذا اقتصرنا عليه.

واعلم أن هذا أول ما ظهر من اليهود كما ذكره بن إسحاق في تأويلـــهم الحروف المقطعة وأن عددها بالجمل مقدار مدة هذه الأمة[٤] ثم انتشـــر عنـــد المسلمين.

ومما ورد في ذلك عن المتقدمين ما قاله الخويي[٥] في شأن مطلـــع ســـورة

---

(١) فتح القدير للشوكاني(١/٣٥).

(٢) وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور لفهد الرومي(ص: ١١)، مكتبة التوبة - الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٣) ينظر تفصيل الكلام حول هذه المسألة في كتاب (مباحث في علوم القرآن)، تأليف: صبحي الصالح وقد قامت بنشره مشكورة، دار العلم للملايين.

(٤) ينظر: الفتح لابن حجر(٨/٢١١).

(٥) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ابن عيسى، أبو العباس شمس الدين المهلبي الخويي: قاض

الروم، قال – رحمه الله -: (وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [(١)] أن البيت المقدس تفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة)[(٢)].

وهذا السهيلي[(٣)] يقول: إن (عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة) [(٤)] قال ابن حجر: (وهذا باطل لا يعتمد عليه فقد ثبت عن ابن عباس ﷺ الزجر عن عد أبي جاد والإشارة إلى

شافعي، من العلماء بالكلام له معرفة بالطب. ولد في خوي (بأذربيجان) سنة ٥٨٣ هـ، وتعلم بها وبخراسان. ثم ولي قضاء القضاة بالشام. وتوفي بدمشق. له كتب، منها كتاب في (علم الأصول) وكتاب قال ابن أبي أصيبعة: يشتمل على رموز حكمية صنفه للسلطان الملك المعظم، عيسى بن أبي بكر بن أيوب، و(السفينة النوحية) في النفس والروح، وله كتاب في (العروض) توفي سنة ٦٣٧هـ. ينظر: في شذرات الذهب للعكري(٥/١٨٣)، والأعلام للزركلي(١/١٢١).

(١) سورة الروم الآية: (١-٢).

(٢) ينظر: الإتقان للسيوطي(٢/٢٦).

(٣) هو الحافظ العلامة البارع أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي الأندلسي المالقي الضرير. ولد سنة ٥٠٨هـ، وسمع من ابن العربي، وطائفة، وأخذ النحو والأدب عن ابن الطراوة كان إماماً في لسان العرب، واسع المعرفة، نحوياً متقدماً لغوياً عالماً بالتفسير، وصناعة الحديث، عارفاً بالرجال والأنساب، عارفاً بالتاريخ ذكياً نبيهاً، صاحب استنباطات، مات بمراكش ٥٨١هـ. ينظر: شذرات الذهب للعكري (٤/٢٧١)، والأعلام للزركلي(٣/٣١٣)، ومعجم المؤلفين لكحالة(٥/١٤٧).

(٤) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي(١/ ١٠٧)، تحقيق: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية- بيروت. طبعة سنة: ١٤١٥هـ.

ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فإنه لا أصل له في الشريعة)[١].

والشيعة رأى بعضهم أن (في مجموعة هذه الفواتح إذا حذف المكرر فيها ما يفيد أن "صراط علي حق نمسكه" فيرد عليهم بعض السُّنِّيين الظرفاء بخطاب مستنبط من الفواتح نفسها بحروفها ذاتها غير المكررة "صح طريقك مع السنة")[٢].

وهكذا أصبحت هذه الأحرف مرتعاً خصباً يَفِدُ إليه المتكلفون قديماً وحديثاً ليقدم لنا أهلُ كل عصر لوناً جديداً من ألوان التكلف.

وفي العصر الحديث وجدنا هذه السلسلة لا تزال موصولة! حيث وُجد من المعاصرين من يستنبط من هذه الأحرف استنباطات غريبة، فـ(علي النصوح الطاهر يزعم أن هناك علاقة حسابية بين عد آي السور المبدوءة بالحروف المقطعة، وبين القيمة العددية لهذه الحروف، ولكي يصل هذا الأخير إلى غرضه نراه يتسور على القرآن ويستنتج أموراً غريبة.. يدعي أن سورة الأعراف وهي رقم (٧) في المصحف وآياتها تبلغ (٢٠٦)آية، كانت في الأصل تضم (١٦١)آية فقط، وذلك لأن هذا الرقم هو الذي يوافق القيمة العددية للحروف (المص) المذكورة في بداية السورة (١+٣٠+٤٠+٩٠= ١٦١)[٣].

---

(١) فتح الباري لابن حجر(١١/٣٥١).

(٢) روح المعاني للآلوسي(١/ ١٠٧).

(٣) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية للدكتور محمد محمد أبو ليلة(ص: ٢٢٧)، دار النشر للجامعات – مصر. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

قال الدكتور محمد أبو ليلة: (ولسنا ندري على أي أساس بنى الطاهر زعمه هذا؟ ومن أي طريق جلب هذا العار على نفسه، هذا فضلاً عن مصادمة آرائه للدين.. ولقد أجمع العلماء على أن الأعراف من السور الطوال وأنها هكذا منذ نزلت، بالنسبة لعدد آياتها، وبالنسبة لترتيبها في المصحف، وليس في سورة الأعراف منسوخ البتة، وعلى هذا الخلط المعوج نفسه، راح هذا الكاتب يضم سورة لسورة، وآية لآيات حتى يجعلها صالحة لتأييد فكرته الرعناء في التوافق بين القيمة العددية للحروف)[1]. فانظر إلى هذا التكلف كيف جعل صاحبه يتصرف في الآيات كما شاء!! وللأسف فقد استغله المستشرقون للطعن في القرآن كما سيأتي في الآثار.

ومن مظاهر التكلف عند المعاصرين بصدد الحروف المقطعة زعمهم أنها يمكن تفسيرها بغير العربية، وممن (سلكوا هذا المسلك صاحب كتاب (الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم).. الذي تكلف وتنطع في إقحامه اللغة المصرية القديمة في كتاب الله عز وجل الموصوف بالعربي المبين)[2].

فقد (زعم فيه مؤلفه أن فواتح السور المبتدئة بحروف مقطعة وبعض الألفاظ في القرآن ليست عربية، وإنما هي كلمات أعجمية مستمدة من اللغة المصرية القديمة، (الهيروغليفية)، وأنه سعى في كتابه المذكور إلى بيان معانيها بالحدس من

---

(١) نفس المصدر (ص: ٢٢٧).

(٢) الرد على كتاب (الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم)، لعلي بن عبد الرحمن القضيب العويشز(ص: ٢١).

خلال تلك اللغة) (١). والآن إليك شيئاً من تكلفات هذا الكتاب قال عن ﴿ عٓسٓقٓ ﴾ (٢):

(أما عسق كما في القراءات فتكون ثلاث كلمات: عيين، سين، قاف.

عين: تعني العبد، نعم العبد أي المحب إلى الله، الجميل الصادق والحسن والحق.

سين: تعني: رسول، مبعوث.

قاف: تعني: الذي يظهر فجأة، قوي، ذو شرف.

والمعنى: والآن لنحاول أن نفسر مطلع سورة الشورى في ضوء ما سلف:

الروح الأمين، جبريل، هو الذي يتزل عليك أو هو الواسطة، يا أيها النبي وهو عبد من عبادنا الصالحين، أو هو رسول قوي جميل الهيئة عظيم الهيبة والشرف)(٣).

بمثل هذا التفسير المتكلف مشى صاحب هذا الكتاب في تفسير الحروف المقطعة، ولا ندري والله ما هو المستند الشرعي الذي بنى عليه مثل هذا التكلف. كما لا ندري ما الذي يحملهم على الخوض في تفسير مثل هذه المتشابهات؟.

---

(١) نفس المصدر(ص: ٣٧).

(٢) سورة الشورى الآية: ٢.

(٣) الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم لسعد عبد المطلب العدل(ص:١٧٨)، مكتبة مدبولي-القاهرة. طبعة سنة: ٢٠٠٢م. وقد حوى الكتاب على بعض الرموز والصور شديدة الشبه بطلاسم المشعوذين.

القسم الثالث: ما يتعلق بقصص الأنبياء:

القصص جمع قصة، والقص في اللغة يعني تتبع الأثر (ويقال قَصَصْت الشيء إذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[١] أي: اتبعي أثره)[٢].

والأنبياء جمع نبي، وهو مشتق إما من الفعل (نبأ) بهمز، ومعناه الخبر، وسمي به النبي لكونه يأتي بخبر السماء[٣]، أو هو من الفعل (نبا) بغير همز، ومعناه السمو والعلو، وسمي به النبي لكونه ارتفع درجة عن الخلق بمقام النبوة؛ قال في مختار الصحاح: (فإن جَعَلْتَ النبيَّ مَأخُوذاً منه أي أنه شرُف على سائر الخَلْق)[٤].

إذاً فمعنى قصص الأنبياء أي تتبع أخبارهم وما جرى بينهم وبين أقوامهم.

وبالنسبة لما يتعلق بقصص الأنبياء، فقد تقرر عند علماء الملة، وأهل القبلة أنه لا يستقيم إيمان عبد إلا بالتصديق بنبوات الأنبياء، ورسالات الرسل، وما أيدهم الله به من معجزات، ولما كان التصديق بذلك ضرورةً، كان الوقوف على أخبارهم ضرورة كذلك! إذ لا يمكن تصديق الخبر أو رده إلا بالوقوف عليه ومعرفته، ولهذا قص الله علينا شيئاً من أخبارهم في الكتاب العزيز على سبيل الإجمال، وحيث قد فُطرت النفوس على معرفة التفصيل، فقد طلبت

---

(١) سورة القصص الآية: ١١.

(٢) لسان العرب لابن منظور(٧/٧٣).

(٣) ينظر: مختار الصحاح مادة (ن ب أ) (ص: ٦٨٨).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

التفصيل! وكان سبيلها إلى ذلك النبي الكريم، وأهل الكتاب، ولا ريب فيما أخبر به الله ورسوله؛ ولكن الريب فيما أخبر به أهل الكتاب، فقد زُوج فيه الحق بالباطل، فكان المولود مشوهاً بالشك! وهو ما يُعرف بالإسرائيليات ففي كثير منها كلام لا يليق بنبي، وهذا ما جعل الكثير من المفسرين يتكلفون في رد سهام الاتهام التي أطلقتها أقواس هذه الإسرائيليات حفاظاً على العصمة، وقد كان الأولى أن تُكسر تلك الأقواس من أساسها فلا يكون لسهمها تأثيراً.

ومن المعلوم أن قصة موسى – عليه السلام – هي أكثر قصص القرآن تكراراً، ولذا وقف المفسرون – قديماً وحديثاً – أمامها طويلاً وحاولوا أن يضيفوا بعض المقاطع التي تركها الإجمال القرآني، ومما ذكره المفسرون قديماً ما ذكروه من دلائل أمانته كقوله لابنة شعيب: أمشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها، أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها وأنها عرفت بذلك أمانته فقالت لأبيها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1] أو نحو هذا[2]. مما رده المفسرون ووصفوه بالتكلف، قال سيد قطب: (ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها.أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها.. فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها. وموسى – عليه السّلام – عفيف النظر نظيف الحس، وهي كذلك،

---

(١) سورة القصص الآية: ٢٦

(٢) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي(١٧٥/٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت.

والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة. فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع!)[١].

وأما المعاصرون فقد ذكروا لوناً آخراً من ألوان التكلف، ليس استناداً إلى رواية إسرائيلية، بل استناداً إلى الرأي المجرد!!!

تجد هذا واضحاً في قول عبد الكريم الخطيب في تفسيره (التفسير القرآني للقرآن)، عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[٢] فقد تخبط فيها تخبطاً عجيباً، وخلط خلطاً غريباً، فمرة يقول أن موسى لم يطلب الرؤيا من تلقاء نفسه وإنما طلبها بناءاً على تعنت بني إسرائيل أن يريهم الله جهرة فطلبها من أجل أن يراها بنو إسرائيل معه، ومرة أخرى يثبت أن موسى طلب الرؤيا، ولكن لم يكن قصده أن يرى الله مباشرة، وإنما طلب من الله أن يريه الطريقة التي يمكن أن يراه بها، ثم ختم القول بنفي الرؤية مطلقاً لا في الدنيا ولا في الآخرة بناءاً على مذهب (لن تراني) المعتزلي.

وكل ذلك تكلف حمله عليه محاولة تتريه موسى أن يطلب مثل هذا الطلب! واسمع إليه وهو يقول: (ولكن القوم رجال في مساليخ أطفال، لا يكادون يخطون على طريق الهدى خطوة أو بضع خطوات حتى يتعثروا ويسقطوا في التراب والوحل! وكان من إعناقم لنبيهم موسى، وإلحاحهم عليه، في ثرثرة كثرثرة الصبيان، ولهفة كلهفة الأطفال أن طلب موسى من ربّه أن يراه حتى يراه

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب(٥/٢٦٨٨).

(٢) سورة القصص الآية: ٢٦

معه هؤلاء الأغبياء)[١].

هكذا قال في تفسير سورة البقرة، فلما أتى على موضع سورة الأعراف قال: (وحين سمع موسى كلام ربّه، كلاما مباشراً من غير واسطة، اشتاقت نفسه أن يرى ربه الذي أسمعه صوته، وأطمعه ذلك في أن يطلب مالا يُطلب، وذلك حين قدر أن الذي يسمعه بأذنه يمكن أن يراه بعينه، على أيّة حال تكون هذه الرؤية..!

ولهذا لم يطلب موسى الرؤية إلا بعد أن سمع الكلام.. فقال: (رب أرني أنظر إليك) وهذا ما يشير إلى أن موسى لم يكن يطلب رؤية كتلك الرؤية التي تقع من له عالم الأشياء.. وإنما هى رؤية من نوع فريد، كما أن الكلام الّذى سمعه كان على صورة لم يعهدها فيما يسمع من أصوات.. فمعنى قوله: (رب أرني) أي بين لي طريق النظر إليك، فإن بيّنت لي أنظر إليك، وإلا فلا سبيل إلى النظر.. ومثل هذا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٢]. وقد أجاب اللّه موسى بقوله: (لَنْ تَرانِي) هكذا حكماً قاطعاً مؤبداً.. إذ أن ذلك أمر مستحيل)[٣].

قال الشيخ محمد عبد الله بن الصديق: (هذا[٤] وقد سبق له في تفسير سورة

---

(١) التفسير القرآني للقرآن للخطيب(١/٨٥).

(٢) سورة البقرة الآية:٢٦٠

(٣) نفس المصدر(٥/ ٤٧٦-٤٧٧).

(٤) يشير الشيخ باسم الإشارة هذا إلى ما تحدث عنه من تكلف المفسر عبد الكريم الخطيب حول قوله تعالى: (إلى ربها ناظرة)، حيث فنّد تكلفه في فهم الآية التي تأثر فيه بعقيدة المعتزلة، ولما كان =

البقرة أن سؤال موسى رؤية ربه كان يريد به أن يراه قومه وأنهم هم الذين حملوه على ذلك، وهذا الذي قاله لا يدل عليه قوله تعالى: (رب أرني أنظر إليك)، ولا توجد آية أخرى تدل عليه بأيّ نوع من أنواع الدلالة، فانظر كيف أقدم على هذا من تلقاء نفسه، وأنا أقول لعله رواها عن إنجيل متّى) [1].

وماذا يفهم القارئ من قول الشيخ: (فانظر كيف أقدم على هذا من تلقاء نفسه)، إلا أن يكون هذا التفسير تفسير متكلف!!

ومن تكلفات المعاصرين أيضاً في قصة موسى ما ذكره العلامة محمد أبو زهرة[2] في تفسيره (زهرة التفاسير)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ

كلامه – أي الشيخ محمد – طويلاً اكتفينا بهذه الكلمات تفادياً للتطويل وهي كافية – إن شاء الله – لبيان المقصود.

(١) من غرائب المفسرين في أواخر القرن العشرين للشيخ محمد عبد الله بن الصديق الجنكي الشنقيطي المفتي بدولة أبو ظبي(ص: ١٥)، طبعة سنة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) هو الشيخ محمد بن أحمد أبو زهرة: من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى سنة ١٣١٦هـ وتربى بالجامع الأحمدي وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي من(١٩١٦م – ١٩٢٥م) وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات،. وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين سنة (١٩٣٣م)، وعين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة (١٩٣٥م)، وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتابا، منها (الجدل في الإسلام، والأحوال الشخصية، والوحدة الإسلامية)، توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(٦/٢٥).

ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] فقد قال: (المفسرون على أن هذه الآيات جزء من قصة البقرة... فهم يقولون إن الأمر بذبح البقرة كان ليضربوه بها أي ليضربوا المقتول بها فيحيا... ولكن في العصر الحديث قرر المرحوم الأستاذ الكبير عبد الوهاب النجار[2] أنهما قصتان سيقتا لغرضين[!!!]: أما الأولى فهي قصة البقرة،.. والثانية سيقت لبيان أثر رؤية المقتول في نفس القاتل[!!!]، وتأثره بذلك وأنه يحمل على الاعتراف بالجريمة عندما يرى المقتول ويمس جسده[3].. وما نراه أن الفرق بين رأي المفسرين، ورأي المرحوم الأستاذ: أن اتجاه المفسرين إلى جعل مسألة البقرة مسألة معجزة، وأمراً خارقاً للعادة...، والمرحوم النجار يرى أن ذلك تكليف اجتماعي ينبه العقول إلى مقرر ثابت في الدراسات النفسية والاجتماعية[!!])[4].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧٢-٧٣.

(٢) هو عبد الوهاب ابن الشيخ سيد أحمد النجار: باحث، يسلك في عداد المؤرخين، من فقهاء مصر. ولد في القرشية (من قرى الغربية بمصر) سنة ١٢٧٨هـ، وتعلم بها ثم في طنطا. وانتقل إلى القاهرة، فتخرج بمدرسة دار العلوم سنة ١٣١٥ هـ واشتغل بالمحاماة الشرعية. ثم عين مدرساً للأدب والشريعة في كلية الخرطوم. فأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية القديمة، فأستاذاً للشريعة في دار العلوم، فناظراً لمدرسة عثمان ماهر باشا، إلى آخر حياته. واشترك في أكثر الجمعيات الإسلامية وفي مقدمتها جمعية الشبان المسلمين.ألف كتباً، منها: (زهرة التاريخ و تاريخ الإسلام، وقصص الأنبياء) توفي في القاهرة سنة ١٣٦٠هـ. ينظر الأعلام للزركلي(٤/ ١٨٢).

(٣) وعلى هذا يكون الضمير في قوله (ببعضها) أي ببعض جثة المقتول، وما أوضحه من تكلف!!.

(٤) زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة (١/٢٦٩-٢٧٢). وقد ذكر أن النجار ذكر هذا التفسير في كتابه (قصص القرآن)، ولم أجد له كتاباً بهذا العنوان. وإنما الذي وجدته بعنوان: (قصص الأنبياء)، حيث ذكر هذا التفسير في الصفحات من(٢٦٠-٢٦٣)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع — القاهرة.

وهذا الكلام الذي ذكره فيه من التكلف ما هو واضح، إذ فيه إنكار لمعجزة ثبتت لنبي الله موسى – عليه السلام – ثم إن قوله بأنها قصتان لا دليل عليه، وإنما هو تكلف، حمله عليه ما تقرر في ذهنه فحمّله الآية، وقد صرح أبو زهرة أن المفسرين على خلافه[1]، لكن الغريب أنه مال إلى هذا التفسير فقال: (ونحن نميل إلى رأي الأستاذ النجار)[2].

ولا ريب أن مقصد المفسرين حينما يخوضون في قصص الأنبياء مقصد حسن، ولكن لا ينبغي أن يكون حُسن المقصد مدعاة إلى التكلف، فالواجب أن نقبل ما أخبرنا به الله في كتابه، وما صح عن نبينا – عليه السلام – وأن لا نتزيد بأشياء من تلقاء أنفسنا.

وعلى كلٍ فما يود الباحث تقريره هنا أن قصص الأنبياء كانت أحد الأسباب التي دعت المفسرين أن يتكلفوا عندها، حراسة لمقام العصمة.

۞۞۞

---

(١) فعلى سبيل المثال قال ابن كثير (فقلنا اضربوه ببعضها) هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن)، ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١/٣٠٢).

(٢) زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة(١/٢٧٢).

المطلب الثالث: التعصب المذهبي والفقهي.

التعصُّب مصدر للفعل الثلاثي (عصب)، ومعناه (المحاماة والمدافعة. وتَعَصَّبنا له ومَعَه: نصرناه. تَعَصَّب: تقنع بالشيء ورضي به)[١]، أي أن الشخص يحامي ويدافع عن ما رضي به ويشمل هذا كل رأي قنع به.

و(المذهبي) نسبة إلى المذهب[٢]، وهو في اللغة الطريقة[٣]، ثم استُعير لـ(المُعتَقد الذي يُذهَب إليه)[٤] سواء كان ذلك في المعتقد العقدي أو المعتقد الفقهي.

و(الفقهي) نسبة إلى الفقه وهو في اللغة الفهم[٥]. (واشتقاقه من الشَّق والفتح. يُقال: فَقِه الرجُل بالكسر - يَفْقه فقهاً إذا فهم وعلم)[٦]. (وغلبَ على عِلْم الدين لسِيادَتِه وشرفه وفَضْلِه على سائر أَنواع العلم)[٧].

والمقصود به هنا حمل المفسر الآية على المذهب الفقهي الذي ارتضاه لنفسه.

إن من المؤسف - حقاً - أن يصبح التعصب الفقهي سبباً من أسباب

---

(١) تاج العروس للزبيدي(٣/ ٣٨٢).

(٢) هناك فرق بين الدين والملة والمذهب: فالدين ما يُنسب إلى الله تعالى، والملة ما يُنسب إلى الرسول، والمذهب ما يُنسب إلى المجتهد. ينظر: التعريفات للجرجاني(١/١٤١).

(٣) تاج العروس للزبيدي(٢/٤٥٠).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ينظر: لسان العرب لابن منظور(١٣/٥٢٢)، ومختار الصحاح للرازي(ص:٥١٧).

(٦) مختار الصحاح للرازي(ص:٥١٧).

(٧) ينظر: لسان العرب لابن منظور(١٣/٥٢٢).

تكلف المفسرين قديماً وحديثاً؛ لجر النصوص القرآنية لكي توافـــق مذهبـــهم، بالرغم أن مادة الفقه الأصلية مأخوذة من النص الكريم.

فكم وجدنا في كتب المفسرين كثيراً من التكلفات الفقهية التي كان الأولى بهم أن يترهوا عنها كتبهم لا سيما وأنهم عُرفوا بالورع وعلو الكعب في العلم، ولسنا نقول هذا قاصدين الانتقاص من قدرهم، ولكن القصد أننا نـــود أن لم يصدر ذلك منهم، ومهما يكن فإنما هم بشر، وقد أبى الله العصمة إلا لكتابـــه وأنبيائه.

يقول الدكتور الذهبي – رحمه الله -: (ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلّدة إلى أن نظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع، فوقفوا جهدهم العلمي على نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبذلوا كل ما في وسعهم لإبطال مذهب المخالفة وتفنيده، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلى آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، وإلا فلا أقل من أن يؤوّلها تأويلاً يجعلها به لا تصلح أن تكون في جانب مخالفيه، وأحياناً يلجأ إلى القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل هذا عبد الله الكرخي[1] المتوفى سنة ٣٤٠ هـــ، وهو أحد المتعصبين لمذهب أبي

(١) هو أبو الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخي فقيه انتهت إليه رياسة العلم في أصحاب أبي حنيفة، ولد الكوفة في سنة ٢٦٠هـــ، وكان ورعاً. وعنه أخذ أبو بكر أحمد بن علي الرازي وأبو بكر الدامغاني وأبو علي الشاشي وأبو عبد الله البصري وأبو القاسم علي بن محمد التنوخي. له رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية، وشرح الجامع الصغير، و شرح الجامع الكبير. توفي في بغداد سنة ٣٤٠هـــ. ينظر في: طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي(١٤٢/١)، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي بيروت – لبنان. الطبعة الأولى:١٩٧٠م، ولسان الميزان لابن =

حنيفة يقول: (كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤوَل أو منسوخ)[١].

ومن أمثلة تكلفات المتقدمين الفقهية في التفسير ما فعله الجصَّاص الحنفي[٢] عند ما أتى على تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[٣]، فقد تكلف تكلفاً ظاهراً من أجل أن يجعل الآية دالة على أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه كما هو مذهبهم[٤].

حجر(٤/٩٨)، والأعلام للزركلي(٤/١٩٣). وقد وجدتُ من يطلق عليه (عبد الله الكرخي)، كما نقلته عن الدكتور الذهبي في المتن أعلاه، ولعله خطأ مطبعي لأن غالب التراجم ذكرت أنه عبيد الله وليس عبد الله، والله أعلم.

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (٢/٢٩٥)، نقلاً عن تاريخ التشريع الإسلامي لمجموعة من الأساتذة.

(٢) هو أحمد بن علي أبو بكر الرازي، المعروف بالجصاص ولد سنة ٣٠٥هـ، تفقه على أبي الحسن الكرخي وتخرج به، وتفقه عليه أبو بكر أحمد بن موسى الخوارزمي، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الجرجاني، وأبو جعفر محمد ابن أحمد النسفي وانتهت إليه رئاسة الحنفية. وسئل العمل بالقضاء فامتنع، له كتب منها: أحكام القرآن ومناسك وشرح الأسماء الحسنى توفي ببغداد سنة ٣٧٠هـ. ينظر: تاج التراجم لأبي الفداء زين الدين قاسم بن قُطلُوبغا السودوني(ص: ٩٦)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم دمشق. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. والأعلام للزركلي(١/١٧١)، ومعجم المؤلفين لكحالة(٢/٧).

(٣) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

(٤) ينظر: أحكام القرآن أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، وقد تحدث عنها من (ص:٢٩٠ – ٢٩٨)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٥هـ.

وأما المعاصرون فقد وجد من تكلف لتقرير مذهبه الفقهي كذلك بحجة إنكار التقليد، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسير المنار عند ما فسر آية التيمم في سورة النساء[(١)]، فقد تكلف القول بأن المسافر يجوز له التيمم وإن كان الماء بين يديه، و لم تمنعه علة، لأن كونه مسافراً يكفي لذلك.

يقول هذا ثم لا يأبه بمخالفته جماعة الفقهاء في المسألة!! وأكبر من ذلك أن يشن هجوماً على المتقدمين ويصفهم بـ(أدعياء العلم من المقلدين)[(٢)]، ثم يتعجب قائلاً: (ألا إن من أعجب العجب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرُخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هي أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحَرَج والعُسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام..)[(٣)] وبعد أن ينتهي من ذلك يقرر جازماً أنه (إذا ثبت أن التيمم رُخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التي توسَّعوا في بنائها على اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه في السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث[(٤)])[(٥)].

إن من أعجب العجب كما هي عبارته!! أن نجد هذا التكلف من محمد

(١) سورة النساء الآية: ٤٣.

(٢) تفسير المنار لمحمد رضا(٥/٩٨).

(٣) نفس المصدر.

(٤) حد الغوث: قدّره بعضهم بغلوة سهم أي رمية سهم وهذا يقدر بـ(١٢٠-١٦٠) متراً أو مسير (١-٣) دقائق، وسمي حد الغوث لكونه إذا استغاث رفقته لأمر نزل به أغاثوه)، ينظر: فقه العبادات على المذهب الشافعي، للشيخ الحاجّة درية العيطة(ص: ١٥٥). الطبعة الخامسة.

(٥) تفسير المنار لرضا(٥/ ٩٩).

رضا من أجل أن يجعل الآية دليلاً على ما ذهب إليه، وهو يعلم أنه مخالفٌ لِمَا عليه إجماع العلماء الذي حكاه الإمام القرطبي في تفسيره[1].

ألا إن في هذا من التكلف ما هو ظاهر للعيان، وما من شكٍ أن الحامل عليه هو التعصب المذهبي والفقهي والله المستعان.

❁❁❁

(١) قال القرطبي - رحمه الله -: (أجمع العلماء على جواز التيمم في السفر حسبما ذكرنا)، وقد ذكر أنه (يجوز التيمم بسبب السفر طال أو قصر عند عدم الماء)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(٥/ ٢١٨).

المطلب الرابع: إغفال التفسير بالمأثور

الإغفال: مصدر مأخوذ من الفعل الثلاثي (غفل)، ومعناه: غيبة الشيء عن بال الإنسان و عدم تذكره له[١]. وأما الإغفال والتغافل: تَرَكَ الشيء عن عَمَد، فتقول: (أَغْفَلْتُ) الشيء (إِغْفَالا) تركته متعمداً إهمالاً من غير نسيان[٢].

والمأثور: مأخوذ من الأثر وهو بَقِيَّة الشيء، وقيل الأثر: الخبر وجمعه الآثار[٣] وحديث (مَأْثُور) أي منقول[٤] يُخبر الناس به بعضهم بعضاً أي ينقله خلف عن سلف[٥].

والمقصود بالتفسير بالمأثور: (ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه)[٦]. واختلفوا فيما روي عن التابعي.

لكن الذي لا خلاف فيه بين العلماء أن الآية إذا جاء تفسيرها في القرآن أو صح عن النبي – عليه السلام – سقطت كل قول دونه، ولا معنى لإيجاد تفسير جديد إلا التكلف.

---

(١) ينظر: المصباح المنير للفيومي(٢/٤٤٩).

(٢) ينظر: نفس المصدر والصفحة. والمخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده(٤/٤٨)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي(١٠/١٣).

(٤) ينظر: المصباح المنير للفيومي(١/٤).

(٥) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٤/٥)، وتاج العروس للزبيدي(١/٢٤٤١)، ومختار الصحاح للرازي(ص: ٥).

(٦) ينظر: مناهل العرفان للزرقاني(٢/١٠)، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(١/١٠٣).

فهذا شيخ الإسلام يقول: (ومما ينبغي أن يُعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم)(١).

بيد أن من الغريب أن نجد من المفسرين قديماً وحديثاً من يتكلف تفسيراً من قبيل الرأي مع وجود التفسير المأثور، فهذا ابن عطية(٢)- رحمه الله- يذهب في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾(٣) إلى أن المراد بالقوم الآخرين ليسوا بني إسرائيل وإنما هم قوم سكنوا مصر غير بني إسرائيل(٤)! يقول هذا وقد جاء صريحاً في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٥)، والأعجب من هذا أن حجته فيما ذهب إليه (أنه لم يرو أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية(٧/٢٨٦).

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة. عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش المسلمين. وتوفي بلورقة سنة ٥٤١هـ. من كتبه (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، و (المجموع) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه. ينظر: السير للذهبي(١٩/٥٨٧)، والأعلام للزركلي(٣/٢٨٢)، ومعجم المؤلفين لكحالة(٥/٩٣).

(٣) سورة الدخان الآية: ٢٨.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن غالب ابن عطية(٥/٧٣)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. توزيع مكتبة دار الباز – مكة المكرمة.

(٥) سورة الشعراء الآية: ٥٩.

ملكوها قط)[١]! وهذا تكلف وددنا أن لم يقع فيه ابن عطية – رحمه الله – لأن تفسير الآية قد ورد في القرآن نفسه، وأما استدلاله فيما ذهب إليه بأنه لم يرو أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر فيكفي أن يقال لرده: (لا اعتبار بالتواريخ، فالكذب فيها كثير، وكلام الله صدق)[٢] ومن أصدق من الله قيلاً ؟.

وفي العصر الحديث وجدنا كذلك من يُغفل التفسير بالمأثور نزولا على الرأي!!

فعلى سبيل المثال قد صح عن النبي ﷺ أنه فسر الكوثر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[٣] بأنه نهر أُعطيه في الجنة؛ ففي صحيح البخاري من حديث أنس ؓ قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر)[٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أيضاً قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم: إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٥]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية(٥/٧٣).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان(٩/٤٠٢).

(٣) سورة الكوثر الآية: من(١-٣).

(٤) ينظر: صحيح البخاري (٤/١٩٠٠)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة (إنا أعطيناك الكوثر)، حديث رقم: ٤٦٨٠.

(٥) سورة الكوثر الآية: (١-٣).

ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عزوجل عليه خير كثير وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي فيقول ما تدري ما أحدث بعدك)[١]، وبالجملة فقد ورد هذا من عدة طرق حتى قال السيوطي في إتقانه: (له طرق لا تحصى)[٢].

ومع ورود هذا التفسير وكثرة طرقه إلا أننا وجدنا من المعاصرين من يقول: (وأما أن هناك نهراً في الجنة اسمه الكوثر، وأن الله أعطاه نبيه، فلا يُفهم من معنى الآية بل الذي يدل عليه سياق السورة وموضع نزولها، هو الذي بيناه من أحد القولين الأول: وهو النبوة، وما في معناها أرجح)[٣].

وهذا تكلف مردود لورود التفسير النبوي الصحيح في ذلك، وبما إنه قد (ثبت تخصيصه – أي الكوثر – بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه)[٤] ولذا لم يتردد طاهر محمود يعقوب أن يقول عن قائل هذا التفسير: (وتكلف محمد عبده في تفسير الآية بذكر أقوال لا سند لأكثرها ولا برهان لأغلبها، ووقع باجتهاده المطلق ورأيه الحر في الخطأ التفسيري، حيث عدل عن التفسير بالمأثور الثابت، وليس هذا جهلاً أو لعدم علمه بالحديث، بل تقديماً للرأي

---

(١) صحيح مسلم(١/٣٠٠)، كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، حديث رقم: ٤٠٠.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان(٩/٤٠٢).

(٣) تفسير جزء عم لمحمد عبده (ص: ١٦٥)، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – مصر. طبعة سنة: ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.

(٤) فتح الباري لابن حجر(٨/٧٣٢).

والاجتهاد على الأثر الصحيح المنقول)[١].

من خلال هذين المثالين يتبين للبحث أن إغفال المفسرين للتفسير بالمأثور سبب رئيسي للوقوع في التكلف في التفسير، إذ لو أخذوا به لما احتاجوا إلى تكلف غيره.

(١) أسباب الخطأ في التفسير لطاهر يعقوب(١/١٠٩).

المطلب الخامس: التوسع في التفسير الاشاري

يُعتبر التفسير الإشاري من أشهر أنواع التفسير التي كثر الجدل حولها، ما بين مؤيد ومعارض(١)، وقد سبق الإشارة إلى تعريفه وشروطه في المبحث الأول من الفصل الأول، وفي هذا المطلب سنتعرف – إن شاء الله – عن الأصل فيه ثم الإشارة إلى بعض الأمثلة التي اختل فيها شرطه فصارت تكلفاً مذموماً.

وقبل أن نشرع في بيان المقصود نود أن نطرح سؤالاً قد استوقف الباحث هذا السؤال يقول: لماذا كثر الخلاف حول التفسير الاشاري؟.

ولعل السبب الذي جعل الجدل يكثر حول هذا التفسير – إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه عند الحديث عن الفرق بين التكلف في التفسير والتفسير الإشاري – هو أن البعض يطلق عليه (تفسير الصوفية)، وقد عُرف من حال

(١) من أبرز المعارضين للتفسير الإشاري من المتقدمين الإمام أبو الحسن الواحدي المفسر فقد قال عن تفسير حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي: (إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. وقال النسفي في عقائده النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطل إلحاد)، وتبعهما الزركشي في البرهان فقال: كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل ليس تفسيراً وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة. ينظر: البرهان للزركشي(١٧١١/٢). وأما المعاصرون فكلامهم حول هذه المسألة فيه تحفظ وإن كان القارئ يلمس منه الرفض، تجد هذا واضحاً من كلام الدكتور الذهبي عندما يصفه بأنه مزلة قدم كما تقدم، كما تجده كذلك في كلام الزرقاني في مناهله عندما ختم حديثه عن التفسير الاشاري بقوله: (فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ولا يعولوا على أشباهها مما ورد في كلام القوم بالكتب الصوفية لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط). ينظر: مناهل العرفان للزرقاني(٦٤/٢-٦٥).

الصوفية أنهم يأتون بشطحات في هذا الجانب، فظن البعض أن هذا التفسير ظهر بعد ظهور الصوفية و لم يكن موجوداً على عهد النبي ﷺ فوقف يتساءل: هل لهذا النوع من التفسير أصل شرعي يتكئ عليه؟ أم هل لهؤلاء المتصوفة قدوة من السلف فيما يقولون؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: (لم يكن التفسير الإشاري بالأمر الجديد في إبراز معاني القرآن الكريم، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ.. أشار إليه القرآن، ونبَّه عليه الرسول عليه الصلاة والسلام، وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقالوا به) [(١)].

والأصل فيه ما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال إنه ممن قد علمتم قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [(٢)] حتى ختم السورة فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً فقال لي يا ابن عباس أكذلك قولك؟ قلت لا قال فما تقول ؟ قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٢٣٩).

(٢) سورة النصر الآيات: من(١-٣).

أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ قال عمر ما أعلم منها إلا ما تعلم)[١].

وقد روى أهل السير أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢] بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقيل: ما يبكيك ؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[٣].

وواضح من هذين الحديثين أن عبد الله بن عباس وعمر الخطاب رضي الله عنه قد أضافا إلى تفسير الآية الظاهر تفسيراً آخراً فهماه بطريق الإشارة. ومن هنا رأى العلماء جواز التفسير الإشاري، فهذا الإمام ابن حجر – رحمه الله – يقول عند شرحه لحديث ابن عباس: (وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم)[٤].

وقال السيوطي في معنى قول علي رضي الله عنه : (فهماً في القرآن): المراد منه ما يستنبط به المعاني ويدرك به الإشارات والعلوم الخفية والأسرار الباطنة التي تظهر للعلماء الراسخين في العلم)[٥]. وقد ذكر الدكتور الذهبي أقوالاً غير هذه يطول

---

(١) صحيح البخاري (١٥٦٣/٤)، كتاب: المغازي، باب: مترل النبي ﷺ يوم الفتح، حديث رقم: ٤٠٤٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ٣.

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير(٤/ ٤٢٧)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـــ بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٦هـــ - ١٩٧١م. وقد جوّد إسناده.

(٤) الفتح لابن حجر(٧٣٦/٨).

(٥) شرح سنن ابن ماجه لكل من: السيوطي، عبد الغني، فخر الحسن الدهلوي(ص: ١٩١)، قديمي كتب خانة – كراتشي.

المقام بذكرها فارجع إليها إن شئت[١].

فلا مطمع إذاً في الطعن في التفسير الإشاري من حيث الأصل وجواز الأخذ به.

غير أن من المهم في هذا المقام أن نشير إلى أن التفسير الظاهر هو الأصل لأنه المتفق عليه خصوصاً إذا كان من المأثور، أما الإشاري فلا يُقبل إلا ممن كانت له أهلية لذلك بالشروط المعروفة مع إحكام التفسير الظاهر.

وأما (من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب)[٢]، وهذه نقطة مهمة جِدُّ مهمة، لأنه قد وُجد من يَتَخرّص بإشارات صلعاء سافرة خُلع عنها جلباب الورع، مع عدم إحسانِ تفسير الظاهر، ظناً أن ذلك من قبيل التفسير الإشاري وما هو إلا تكلف جاهل.

ولقد لبّس إبليس على نفر من المسلمين – في هذا العصر – ينتمون لجماعة الصوفية بمسمى (التفسير الصوفي)، فراحوا يكتبون ما تلقيه عليهم مواجيدهم... لا لأنهم من أهل الفضل والإشارة، وإنما لأنهم من الصوفية الذين يُنسب إليهم هذا التفسير !! وأجدر بهؤلاء أن يخرجوا على الأمة بتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان والله المستعان.

لقد مُنِيَ الإسلام على مدى عصوره بقوم من معتنقيه قد أصابتهم لوثة الغلو، ومن هؤلاء أولئك الذين يبالغون ويتوسعون في التفسير الاشاري. وفي المقابل عرف قوم بالاقتصاد في التفسير الاشاري، ومع ذلك يتوسعون أحياناً

(١) ينظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/ ٢٤٠)

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي(١/ ٢٩١).

فيقعون في التكلف.

فكم قرأنا وسمعنا – لقدماء ومعاصرين - تفسيرات غريبة كان أصحابها قد اقتنصوها بطريق الإشارة – زعماً – ولكنك إذا رجعت إليها ببصر مرة أو مرتين، وجدها تكلف ليس معه من الحق شيء، فمثل هذا لا يمكن أن يُتلقى بالقبول، وإن كنا نعترف بالفضل لصاحبه.

من ذلك ما قاله التستري[1] عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] قال رحمه الله: (لم يرد الله معاني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معاني مساكنة الهمة مع شيء هو غيره، أي لا يهتم بشيء هو غيري. فآدم صلوات الله عليه لم يعتصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك. وكذلك من ادعى ما ليس له، وساكنه قلبه ناظراً إلى هوى نفسه فيه، لحقه الترك من الله عزّ وجلّ مع ما حل عليه نفسه إلّا إن رحمه، فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها، يعني إبليس، فأهل الجنة معصومون فيها من التدبير الذي كانوا به في دار الدنيا، فآدم صلوات الله عليه لم يعصم من

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع وكنيته أبو محمد أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال ولد سنة ٢٠٠هـ، أخذ التصوف عن خاله محمد بن سوار له كتاب في (تفسير القرآن) مختصر، وكتاب (رقائق المحبين) توفي سنة ٢٨٣هـ. ينظر في: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي(ص:١٦٦)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت. طبعة سنة: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. ووفيات الأعيان لابن خلكان(٢/ ٤٢٩)، والأعلام للزركلي(٣/ ١٤٣).

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٥.

مساكنة قلبه تدبير نفسه بالخلود لما أدخل الجنة، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة على العلم والعقل والبيان ونور القلب لسابق القدر من اللّه تعالى)[(١)].

وهذا التفسير قد اختل فيه بعض شروط التفسير الإشاري، فهو يصرح بأنه تعالى (لم يرد معاني الأكل في الحقيقة)، وهذا غير صحيح لأنه مخالف للمعنى الظاهر للآية والتفسير الاشاري إذا خالف الظاهر كان تفسيراً متكلفاً.

وأما من المعاصرين فنذكر ما أورده الدكتور نور الدين عتر أثناء حديثه عن التفسير الاشاري الذي اختل فيه الشروط قال - حفظه الله -: (ومن أمثلة ما وقفنا عليه في هذا العصر في أملية خاصة طبعت في كتاب وإذا فيه تفسير سورة العاديات هكذا:

(والعاديات) الريح تجري مستمرة. (ضبحا) صوتها أثنا جريها. (فالموريات) الغيوم.

(قدحا) تغيثكم غياثاً ظاهراً كالصبح.. وهكذا إلى آخر السورة)[(٢)].

وهذا تكلف من طراز جديد فهو خلط بين تفسيرين كلاهما مظنة التكلف هما: التفسير العلمي والتفسير الاشاري.

ومن الجدير بالذكر ونحن نتحدث عن التفسير الاشاري أن ننبه أن بعض

---

(١) تفسير التسترى. لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري(ص: ٢٩)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

(٢) علوم القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر(ص: ٩٩)، مطبعة الصباح. الطبعة السادسة: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

الوعاظ والكتاب ربما ذكروا معان هي في الأصل من قبيل التفسير الاشاري لكنهم لا يصرحون بأنه تفسير إشاري، ومثل هذا النوع من المعاني لها حكم التفسير الاشاري فإن استوفت الشروط فنعِمَّا هي وإن لم فلا.

يقول الدكتور مساعد الطيار عن التكلف الحاصل في هذا النوع من التفسير: (واليوم يقعُ في هذا بعض الوعَّاظِ، ومتطلبو فوائدِ الآياتِ، والذين يكتبونَ في بعض المجلات الإسلامية، تحت عنوان: (آية العدد) أو (إشراقة آية) أو (في ظلال آيةٍ) أو غيرها من العناوين.

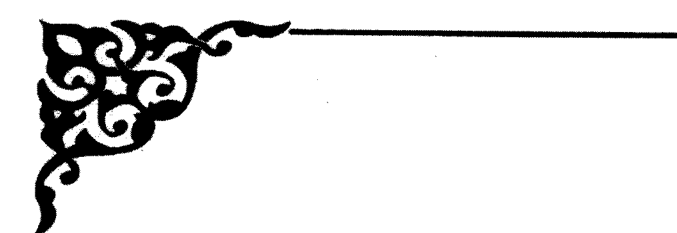
وإنَّك لتجدُ بعضهم يتكلَّفُ في استنباط الفوائد، ويربطها بالآيةِ، ويجعل الآية تدل عليها، أو يتكلَّفُ بإدخالِ بعضٍ ما يراه في الواقعِ تحت حُكم الآية، أو قد يجعل الآية مدخلاً لموضوع من الموضوعاتِ التي يريدُ الحديث عنها، فتراه يريد الحديثَ عن الحسدِ مثلاً، ويذكر آيةً من الآياتِ التي ذكرت الحسدَ، ثم ينطلق يتحدث عن الحسدِ بتفصيلٍ لا علاقةَ له بالآيةِ التي ذكرَها في أوَّل موضوعِه.

وكلٌّ هؤلاء المتكلفين ما لا يُحسنون عليهم أن يتَّقُوا الله، وأن يعلموا أنهم قد يدخلون فيمن يقول على الله بغير علم، فيكونون من أصحاب الرأي المذموم)[(١)].

وهذا أوان الانتهاء من تحرير هذا المطلب ويليه المبحث الثاني والذي سنتعرف من خلاله على أسباب التكلف في التفسير عند المعاصرين نسأل الله أن يوفقنا لذلك إنه ولي ذلك والقادر عليه والله أعلم.

---

(١) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر لمساعد الطيار(ص:١٨١-١٨٢)، دار ابن الجوزي– الدّمام. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.




المبحث الثاني

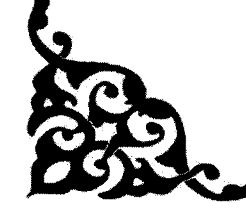
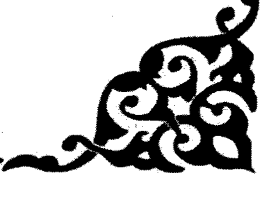
أسباب التكلف في التفسير عند المعاصرين

ويشمل المطالب التالية:

المطلب الأول: المبالغة في التفسير العلمي.

المطلب الثاني: عدم التمكن من شروط المفسر.

المطلب الثالث: دعوى التجديد المزعومة.

المطلب الأول: المبالغة في التفسير العلمي[(١)]

المبالغة في اللغة تعني: تَكَلُّفَ البلوغ إلى الشيء حتى تبلُغه[(٢)].

وفي اصطلاح البحث: مجاوزة الحد والإفراط في بيان الصلة بين الآيات القرآنية ومكتشفات العلم التجريبي.

وأما التفسير العلمي فقد ظل مصطلحاً يتوارثه العلماء من غير أن يتعرضوا إلى تعريفه حتى جاء الخولي[(٣)] ووضع تعريفاً له، ثم كان هذا التعريف عمدة

---

(١) هل هناك فرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي؟ كثر الخلاف بين الباحثين في هذه المسألة! ففي حين يذهب الفريق الأول - كشيخنا عبد المجيد الزنداني والدكتور فهد الرومي - إلى وجود الفرق بينهما، يذهب الفريق الثاني - كالدكتور أحمد عمر حجر - في (التفسير العلمي للقرآن في الميزان)، دار المدار الإسلامي- بيروت. إلى عدم الفرق بينهما، وعرف الفريق الأول المصطلحين فقالوا: إن تعريف التفسير العلمي هو ما سبق ذكره في المتن أعلاه. وأما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ . المعجزة العلمية في القرآن والسنة لشيخنا عبد المجيد الزنداني(ص:٣٣)، وهو ضمن مجموعة بحوث نشرتها رابطة العالم الإسلامي بعنوان: تأصيل الإعجاز العلمي. طبعة سنة١٤٢١هـ. والذي يظهر للبحث أن الإعجاز العلمي أعمّ من التفسير العلمي، لأنه يكون في القرآن كما يكون في السنة، وعلى هذا فكل تفسير علمي صحيح، هو إعجاز علمي وليس العكس بصحيح، وإنما اشترطنا صحة التفسير العلمي لأن يكون إعجازاً علمياً، لأن عدم صحته يعني أنه تكلف مردود لا ينبغي التعويل عليه والله أعلم.

(٢) ينظر: القاموس المحيط للفيروزابادي(ص: ١٠٠٧).

(٣) هو الدكتور أمين الخولي أحد أعضاء المجمع اللغوي بمصر. ولد في قرية شوشاي بالمنوفية سنة١٣١٣هـ، وتعلم بالأزهر وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي وعين أستاذاً في الجامعة المصرية (القديمة) ثم كان وكيلاً لكلية الآداب إلى سنة ١٩٥٣م فمديراً للثقافة العامة بوزارة التربية

يتناقلها الكُتَّاب من بعده سواءاً أشاروا إلى ذلك أم لا، وسواءاً زادوا على هذا التعريف كلمات أو أنقصوها.

وقد عرف الخولي التفسير العلمي بأنه: هو التفسير الذي يُحَكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها [1].

وإذا تأملت التعريف وجدت أن قوله: (يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن) اعتراف بالتكلف في ربط الآية بالحقيقة العلمية، وهذا نقص في التعريف لأنه ليس كل التفسير العلمي كذلك، وإنما ينطبق هذا على المبالَغ فيه.

ولهذا انتقد الدكتور فهد الرومي هذا التعريف مبيناً موضع قصوره[2]، ثم قال: (والذي يظهر لي – والله أعلم – أن التعريف الأقرب إلى أن يكون جامعاً مانعاً أن يقال: المراد بالتفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز القرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان) [3]، وهذا تعريف أدق

والتعليم إلى سنة ١٩٥٥م، وبها أحيل إلى المعاش ومثل مصر في عدة مؤتمرات. وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ. ينظر: الأعلام للزركلي(١٦/٢).

(١) ينظر كلاً من: التفسير معالم حياته منهجه اليوم للخولي(ص: ١٩-٢٠)، دار الكتاب اللبناني. الطبعة الأولى: ١٩٨٢م، والتفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٣٢١/٢)، ولمحات في علوم القرآن للصباغ(ص: ٢٩٣).

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي(٥٤٩/٢).

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وبالاختيار أحق..! ويرجع سبب الاختيار إلى أمرين اثنين هما:

١) أن قوله: (لربط) تعبير دقيق أيضاً فهو يشمل ما هو تفسير وما هو من قبيل الاستئناس بالآية.

٢) أن قوله: (وصلاحيته لكل زمان ومكان) ضابط قوي يخرج به ما كان تسرعاً متكلفاً لا يثبت أمام تقدم العلم! هذا بالنسبة للتعريف.

وأما مبدأ ظهور هذا التفسير فقد اتفق العلماء على أن الإمام الغزالي[1] – رحمه الله – من أوائل من تكلم عنه ومن المعلوم أن الإمام الغزالي توفي سنة ٥٠٥هـ وهذا يعني أن الحديث عن التفسير العلمي لم يكن من مبتدعات لسان هذا العصر، وإنما يرجع مبدأ ظهوره إلى أواخر القرن الخامس الهجري[2].

فإن قلتَ: وكيف جعلت المبالغة فيه من أسباب التكلف عند المعاصرين بالرغم من ظهوره عند المتقدمين؟! أوليس الأولى أن يكون ضمن الأسباب

---

(١) هو الشيخ الإمام البحر حجة الإسلام أعجوبة الزمان أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط. ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ، ولازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، حتى صار عين المناظرين. رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف. من كتبه (إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، محك النظر) توفي سنة ٥٠٥هـ. ينظر ترجمته في: السير للذهبي(٣٢٢/١٩)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي(١٩١/٦)، والأعلام للزركلي(٢٢/٧).

(٢) ينظر كلاً من: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٣٢١/٢)، ولمحات في علوم القرآن للصباغ(ص: ٢٩٣)، واتجاهات التفسير في العصر الراهن للمحتسب(ص: ٢٤٧).

المشتركة؟!

والجواب: إن سبب تصنيف الباحث للمبالغة في التفسير العلمي ضمن أسباب التكلف عند المعاصرين هو أن هذا التفسير اشتهر أمره وذاع صيته عند المعاصرين أكثر مما هو عند المتقدمين، بل لا مقارنة بين ذلك! ووجد الإلحاح الشديد عليه حتى ظهرت تفاسير تحمل عنوان التفسير العلمي، قال الدكتور الذهبي: (إن هذا اللّون من التفسير - أعنى التفسير العلمي..- قد استشرى أمره في هذا العصر الحديث)[١]، وقال: (وراجت هذه الفكرة [أي فكرة التفسير العلمي] في العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما أُلِّفت بعض التفاسير التي تسير على ضوء هذه الفكرة)[٢].

ومن جهة أخرى فإن معارك الخلاف بين العلماء المعاصرين في هذه القضية أشد ضراوة مما كان في السابق.

فإذا كان الإمام الغزالي والفخر الرازي والسيوطي على رأس الفريق المؤيد لهذه الفكرة قديماً، فإن في هذا العصر مئات بل آلاف المؤيدين لهذه الفكرة، والذين تنوء بذكرهم هذه الصفحات، وفي المقابل إذا كان الإمام الشاطبي وأبي حيان من أشهر المعارضين لهذه الفكرة قديماً، فإن في هذا العصر كذلك مئات المعارضين[٣].

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٣٥).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) للإستزاده في معرفة أقوال المؤيدين والمعارضين قديماً وحديثاً ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع =

والمذهب الصحيح في المسألة هو التوسط والاقتصاد، فلا رفض مطلق ولا تأييد مطلق، فإن مما لا شك فيه أن لبعض الآيات تفسيراً علمياً صحيحاً لا يمكن تجاهله، ولا تنفع المكابرة في رده، وذلك مثل التفسير العلمي لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. فضيق الصدر عند الصعود في طبقات الفضاء العلوية فسّره العلم الحديث بأنه ناتج عن نقص الأكسجين[2] وهذا تفسير علمي صحيح لا مجال للطعن فيه.

أما الحماس المفرط والمبالغة في موافقة الاكتشافات العلمية فهذا هو المنهج المحفوف بالزلل، وهذا الذي يحمل صاحبه على التكلف، وهو المقصود بالذم.

ولهذا قال الدكتور محمد دراز – حفظه الله -: إن (الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن، بحيث أصبحت خطراً على الإيمان ذاته[3]لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى

عشر لفهد الرومي فقد أطال الحديث عنها في المجلد الثاني من(ص: ٥٥٠-٦٠٠).

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

(٢) ينظر: تفسير المراغي(٨/٢٥)، وتفسير الشعراوي(٥٧٩٤/١)، والتفسير الميسر للدكتور عائض القرني(ص:٢٢١)، مكتبة العبيكان- الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. ومباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم(ص:٢٢٧)، دار القلم – دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) وهذا من الآثار السيئة على العقيدة التي تخلفها المبالغة في التفسير العلمي كما سيأتي في الآثار.

النص باستنطاقه ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن تعول أكثر مما يجب على آراء العلماء)، إلى أن قال: (وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث نرى أن من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن)[(١)].

إذن فالمنهج الأسلم أن لا نبالغ في موافقة الاكتشاف العلمي؛ ولكن ما هو الضابط الذي نميز به التفسير العلمي الصحيح، وما هو مبالغ فيه؟

والجواب: إن الضابط هو الشروط[(٢)] التي وضعها العلماء لقبول التفسير العلمي فما وافق هذه الشروط قبلناه، وأما جانبها فأَجْدِر به أن نُسميه تكلف.

والشروط التي وضعها العلماء هي:

١) القرآن كتاب هداية وليس المراد منه الإفاضة في العلوم الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو غير ذلك، فلا ينبغي الإسراف في الاشتغال بها.

٢) ترك الإفراط والتفريط في التقيد بالمنهج القرآني وألا يُحمَّل النص ما لا يحتمل.

٣) مرونة الأسلوب القرآني فينبغي أن نعلم أنه يقبل عدة وجوه للتفسير فلا تلزم الآية أحد وجوه تفسيرها.

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز(ص: ١٨٨)، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة: الدكتور السيد محمد بدوي. دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت الطبعة الخامسة: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٢) منهم من يطلق عليها شروط كما فعل الزرقاني، ومنهم من يطلق عليها ضوابط كما فعل مصطفى مسلم.

٤) يجب أن نفسر القرآن بالحقائق العلمية وليس بالنظريات.

٥) عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة.

٦) اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة. (١)

بهذه الشروط والضوابط نستطيع أن نضبط مسألة التفسير العلمي حتى نحافظ الكتاب العزيز من العبث.

وبهذا تعلم أن المأخذ الذي ينتقده الباحث - والباحثون من قبله - على أرباب التفسير العلمي، ليس مُطلق التفسير العلمي وإنما (التكلف في تحميل النصوصِ ما لا تحتمله حرصًا على ربطها باكتشافِ علميٍّ) (٢).

وحيث قد سبق الكلام على تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري مع التمثيل - وكذا ما شابهه من المؤلفات - فإن ذلك يُغني عن تكرار التمثيل هنا، فقد علمت أن هذا التفسير وما شابهه قد بُني أصلاً على أساس المبالغة في موافقة الاكتشاف العلمي، وهذا هو السبب الذي جعل أصحابها يقعون في التكلف.

ومن الجدير بالإشارة أن ننوه على أن كثيراً من الذين يهتمون بالتفسير العلمي يتعرضون أثناء الحديث عن تفسيرهم إلى ما يسمى بالإعجاز العددي (٣)

---

(١) راجع تفصيل هذه الضوابط أو الشروط في: مناهل العرفان للزرقاني(٢/١٠١)، ومباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم(ص: ١٦٠-١٦٤).

(٢) نحو منهج أمثل لتفسير القرآن للدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي(ص: ٢٢) وهو بحث مقدَّم للمؤتمر الإسلامي العالمي عن مناهج المفسرين وشُرَّاح الحديث بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للعام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م. المحور الرابع: المناهج التجديدية في تفسير القرآن الكريم.

(٣) الإعجاز العددي هو ما ورد في القرآن الكريم من موافقات مبنية على العد والإحصاء مما يعجز الخلق عن الإتيان بمثله. ومن أحسن من تكلم عنه فيما وقفت عليه من البحوث فضيلة شيخنا =

وقد دلّت الشواهد المتظافرة، والأدلة المتكاثرة، على بروز التكلف في ذلك، قال فهد الرومي: إن (الدارس في هذا الفن يدفعه حرصه على إثبات هذا الإعجاز العددي إلى التمحّل والتكلف في سبيل الوصول إلى أعداد متطابقة، فيعُدُّ مرة ما لا يَعُدّ ويحذف أخرى من غير سبب) [(١)]، ولعل هذا السبب حدا ببعض المبالغين أن يطلق عليه صفة البدعة فقد قال الدكتور عبد الله يوسف البديع: (وهو من بدع التفاسير، ولاحق بالتفسير بالرأي المذموم، فهو لا يتخرج على لغة ولا على أثر، كما أننا لم نر من تكلم فيه أتى بمثال صالح مقنع، بل لا تخريج له إلا التكلف!) [(٢)].

والباحث وإن كان لا يوافق على إطلاق هذه التسمية على الإعجاز العددي إلا أنه يوافق على وجود بعض التجاوزات من بعض الباحثين، ولكن هذا يبيح

الدكتور صالح يحيى صواب في بحثه الموسوم بـ(الإعجاز العددي في القرآن دراسة نقدية)، وقد نقلنا هذا التعريف عنه. والدكتور أحمد خالد شكري في بحثه الموسوم بـ(وقفات مع الإعجاز العددي والمؤلفات فيه)، إذ فيهما من الإنصاف ما ليس في غيرهما. ومن الجدير بالذكر أن شيخنا صالح صواب – حفظه الله- قد صنف الذين تناولوا الإعجاز العددي إلى خمسة أصناف: ويهمنا أن نذكر ما يلتصق بالبحث حيث قال الصنف الأول: هم الذين بالغوا في ذكر هذا النوع من الإعجاز، وتكلفوا فيه وحملوا القرآن ما لا يحتمله. ينظر تفصيل الكلام عن الأصناف الخمسة في مجلة الكلية العليا للقرآن الكريم(ص: ٢١) العدد السابع٢٠٠٩م.

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي(٢/٦٩٩).

(٢) المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع(ص: ٣٩١)، مركز البحوث الإسلامية – بريطانيا. توزيع مؤسسة الريان – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م. وواضح أن قوله: (لم نر من تكلم فيه أتى بمثال صالح مقنع)، يُشَمُّ منه رائحة المبالغة، ولذا لا يميل الباحث إلى هذا الرأي، والحق أن منه ما هو صحيح ومنه ما مبالغ فيه.

لنا أن نتجاوز نحن أيضاً في الإنكار، بل الانصاف أن يظل الإنكار موزون بميزان ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[1].

ومن أمثلة الإعجاز العددي التي ظهر فيها التكلف واضحاً ما ذُكر أن إبليس تكرر ذكره في القرآن الكريم (١١مرة) فقط! وبنفس العدد (١١مرة) ذُكر الأمر بالاستعاذة منه[2].

وإذا نظرنا إلى لفظ الاستعاذة وجدنا المؤلف لا يورد إلا ما هو بلفظ (أعوذ)، ولفظ (فاستعذ)، أما الألفاظ (عذت)، (أعيذها)، وغيرها، فإنه لا يعد شيئاً منها مع أن بعضها نص بالاستعاذة من الشيطان نحو: ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[3]. فإن قلت: إنه نص على ما هو أمر بالاستعاذة من إبليس! فالجواب: إنه عد من الآيات ما ليست أمراً بالاستعاذة منه، نحو: ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[4]، فأين الأمر بالاستعاذة هنا؟ بل أين الاستعاذة من إبليس ؟!

وعلى هذا كله لا تستقيم دعوى الإعجاز فيما ذُكر، فالتكلف فيه واضحاً بيناً والله أعلم[5].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٥٢.

(٢) الإعجاز العددي للقرآن الكريم لعبد الرزاق نوفل(ص: ١٥)، من الجزء الثالث، مطبوعات الشعب – مصر. الطبعة الثالثة.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٣٦.

(٤) سورة مريم الآية: ١٨.

(٥) هذا خلاصة ما ذكره فهد الرومي في الرد على هذه الدعوى ينظر: اتجاهات التفسير في القرآن الرابع عشر (٢/٦٩٩-٧٠٠).

وأخيراً: إن الركض وراء المكتشفات العلمية ومحاولة تفسير النصوص الشرعية بها - القرآن والسنة - أمر يحتاج إلى تريّث وتحفّظ، ما لم فسيقود ذلك إلى هفوات مهلكة، فالحذر الحذر أن تقودنا عواطفنا إلى الحماس والاندفاع نحو المهالك، فإن ذلك شأن الأحمق، والله أعلم بالحق.

المطلب الثاني: عدم التمكن من شروط المفسر

العدم ضد الوجود، والتمّكُن في اللغة مأخوذ من المُكْنة بالضم وهي القدرة والاستطاعة[١]، فيقال رجل متمكن من كذا: أي قادر عليه ويستطيعه.

ومعناه في الأوساط العلمية: الرسوخ وثبات المعلومة والقدرة على إيصالها، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[٢].

والشروط جمع شرط وهو في اللغة: إلزام الشيءِ والتزامُه[٣]. أي وجوب إيجاد الشيء على جهة اللزوم، ثم استمرار لزوم.

والمراد به في اصطلاح البحث: ما يلزم توفره في المفسر.

وأما المفسر فهو مصطلح لم يحظ بتحرير تعريفه عند المتقدمين، بالرغم أن (كل أهل فنّ عرفوا بمن اشتغل بفنّهم؛ فالفقهاء عرفوا بالفقيه، والأصوليون عرفوا بالأصولي، وهكذا)[٤]، كما أن من الملاحظ عليهم أنهم يتوسعون في هذا المصطلح، فقد كانوا يطلقون لقب المفسر على كل من له أدنى كلمة في التفسير! وهذا ما استنكفه المعاصرون فحاولوا إيجاد تعريف محدد للمفسر.

قال أحمد قشيري سهيل: (ومن خلال اطلاعنا على المصادر والمراجع لم

---

(١) ينظر: تاج العروس للزبيدي(٣٦/١٩٢).

(٢) سورة آل عمران الآية: ٧

(٣) لسان العرب لابن منظور(٧/٣٢٩)، والقاموس المحيط للفيروزابادي(ص:٨٦٩)، وتاج العروس للزبيدي(١٩/٤٠٤).

(٤) قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي (١/٣٣)، دار القاسم – الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

نجد- على قصور منا- من عرف المفسر سوى اثنين هما: حسين الحربي والدكتور مصطفى مسلم)[١].

قلت: فأما حسين الحربي فقد قال في تعريفه: (هو من له أهلية تامة يعرف بها مراد الله تعالى بكلامه المتعبد بتلاوته قدر الطاقة، وراض عن نفسه على مناهج المفسرين، مع معرفته جملاً كثيرة من تفسير كتاب الله، ومارس التفسير عملياً بتعليم أو تأليف) [٢].

وأما الدكتور مصطفى مسلم فقد قال في تعريفه: (هو الذي وجدت لديه أهلية الكشف والبيان عن معاني القرآن الكريم حسب الطاقة البشرية) [٣].

ونحن بدورنا في هذا البحث قد وفقنا الله فوجدنا من عرفه كذلك وهو الدكتور مساعد الطيَّار، وبهذا نكون قد عززنا الاثنين بثالث، وقد عرفه بقوله: (هو من كان له رأي في التفسير وكان متصدياً له) [٤].

ويظهر للباحث أن التعريفين الأولين أجمع وأمنع، لوجود ضابطين قويين هما: الأهلية التامة والممارسة العملية، وأما التعريف الثالث فليس فيه من الدقة مثل ما في الأولين، لأن كون الشخص متصدياً للتفسير وله رأي فيه ليس كافياً

---

(١) المفسر شروطه، آدابه، مصادره أحمد قشيري سهيل(ص: ٧١)، مكتبة الرشد ناشرون- الرياض. الطبعة الأولى:١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. وهي عبارة عن رسالة علمية تأصيلية، وتُعد من أفضل ما كتب في هذا الموضوع.

(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور الحربي(١/٣٣).

(٣) مناهج المفسرين (القسم الأول) التفسير في عصر الصحابة للدكتور مصطفى مسلم(ص: ١٥)، دار المسلم-الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ.

(٤) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر لمساعد بن سليمان الطيار(ص: ٢١٥).

لأن يطلق عليه لقب المفسر! فكم من متصدر للتفسير وليس له أهليّة لـــذلك! ومن ثَمّ ماذا نصنع برأي صادر عن غير أهلية؟! أليس خليق أن يقال عنه بأنـــه متكلف!! فعُلِم بهذا أن التعريفين الأولين أولى.

وشروط المفسر قد تكلم عنها العلماء كالسيوطي وغيره، فمنهم من توسع ومنهم من أوجز وسنذكر فيما يلي الخلاصة(١):

١) أن يكون صحيح العقيدة.

٢) أن يكون ملتزماً بالواجبات الشرعية.

٤) أن يتبع المنهج الأمثل في تفسير القرآن (التفسير بالقرآن ثم بالسنة ثم...ثم...).

٣) أن يسلم من اتباع الهوى.

٤) دقة الفهم التي تُمكّن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

٥) العلم باللغة العربية وفروعها: من لغة وتصريف واشتقاق وبلاغة وبيان وغيرها.

٦) العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، و القراءات؛ وأســـباب الـــترول،

---

(١) أخذنا هذه الخلاصة من كل من: الإتقان للسيوطي(٢/٤٧٧) وما بعدها، ومباحث في علوم القرآن للقطان(ص: ٣٤٠-٣٤٢)، ولمحات في علوم القرآن للصباغ(ص: ١٩٤-١٩٥)، ودراسات في علوم القرآن لفهد الرومي (ص: ١٦٦-١٦٨)، مكتبة التوبة – الرياض. الطبعة السابعة: ١٤١٩ه-١٩٩٨م. والتفسير ورجاله، لمحمد محمود حوّا (ص: ١٩-٢٠)، دار نور المكتبات. الطبعة الأولى سنة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. وقد تحدث أحمد قشيري سهيل في رسالته (المفسر شروطه، آدابه، مصادره) عن كلما ينبغي توفره في المفسر فجمع وأوعى.

والناسخ والمنسوخ، وعلم الحديث، وعلم التوحيد، وعلم الأصول، ونحو ذلك. وخاصة أصول التفسير.

٧) الإلمام بالعلوم الاجتماعية والتطورات العصرية، حتى قال الطاهر ابن عاشور: (يوشك أن يكون المفسر المتوسع محتاجاً إلى الإلمام بكل العلوم)[(١)].

هذه هي أهم الشروط التي يجب توفرها لمن أراد أن يتصدى للتفسير، ولكنا إذا نظرنا إلى ساحة التفسير عند المعاصرين سنجد أن كثيراً ممن تناولوا علم التفسير ليست لديهم أدنى هذه الشروط! ولذلك تجد أحدهم يقع في خطأ ما كان ينبغي له أن يقع فيه والسبب هو عدم تمكنه من شروط المفسر خصوصاً علم اللغة.

وغالب الذين يقعون في مثل هذا التكلف هم من الكُتّاب والمفكرين؛ خذ على سبيل المثال:

تحدث أحد رجال الفكر الإسلامي في حفل ديني فتعرض أثناء كلمته لتفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾[(٢)] فقال سيادته: إن معنى (إيمانكم): أي وحدتكم، و(كافرين): أي متفرقين)[(٣)] وهذا تكلف ساذج! فمتى كان الإيمان في اللغة يعني الوحدة؟! وفي أي قاموس كان الكفر يعنى التفرق؟! ويتبين من هذا المثال أن الرجل يفتقر

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(١/٢٤).

(٢) سورة آل عمرن الآية: ١٠٠.

(٣) ينظر: شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي لتوفيق علي وهبة(ص:٧).

إلى أدنى أساسيات اللغة التي هي أحد شروط المفسر بل أهمها!

وهذا السبب أيضاً - أعني عدم التمكن من شروط المفسر - هو الذي أوقع كثيراً من الشانئين على الإسلام؛ (ولهذا رأينا المستشرقين أفحش خطأ من غيرهم كلما تناولوا الحديث عن القرآن لضعف مادتهم اللغوية وبعدهم عن التمكن من الدراسات الإسلامية، وهـذا في المخلصين للبحث الحر! فما بالك بالمغرضين!)[١].

ولا يفوتنا أن نُذكِّر بأن الدكتور عبد المتعال الجبري قد ذكر في كتابه (شطحات مصطفى محمود) أن السبب الذي حمله على القول بعدم نشر تكلفات (مصطفى)، التي سبق التمثيل ببعضها، هو عدم اختصاص الكاتب وأنه لا تتوفر فيه شروط المفسر. ونفس هذا السبب تجده عند علي العويشز الذي رد على كتاب (الهيروغليفية تفسر القرآن)[٢].

ويبقى في النفس تساؤل! هذا التساؤل يقول: لماذا يتعرض الكُتّاب والمفكرون للتفسير وهم يعلمون أنهم لم يتمكنوا من شروط المفسر؟!.

والجواب لأنهم يعتقدون أن كل مسلم له أن يفهم من كتاب الله ما يشاء. وهذه قضية أثيرت في العصر الحديث وكثر حولها الجدل!

و(لاشك أن مِن حق كل أحد أن يفهم كلام ربه جل وعلا... ولكن لا يحل بوجه من الوجوه أن يفسره للناس من ليس من ذوي الدراية به والأهلية،

---

(١) مقاصد القرآن الكريم للإمام الشهيد حسن البنا(ص: ١٣)، دار الشهاب. طبعة سنة: ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

(٢) ينظر الرد على كتاب الهيروغليفية تفسر القرآن لعلي العويشز (ص: ٢٢)

فمن لم تتوفر فيه شروط المفسر يحرم عليه أن يفسر كلام الله تبارك وتعالى، صيانة للقرآن الكريم من جهل الجاهلين، وعبث العابثين، وضلال المضلين) [١].

وهذا هو المنهج الذي وضعه السلف رضوان الله عليهم وأوصوا به؛ قال النووي - رحمه الله -: (ويحرم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها والأحاديث في ذلك كثيرة والإجماع منعقد عليه) [٢] وقال أيضاً: (وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته فحرام عليه التفسير لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله) [٣]

وفي الجملة فإن (الذي يجب أن يتنبه له كل باحث أو محاضر أو خطيب أو داعية أن يعلم أنه مطالب بمراعاة أصول التفسير وقواعده، ليكون ما يعرضه على الناس من التفسير العام حصيلة دراسة مبنية على المنهج السليم) [٤].

وبهذا نوصد الباب أمام أولئك الخرّاصين الذين يخرجون على الناس بين الحين والآخر بفهوم ملتوية يزعمون أنهم فهموها من القرآن، وما أكثرهم في الزمان والله المستعان.

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي(ص: ١٥٤)، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة ناشرون– بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) علوم القرآن لنور الدين عتر(ص: ١١٥).

المطلب الثالث: دعوى التجديد

الدعوى في اللغة الزعم. تقول: ادَّعيت الشيء إذا زعمتُه لي حقاً كان أو باطلاً[(١)].

والتجديد في اللغة مأخوذ من الجِدة، وهي مصدر الجَدِيدِ[(٢)]، والجَديد من الأشياء ما لم يَكُن بعدُ فوقع حديثاً [(٣)] و جَدَّ الشيء يَجِد بكسر الجيم صار جديداً وهو نقيض الخلق[(٤)] يُقال جَدَّدت الشيء أي: أعَدْته جَدِيداً[(٥)].

واعلم أن التجديد ليس مصطلحاً جديداً بالنسبة علينا معشر المسلمين! فقد جرى به لسان من لا ينطق عن الهوى بأبي هو وأمي ﷺ.

ففي سنن أبي داؤود من حديث أبي هريرة رضي الله عن أن النبي ﷺ قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[(٦)]. ومعنى التجديد في الحديث (إحياء ما اندرس من العمل بِالكتابِ والسنة وَالأمر

---

(١) لسان العرب لابن منظور(١٤/٢٥٧)، وتاج العروس للزبيدي(١/٨٣٨٢).

(٢) لسان العرب لابن منظور(٣/١٠٧)، وكتاب العين للفراهيدي(٦/٧)، وتهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب(١٠/٢٤٩)، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

(٣) المخصص لابن سيدة(١/٣٩٧).

(٤) لسان العرب لابن منظور(٣/ ١٠٧)، ومختار الصحاح للرازي(ص: ١١٩).

(٥) لسان العرب لابن منظور(١٤/٢٥٧)، وتاج العروس للزبيدي(١/٨٣٨٢).

(٦) سنن أبي داود(٤/ ١٧٨)، حديث رقم: ٤٢٩١، تعليق الألباني، دار الكتاب العربي- بيروت، وصححه الألباني، ينظر: السلسلة الصحيحة(٢/١٤٨)، حديث رقم: ٥٩٩.

بمقتضاهما)[١].

وبعبارة أخرى (إعادة نضارته ورونقه وبهائه، وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه، ونشره بين الناس)[٢].

وأول من سُمي بالمجدد عند المسلمين هو عمر بن عبد العزيز ﷺ[٣].

وأما التجديد في التفسير فنقصد به: (التجديد الصحيح السليم، المنضبط بالضوابط العلمية، الملتزم بالأسس المنهجية، التجديد القائم على الإبداع والتحسين والجدة، والاستفادة من العلوم والمعارف والثقافات المعاصرة)[٤].

وما من شك أن (التجديد في التفسير.. أمرٌ ضروريٌّ لمواكبة روح العصر ومعالجة قضاياه وتقديم الحلول الحاسمة لمشكلاته المزمنة وأزماته المتفاقمة، وأمراضه التي استعصت على تلك الحلول المستوردة، القاصرة البعيدة عن هدي القرآن)[٥].

لكن يظل التجديد مشروطاً بالضوابط والأسس العلمية المتفقة مع مقاصد القرآن نفسه، لا أن نفهم التجديد فهماً أعرجاً معوجاً لا تستقيم قدمه في طريق التجديد الصحيح.

---

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي(١١/٢٦٠).

(٢) التجديد في الإسلام الجزء الأول(ص: ٣٩)، ضمن سلسلة كتاب المنتدى التي تصدر عن المنتدى الإسلامي.

(٣) ينظر: الاجتهاد والتجديد في الشريعة الإسلامية للخواص الشيخ العقاد(ص: ١٧٥)، دار الجيل – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(٤) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين للخالدي(ص: ٤٥).

(٥) ينظر: نحو منهج أمثل لتفسير القرآن لأحمد الشرقاوي(ص:٣١).

إن من المؤسف حقاً أن يفهم كثير من المعاصرين أن التجديد يعني (الانفلات والفوضى، والقول في القرآن بدون علم، وتحريف معاني الآيات ودلالاتها، لتوافق أهواء هؤلاء، وتتفق مع مقررات الغربيين والشرقيين المخالفة لكتاب الله) [١].

لقد (اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائغة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم مَن حسب أن التجديد -ولو بتحريف كتاب الله- سبب لظهوره الله وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسِّرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة، ثم طلع على الناس بجديده في تفسير كتاب الله... جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين)[٢] وإنما أصله التكلف وعموده التعسف.

أجل هذا الذي نُنكره !... نُنكر(أن يزعم زاعم أنه يعيد قراءة القرآن، أو قراءة السنة من جديد، قراءة معاصرة، غير مقيدة بأصول التفسير، ولا بأصول الحديث، ولا بأصول الفقه، ولا بمشهور اللغة، لتكون المحصلة: الإتيان بشرع جديد،... وهي وسيلة سهلة لتبدل الدين باسم القراءة الجديدة له، فقد كان الذين من قبلنا يكتبون الكتاب ثم يقولون هذا من عند الله. والقرآن محفوظ لا يمكن فيه مثل هذا التبديل؛ فلم يبق إلا التحريف [أي المتكلف] تحت ستار الفهم المعاصر، والتجديد المتطور) [٣].

---

(١) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين للخالدي(ص: ٤٥).

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٥٢).

(٣) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي(ص: ٤١١).

كما ننكر أن يتطاول قزم فيقول: إن (من الحقائق التي يجب التسليم بها أن القرآن الشريف يجب أن يعاد في فهم تعاليمه وتطبيقها من عصر إلى عصر، بل من جيل إلى جيل، وعلى هذا لا بد من ظهور تفاسير جديدة متمشية مع روح العصر وتقدم العلم، يؤلفها المطلعون الواعون من الأحرار والمفكرين)(١).

وتأمل قوله: (يؤلفها المطلعون الواعون من الأحرار والمفكرين)، تجد أن التجديد الذي يقصده هو التجديد الحر الذي ينادي به أحرار الفكر...!!!

أحرار الفكر الذين يدّعون أنهم تحرروا من قيود الجمود إلى حرية التجديد، وهؤلاء في الحقيقة (تحللوا و لم يتحرروا جرياً وراء بريق الشهرة الزائفة وغرور التجديد، وحملوا القرآن في تفسيره ما لا تحتمله آياته من أقوال ومذاهب ونظريات هي أقرب إلى التعسف والتحريف منها إلى التفسير والتحرير فخصصوا العام وأطلقوا المقيد، وقيدوا المطلق، ونسخوا المحكم، وأحالوا الظواهر، وجعلوا ما للآخرة منه للدنيا وما للدنيا للآخرة)(٢).

وهذا المنهج التجديدي هو الذي ننكره ولا نقره، ونبغضه كما نرفضه، ونجحده ولا نؤمن به! ومن العجيب أن غالب تكلفات أدعياء التجديد تتركز حول آيات الأحكام والحدود، كحكم التعدد والربا، وكحد السرقة و الزنا مثلاً، وكذلك تتركز تكلفاتهم حول الآيات التي تتحدث عن علاقة المسلمين مع

(١) ثورة الإسلام لأحمد زكي أبو شادي (ص: ٣٥)، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت. بواسطة أسباب الخطأ في التفسير لطاهر يعقوب.

(٢) نحو منهج لتفسير القرآن لمحمد الصادق عرجون (ص: ١٩)، الدار السعودية للنشر –جدة. الطبعة الأولى: ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

غيرهم. وهذا يكشف إلى حد كبير عن سوء قصد أولئك المتسترين بدعوى التجديد.

فمثلاً جاء في كتاب (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي): قرأت في السياسة الأسبوعية الغرَّاء مقالاً بهذا العنوان، حوى أفكاراً أثارت في نفسي من الرأي ما كنت أريد أن أُرجئه إلى حين، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد، فإن الناس قد بَعُد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذاً في نظرهم، وإن كان في الواقع صواباً وما أسرعهم في ذلك إلى التشنيع والطعن في الدين، والمحاربة في الرزق، فلا يجد من يرى شيئاً من ذلك إلا أن يكتمه أو يُظهره بين أخصائه، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم، وتضيع بهذا على الأمة آراء نافعة في دينها ودنياها، ولكني سأقدم على ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلى حين، وسأجتهد ما أمكنني في أن لا أدع لأحد مجالاً في ذلك التشنيع الذي يقف عقبة في سبيل كل جديد)[1].

وهذا تمهيد من الكاتب ليستميل القارئ إلى قبول تكلفه في تفسير آية حد السرقة وحد الزنا؛ الذي شرع فيه قائلاً: (فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو قوله تعالى: (فاقطعوا)، والأمر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالى: (فاجلدوا) فنجعل كلاً منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾[2] فلا يكون قطع يد السارق حداً مفروضاً، لا

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٥٦)، نقلاً عن كتاب التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣١.

يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقة، بل يكون القطع في السرقة هو أقصى عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أُخرى رادعة[١]، ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولى الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان. وهكذا في حد الزنا سواء أكان رجماً أم جلداً، مع مراعاة أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج، لعدم النص عليه في القرآن الكريم، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي، مع أنّا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصاً ولا ألغينا حداً، وإنما وسَّعنا الأمر توسيعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عُرِف عنها من إيثار التيسير على التعسير. والتخفيف على التشديد)[٢]. هذا هو التجديد الذي يقصد هؤلاء ! إنه التجديد الذي يدعو إلى إعادة النظر في أحكام قطعية لا تحتاج إلى تجديد! لأن الذي وضعها قد علم أنها تصلح لكل زمان ومكان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣].

ورجل آخر دفعه حب التجديد إلى يفسر قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[٤]بقوله: (إن الشهر هنا ليس هو المدة الزمنية المعروفة! بل هو من

---

(١) وهذا نوع آخر من التكلف في تفسير هذه الآية يُضاف إلى قول محمد أبو زيد في تفسيره (الهداية والعرفان) الذي سبق الإشارة إليه، بأن حد السرقة لا يُقام إلا على من يُئِسَ من علاجه إلا بالقطع. راجع صفحة: ٥٥.

(٢) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي (٣٥٧/٢)، نقلاً عن: السياسة الأسبوعية ص: ٦من العدد السادس من السنة السادسة (٥ فبراير سنة ١٩٣٧).

(٣) سورة الملك الآية: ١٤.

(٤) سورة القدر الآية: ٣.

الشُهرة والإشهار، فليلة القدر خير من ألف إشهار! (ومطلع الفجر) ليس هو طلوع الفجر العادي الذي ينكشف فيه برقع الليل عن وجه الصباح، بل (الانفجار الكوني) العظيم، الذي به ينهدم نظام هذا العالم، وتقوم الساعة)[(١)].

وهذا التجديد الذي زعمه في تفسير هذه السورة ليس له أصل من لغة ولا من شرع، بل ولا حتى من عُرف! وقد قرأنا تفاسير المعاصرين من أصحاب التجديد الصحيح فما وجدنا فيها مثل هذا التكلف؛ فهم وإن اختلفت عباراتهم في وصف جمال هذه السورة إلا أنهم متفقون على أن المراد بالشهر هو الزمن المعروف؛ وأن طلوع الفجر هو الفجر المعروف[(٢)].

ألا وإن مما(يثير الدهش والأسف أن بعضاً من الأفاضل الأكابر الذين أجادوا بيان هداية القرآن في بعض بحوثهم الدراسية للقرآن الكريم، قد جرفهم تيار التجديد فانزلقوا في منحدر التأويل المتعسف،... ولو أن هؤلاء الأجلاء صحبهم التوفيق فقصروا دراستهم القرآنية على بيان هداية الكتاب الكريم بعيداً عن تعسف التأويل لمجرد الرغبة في التجديد، وإمامة المجددين، لكان للمسلمين من

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن للقرضاوي (ص: ٣٥٦) نقلاً عن: الكتاب والقرآن لمحمد شحرور، وقد بحثت عن هذا الكتاب فلم أجده، لكن وقفت على الكثير من العناوين التي ترد عليه، والحقيقة أن كثرة المؤلفات التي ترد عليه تنبئ عن كثرة التكلفات التي وقع فيها. ومن العناوين التي وقفت عليها على سبيل المثال: (بيضة الديك) ليوسف الصيداوي، وكتاب (تهافت القراءة المعاصرة) للدكتور المحامي منير طاهر الشواف، (والقرآن وأوهام القراءة المعاصرة) لجواد عفانه وهو أجود ما اطلعت عليه، ولولا خشية الإطالة لقلّدتُك من فصوص دُرَرِه عِقْداً.

(٢) ينظر على سبيل المثال: في ظلال القرآن لسيد قطب(٦/٣٩٤٥)، والتفسير المنير للزحيلي(٣٠/٣٣٢).

وراء هذه الدراسات القرآنية دعائم يقوم عليها تفسير للقرآن يسد بعض الفراغ الذي يشعر به العالم الإسلامي)[١].

وقبل أن نختم هذا المطلب نذكر القارئ بأن من الكتب التي يزعم أصحابها التجديد كتاب (في ظلال دلالات سورة الكهف بمنظور جديد معاصر). لسليم الجابي، الذي سبق التمثيل ببعض تكلفاته، وأما لماذا كتب في العنوان بمنظـــور جديد فهذا ما يجيبنا عنه الكاتب نفسه حيث يقول: (لأوحي إلى القارئ الكريم بما احتواه هذا الكتاب من معلومات معاصرة لم يسبق لمفسر أن ذهـــب إليهـــا لضآلة معطيات تلك الأزمان) [٢].

أخيراً فالذي نود أن نوصله إلى الأذهان (أننا لا نضيق بأي تفسير عصـــري يمكن أن يخدم القرآن والدين، يُراعى فيه حُسن العَرض والتحليل والأســلوب الجذاب بشرط أن لا يُصرف إلى معان تجافي النص، تفتقر إلى الدليل، وتفــتح أبواب الفتنة ويجعله غرضاً لكل ذي هوى أو مرض، وبشرط أن يكون المفســر مؤهلاً لذلك برصيد كاف من علوم القرآن، متحرجاً أن يقول فيـــه بـــالرأي، محافظاً على دلالة النص) [٣].

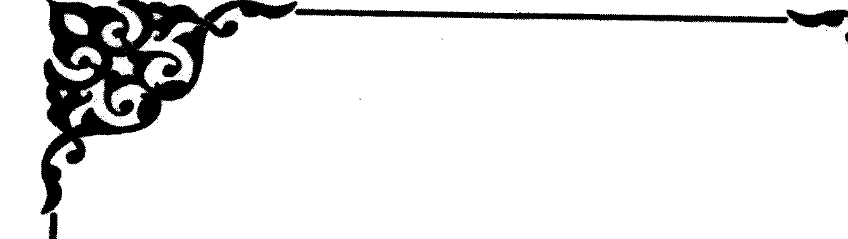
فإذا ما وجدنا تفسيراً جديداً رُوعِيتْ فيه هذه الضوابط فلا حرج في قبوله، وأما إذا لم فلا! لأن إخلال مثل هذه الضوابط هو الذي يُوقع في التكلف تحت زعم التجديد في تفسير القرآن والله أعلم وأحكم.

---

(١) نحو منهج لتفسير القرآن لمحمد الصادق عرجون (ص: ١٩-٢٠).

(٢) في ظلال دلالات سورة الكهف بمنظور جديد معاصر. لسليم الجابي (ص: ٢).

(٣) اتجاهات التفسير في العصر الحديث لمصطفى الطير(ص: ٢٤١-٢٤٢).



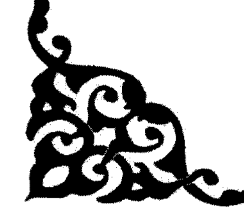
الفصل الثالث

آثار التكلف في التفسير عند المعاصرين

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تحريف الكلم عن مواضعه.

المبحث الثاني: فتح الطريق أمام المغرضين.







المبحث الأول

تحريف الكلم عن مواضعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زعزعة العقيدة.

المطلب الثاني: دعوى النسخ.

المطلب الثالث: الشذوذ ومخالفة الإجماع.




المبحث الأول: تحريف الكلم عن مواضعه

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسير عند قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[١] أي: يتأولون على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله، عز وجل، قصداً منهم وافتراء[٢].

إن تكلف تفسير القرآن وتأويله على غير مراد الله أمر لا بد وأن ينتج عنه آثاراً سيئة على حياة الفرد والمجتمع وفي هذا المبحث نسلط الضوء على أهم الآثار السلبية لذلك.

المطلب الأول زعزعة العقيدة:

الزعزعة: مصدر مأخوذ من الفعل الرباعي زعزع وهو في اللغة بمعنى تحريك الشيء[٣] والتأنيث للمبالغة، قال ابن فارس: (الزاء[٤] والعين أصلٌ يدلُّ على اهتزازٍ وحركة، يُقال: زعزعت الشيء وتزعزع هو، إذا اهتزّ واضطرب)[٥]. وغلب استعماله في التحريك بشدة فيقال: ريحٌ زعزع وزعزاع،

---

(١) سورة النساء الآية: ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٢/٣٢٣).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٨/١٤١)، ومختار الصحاح للرازي(ص: ٢٨٠).

(٤) هكذا في الكتاب؛ والأجود أن يقول: (الزاي)، لا سيما وقد قال في بداية الباب: باب الزاي(٣/٣).

(٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس(٣/٣).

وزعزوع أي شديدة[١].

والمقصود به في اصطلاح البحث: اضطراب واهتزاز الثوابت العقدية في النفوس نتيجة لاختلاف الأقوال فيها مع عدم القدرة على معرفة الصواب من الخطأ.

إن العقيدة هي القاعدة التي يُبنى عليها الإسلام، فإذا اهتزت كان إيمان المرء هشّاً سريع التأثر بأدنى شبهة، ومن هنا كان لابد في الاعتقاد من اليقين كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[٢].

ولما كانت العقيدة بهذه المكانة في الشريعة الإسلامية سعى الأعداء من أجل زعزعتها! وليس غريباً أن يسعى أعداء الإسلام – على اختلاف مشاربهم – لمحاولة زعزعة عقائد المسلمين؛ فهذا من أهم الأهداف التي يسعون لتحقيقها[٣]..!

لكن الغريب أن تُسهم تكلفات بعض المنتسبين إلى الإسلام في زعزعة عقيدة المسلمين وتشكيكهم في الثقة بدينهم!.

فَغَيرُ خافٍ على القارئ في كتب التفسير أن لبعض المفسرين تكلفات عقدية غير مقبولة، وقد عُلم من حال بعضهم رسوخ القدم في العلم، وهذا يعني أن

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٤١/٨).

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٥.

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام. للشيخ ناصر بن علي عائض حسن الشيخ(٨٩٦/٣)، مكتبة الرشد، الرياض. الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

أقوالَ مثل هؤلاء سيكون لها من القبول ما ليس لغيرها بناءاً على صدورها عن رجل من العالمين!

ولا يعتقد الباحث أن أقوالاً بهذه المثابة ستمُرُّ في حِلَق العلم والدروس العامة أو حتى على القراء في كتب التفسير ثم لا يكون لها تأثير؛ فقد اثبت الواقع بما لا يدع مجالاً للشك أن التكلف في التفسير المبني على التأويلات الفاسدة وإعمال العقل مع وجود التفسير الصحيح كل ذلك قد خلف آثاراً سيئة بدت ماثلة جلية في اهتزاز عقائد كثير من المسلمين، وهذا ما وجدنا عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني(١) يصرح به فيقول: إن (رد النصوص عقلاً أوجد أثراً بالغاً في زعزعة كثير من العقائد، وعدم احترام نصوص الوحي الاحترام اللائق، والتهوين من شأنها)(٢).

وما قاله قد شهدت له الأيام وصدقه الواقع، خصوصاً عند المفسرين المعاصرين؛ فقد خاضوا في كثير من المسائل الغيبية والعقدية كمسألة السحر وعالم الجن والملائكة وغيرها(٣) وحكّموا العقل فيها فأتوا بأقوال متكلفة متعارضة مع الثوابت العقدية لا يشعر الناظر فيها إلا وهو واقع في مستنقع الشك.

---

(١) لم أجد له ترجمة وغلبة الظن أنه معاصر.

(٢) كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها لعماد السيد محمد إسماعيل الشربيني (ص: ١١١٩)، دار الكتب المصرية. الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٣) فعلى سبيل المثال يذهب محمد عبده ومن سار على نهجه إلى أن السحر خرافة لا حقيقة له، وقد حمله هذا أن يتكلف رد ما أورده المفسرون عند تفسير قوله تعالى من سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ بشأن سحر النبي ﷺ.

يقول الدكتور وسيم فتح الله – حفظه الله-: (إن من السلبيات المشاهدة في عصرنا الحالي وفْرَة وانتشار المطبوعات من تفاسير القرآن المختلفة بين العامة، وهم لا يملكون أدوات التمييز ما بين هذا المطبوع من جهة صحته إن كان نقلاً، أو صوابه إن كان عقلاً، وهذا يؤدي إلى بلبلة شديدة في عقول العامة وتشتيت وضياع وربما فقدان الثقة في علم التفسير والمفسِّر بسبب ما يطلعون عليه من تناقض وتعارض..) (١).

ونفهم من عبارة الدكتور – حفظه الله – أن السلبية في الحقيقة ليست في كثرة انتشار التفاسير في هذا العصر؛ فانتشار التفاسير مزية محمودة ما دامت هذه التفاسير منوطة بضوابط التفسير؛ ولكن السلبية الحقيقية هي وجود تفاسير كثرت فيها الأقوال المتكلفة إلى جنب التفاسير الصحيحة، فهذا هو الذي يورث البلبلة في صفوف العامة بل وحتى في صفوف المتعلمين لا سيما إذا ظهر على تلك الأقوال التعارض مع الثوابت العقدية، ولا ريب أن هذه البلبلة ستُسهم في زعزعة العقيدة ما دامت هذه الأقوال المتكلفة لم تؤسس على قاعدة صلبة من الشرع ولم تقم على أعمدة من اللغة.

ولذا وجدنا المفسرين في هذا العصر يؤكدون على أن (خطورة شأن القرآن من جميع الاعتبارات توجب حتماً الاحتياط والتروي والتدبر وعدم إلقاء الكلام فيه جزافاً، وتجعل الانحراف عن هذه الخطة والخطأ الناشئ عن غير علم وروية، إثماً كبيراً لما يترتب عليه من آثار تمسّ بأمور الإيمان والعقيدة) (٢).

(١) الاختلاف في التفسير حقيقته وأسبابه للدكتور وسيم فتح الله(ص: ٢٧)، بدون ناشر.

(٢) التفسير الحديث لدروزة (١/٢٧٤).

وما أحسن ما قاله المفسر المعاصر محمد دروزة عندما تكلم في شأن من خاض في مسألة المصير الأخروي لمن يموتون في طفولتهم والمجانين والصمّ والبكم والذين لم تبلغهم دعوة ربانية بواسطة رسله وكتبه؛ فقد قال – رحمه الله-: (وما دام في القرآن نصوص صريحة بأن الله لا يعذب إلا بعد أن يرسل رسلاً ومنذرين ويكفر الناس بهم، وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ويدخل في مدى هذا التكليف الرباني الذي يترتب عليه الثواب والعقاب والذي إنما يكون بالنسبة للراشدين العاقلين الذين لم تبلغهم رسالات الله بواسطة رسله، فإننا نرى الأولى أن يوقف في هذه المسألة عند هذه النصوص من الوجهة الكلامية. ونرى في الوقت نفسه أن في إثارتها في نطاق وسياق الآية تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل منه، والله تعالى أعلم) (١). ثم أردف قائلاً: (ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة..أن السلف الإسلامي الأول ﷺ كان يأخذ القرآن بمفهومه.. المتبادر الذي كان يعيش في جوه، ولا يُحمّله غير ما يحمل ولا يحاول التخمين والتزيّد ولا يثير الإشكالات والفروض بسبيلها، وكل ما كان من ذلك قد كان بعد أن اشتدت الفتن والخلافات السياسية ومزجها أهلها بالدين واستغلوا نصوص القرآن وأوّلوها وفق أهوائهم..

فأدى ذلك إلى شيء كثير من البلبلة والتشويش في سياق تفسير القرآن وتأويل آياته) (٢).

وأما جولات التسرع في التفسير العلمي فكثيراً ما يخالفها صفقات غير

---

(١) نفس المصدر(٣/٣٦٨).

(٢) المصدر السابق(٣/٣٦٨-٣٦٩).

رابحة، فكم رأينا من يتسرعون في تفسير الآيات بناءاً على نظريات ما لها من قرار، ثم ما نلبث إلا أيام، وإذا بالتقدمي العلمي يُعلن عن عدم صلاحية تلك النظرية!!!

ولك أن تتصور تلك الهزة العنيفة التي سيُحدثها مثل هذا التطور في عقيدة ضعفاء الإيمان، إنه سيتركهم تدور أعينهم، وترتفع حواجبهم، ويُقلّبون أكُفّهم عجباً مما يسمعون!

يقول الدكتور الذهبي: (فإذا نحن ذهبنا مذهب مَن يُحمِّل القرآن كل شيء، وجعلناه مصدراً لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكُنا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها ولا بقاء، فرُبَّ نظرية علمية قال بها عالِمٌ اليوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير، لأنه ظهر له خطؤها. وأمام سمعنا وبصرنا من المصل ما يشهد بأن كثيراً من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من التنافي والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولاً، فهل يعقل أن يُصدِّق مسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟؟)(١).

والحقُّ أن الحقَّ فيما قال، فإن الجري وراء النظريات العلمية وتفسير القرآن

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي(٢/٣٣٣).

من خلالها أمر يوقع في الزلل والتناقض، وكل ذلك من شأنه أن يزعزع ثقة المسلمين في دينهم وقرآنهم الذي يستقون منه عقائدهم.

ولله دره أيضاً عندما قال: (إن كثيراً من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك)، فقد تبين للباحث ما يشهد لهذا من الواقع. وهاك المثال:

من أشهر مسائل الاعتقاد التي زعزعها التكلف في التفسير العلمي مسألة مفاتيح الغيب التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1].

وبالذات قوله (ويعلم ما في الأرحام)، فقد كان المفسرون إلى عهد قريب يقولون إن معنى الآية: (أي ويعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ولا يعلم ذلك سواه)[2] وتأمل قوله (ولا يعلم ذلك سواه)!!

فلما تقدم العلم الحديث واستطاع أن يعلم نوع الجنين وهو لا يزال في الرحم وجدنا من المفسرين من يقول: (إن العلم الحديث يستطع معرفة الجنين بعد أن يتكون وتتضح معالمه أما قبل ذلك فلا سبيل إلى العلم به)[3] وتأمل كذلك الضابط لهذا القول(أما قبل ذلك فلا سبيل إلى العلم به)!!

(١) سورة لقمان الآية: ٣٤.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري(٤/٢١٩).

(٣) تفسير الشعراوي(١/٧٣٣٦).

ثم تقدم العلم واستطاع الأطباء معرفة الجنين قبل أن تتضح معالمه فقال بعض المفسرين: (فإن توصل العلماء بسبب التحليل الكيميائي [إلى] كون الجنين ذكراً أو أنثى، فلا يعني ذلك غيباً، وإنما بواسطة التجربة، وتظل أحوال أخرى كثيرة مجهولة للعلماء، لا تعلم إلا بعد الولادة)[1]. وأحسب أن القارئ لا يخفى عليه الاضطراب الشديد في هذه الأقوال، كما لا يخفى عليه أن الضابط الذي وضعه الأول والثاني قد أصبح لا قيمة له، ولهذا حدث إشكال و بلبلة عند هذه الآية، وبالتالي زعزعة لعقيدة اختصاص الله بعلم مفاتيح الغيب، وقد كان الأولى بهؤلاء المفسرين أن لا يتسرعوا في مثل هذه المواطن بالتفسير، وأن يدعوا الكلام فيها لأهل الشأن.. والله أعلم.

(١) التفسير المنير للزحيلي(٢١/١٧٩).

المطلب الثاني: دعوى النسخ

النسخ مصدر مأخوذ من الفعل (نسخ) ومعناه في اللغة يدور حول معنيين هما: الإزالة والنقل؛ فمن الأول قول العرب: نسخت الشمس الظل وانتسخته: أزالته، والمعنى أذهبت الظل وحلت محله[1]؛ وعليه ورد قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[2].

ومن الثاني قولهم نسخ الكتاب ينسخه نسخاً وانتسَخَه واستنسَخَه اكتتبه عن معارضه، والمعنى نقل ما في الكتاب الأول إلى الثاني[3].

والنسخ في الاصطلاح الشرعي: (الخطاب الدال على رفع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه)[4].

والأصل في آيات القرآن أنها محكمة باقية، أما النسخ فقد اختلف العلماء في جواز وقوعه في القرآن على أقوال ليس هذا محل معرفتها، وإن كان الجمهور على جوازه[5].

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٣/٦١)، وتاج العروس للزبيدي(٧/٣٥٥)، ومختار الصحاح للرازي (ص: ٦٨٨).

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٦.

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٣/٦١)، وتاج العروس للزبيدي(٧/٣٥٥).

(٤) ينظر: المحصول في علم الأصول للرازي(٣/٤٢٣)، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ.

(٥) ينظر تفصيل ذلك في: إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني، ابتداءاً من (ص: ٣٦٨)، وما بعدها.

وقد اهتم العلماء قديماً وحديثاً بالناسخ والمنسوخ وأفردوه بالتأليف وكتبهم في هذا لا تكاد تحصى كثرة[(١)] ومن أجودها كتاب الناسخ والمنسوخ، للإمام أبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس المرادي النحوي[(٢)]، حيث أثبت ما ادُّعِيَ فيه النسخ وعكسه بذكر الأسانيد غالباً، ويقوم بترجيح دعوى النسخ أو الإحكام حيناً وهو كثير، ويقف موقف المحايد حيناً آخر[(٣)].

ويتبين للباحث من خلال النظر في هذه الكتب أن دعوى النسخ مشكلة حادثة منذ القدم، وليست هي من مبدعات المعاصرين، (ومن قرأ كتب الناسخ والمنسوخ، أو قرأ كتب التفسير، وجد فيها كثيراً من الآيات التي ادّعي نسخها، بناءاً على أنها تتعارض مع آيات أخرى، فلا يجد بعضهم ملجأ يلجأ إليه إلا دعوى النسخ.

وعند تأمل الناسخ والمنسوخ من الآيات، لا تجد أي تعارض يلجئ إلى

---

(١) منها على سبيل المثال: الناسخ والمنسوخ للإمام هبة الله بن سلامة الضرير، والناسخ والمنسوخ للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الإسفرائيني، نواسخ القرآن لجمال الدين عبد الرحمن الجوزي، وكلها كتب مطبوعة.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو جعفر النحاس مفسر، أديب. مولده ووفاته بمصر، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، زار العراق واجتمع بعلمائه. وصنف (تفسير القرآن) و (إعراب القرآن) و (تفسير أبيات سيبويه) و (ناسخ القرآن ومنسوخه). توفي سنة: ٣٣٨ هـ. ينظر: السير للذهبي(٤٠١/١٥)، وشذرات الذهب للعكري (٣٤٦/٢)، والأعلام للزركلي(٢٠٨/١)، ومعجم المؤلفين لكحالة(٢٣٤/٨).

(٣) أفاده محمد أشرف علي المليباري في مقدمة تحقيقه لكتاب نواسخ القرآن لابن الجوزي(ص:٧)، الجامعة الإسلامية: ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

القول بالنسخ)[١] ولهذا حاول العلماء تنقية الأقوال المنسوخة فعلاً، كما بينوا الأقوال التي ادُّعي أنها منسوخة وهي ليست كذلك، فمثلا أفاد الإمام السيوطي – رحمه الله- أن دعوى النسخ في إحدى وعشرين آية، ثم استثنى منها آيتي الاستئذان والقسمة، وذكر أن الأصح فيهما الإحكام، وبهذا يكون عدد الآيات المنسوخة في نظره لا تزيد على تسع عشرة آية ثم نظمها في أبيات [٢].

بيد أن انتشار دعوى النسخ عند المتأخرين أكثر من المتقدمين، ومن باب أولى عند المعاصرين! وهذا ما جعل علامة الشام القاسمي يقول: (وقد كثر في المتأخرين دعوى النسخ في الآيات هكذا بلا استناد قوي) [٣]. ولا شك أن (دعوى النسخ تحتاج إلى دليل قوي يقاوم صراحة النص) [٤]، كما أن (دعوى النسخ لا تقبل إلا بحجة) [٥].

ولا يزال في عصرنا من يتوسعون في دعوى النسخ بلا برهان، فقد حكى الدكتور القرضاوي قصة عايش أحداثها بنفسه، تكشف عن مدى التسرع عند المعاصرين لدعوى النسخ إذا ما انقطعت السبل عن أحدهم لإيجاد دليل لما يقول؛ فتراه يتكلف ويدعى بأن تلك الآية أو هذه منسوخة.

ونحن نذكر القصة باختصار ثم نحيل إلى مصدرها، فقد ذكر أنه كُلف منذ

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي(ص: ٣٨٢).

(٢) ينظر: الإتقان للسيوطي(٢/٦٠-٦٣).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي(٣/٦١).

(٤) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي(٨/٩٢)

(٥) تفسير آيات الأحكام محمد علي السايس(١/٤٠٩)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر. سنة النشر: ٢٠٠٢م.

ما يقرب من عشرين سنة من قبل اللجنة الثقافية لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة بوضع مسودة مشروع لـــ(حقوق الإنسان في الإسلام) تعلنه المنظمة بمناسبة قرب قدوم القرن الخامس عشر الهجري، وبعد أن قام بإعداد مسودة المشروع، ليُعرض على اللجنة من العلماء والخبراء في مقر المنظمة بجدة، فوجئ بتوجه غريب لم يكن يتوقعه من بعض الإخوة المشايخ الذين تحفّظوا على كثير من مواد المشروع التي تبدو فيها سماحة الإسلام ومرونته ويسره، ونظرته الواقعية والوسطية للإنسان والمرأة ولغير المسلمين، وللعالم من حولنا، حيث طالبوا بوجوب تغيير المادة التي تنص على: الإسلام يحترم العقائد الدينية التي تخالفه، ولا يُجبر أحداً على اعتناقه، لأن الإسلام في نظرهم لا يحترم عقائد الكفار، وهو يحكم عليهم أنهم ضالون...إلخ، ولما واجههم بالآية الكريمة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٢) وهو موافق لما جاء به على لسان نوح: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾(٣)، هنا قال الإخوة الأفاضل – وهذا الشاهد -: إن هذه الآية منسوخة! ثم رد الدكتور عليهم دعوى النسخ(٤).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة يونس الآية: ٩٩.

(٣) سورة هود الآية: ٢٨.

(٤) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي(ص: ٣٢٩-٢٣٠).

وقد كنت في غنى عن الرجوع إلى أقوال المفسرين في الآية، لقوة حجج الدكتور القرضاوي - حفظه الله - في الرد؛ ولكن دعاني حُسن الظن بأولئك أن ألتمس لهم العذر فقد يوجد قول معتبر بالنسخ في المسألة.

وبالرجوع إلى التفاسير وجدنا أن جُل المفسرين قديماً إن لم نقُل كلهم قالوا بأن الآية محكمة وليست بمنسوخة، بل وجدنا أن هذه الآية ضمن الآيات التي أدعي نسخها في كتب الناسخ والمنسوخ كما بيّن أبو جعفر النحاس حيث رد دعوى النسخ في هذه الآية[1] وأما المفسرون المعاصرون فقد وقفوا عند هذه الآية طويلاً، والسبب في ذلك هي تلك الدعوة التي أطلقها كثير من المغرضين على الإسلام من أمثال المستشرقين وغيرهم من أن الإسلام قد انتشر بحد السيف.

ومن أحسن من تكلم عنها من المفسرين المعاصرين الإمام ابن عاشور - رحمه الله - وهذا طرفاً مما قال، قال - رحمه الله-: (ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تكرهوا أحداً على إتباع الإسلام قسراً، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصاً وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار. وقد تقرر في صدر الإسلام قتال المشركين على الإسلام،... ولا جائز أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل ابتداء القتال كله، فالظاهر أن هذه الآية نزلت بعد فتح مكة واستخلاص بلاد العرب،

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس(ص:٢٥٩)، تحقيق: د محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح - الكويت. الطبعة الأولى: ١٤٠٨ه.

إذ يمكن أن يدوم نزول السورة سنين... لاسيما وقد قيل بأن آخر آية نزلت هي في سورة النساء: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾[١] فنسخت حكم القتال على قبول الكافرين الإسلام ودلّت على الاقتناع منهم بالدخول تحت سلطان الإسلام وهو المعبر عنه بالذمة، ووضحه عمل النبي ﷺ وذلك حين خلصت بلاد العرب من الشرك بعد فتح مكة وبعد دخول الناس في الدين أفواجاً حين جاءت وفود العرب بعد الفتح، فلما تم مراد الله من إنقاذ العرب من الشرك والرجوع بهم إلى ملة إبراهيم، ومن تخليص الكعبة من أرجاس المشركين، و..و..إلخ، لمّا تم ذلك كله أبطل الله القتال على الدين وأبقى القتال على توسيع سلطانه، ولذلك قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[٢] وعلى هذا تكون الآية ناسخة لما تقدم من آيات القتال مثل قوله قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٣]، على أن الآيات النازلة قبلها أو بعدها أنواع ثلاثة:

أحدها: آيات أمرت بقتال الدفاع كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) سورة النساء الآية: ١٧٦.

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٩.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧٣.

ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(١)]، وقوله: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[(٢)]، وهذا قتال ليس للإكراه على الإسلام بل هو لدفع غائلة المشركين.

النوع الثاني: آيات أمرت بقتال المشركين والكفار و لم تغيى بغاية، فيجوز أن يكون إطلاقها مقيداً بغاية آية ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ وحينئذٍ فلا تعارضه آيتنا هذه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾.

النوع الثالث: ما غيي بغاية كقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[(٣)] فيتعين أن يكون منسوخاً بهته الآية وآية: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾، كما نسخ حديث: (أمرت أن أقاتل الناس)[(٤)]، هذا ما يظهر لنا في معنى الآية، والله أعلم)[(٥)].

هكذا قال – رحمه الله- وهو كلام غاية في الوضوح، وبه تعلم أن الآية محكمة وليست بمنسوخة، وأن من ادعى أنها منسوخة قد تكلف إثبات ما رده العلماء قديماً وحديثاً والله أعلم وأحكم.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٤.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٩٣.

(٤) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم(١/١٤٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(٢/ ٤٩٩- ٥٠١).

المطلب الثالث: الشذوذ ومخالفة الإجماع.

اشتهر الشذوذ في المعاجم العربية بأنه مصدر مأخوذ من الفعل شذ يشذّ بالضم والكسر[١]، ومعناه يدور حول الندرة والإنفراد فيقال: (شَذَّ عنه يَشِذُّ ويَشُذُّ شذوذاً انفرد عن الجمهور وندر فهو شاذٌّ)[٢].

وإذا كان المخالف لرأي الجمهور قد استحق أن يوصف بالشذوذ فالمخالف للإجماع من باب أولى. ولهذا قلنا الشذوذ ومخالفة الإجماع.

وكما اشتهر هذا المصطلح (الشاذ) في المعاجم العربية، اشتهر أيضاً بكثرة عند علماء الشريعة على اختلاف يسير في المراد به، فـ(هي وإن اتفقت في أصل المعنى مراعاةً للأصل اللغوي السابق، إلا أن التغير بيّن، نظراً للاختلاف في اصطلاح أصحاب كل فن)[٣]. فالقُرّاء[٤] لهم اصطلاح للشاذ، والمحدثون[٥] لهم

---

(١) ينظر: مختار الصحاح للرازي(ص:٣٥٤).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٣/٤٩٤)، وتاج العروس للزبيدي(٩ /٤٢٣)، ومختار الصحاح للرازي (ص: ٣٥٤).

(٣) الأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها، للدكتور عبد الرحمن بن صالح الدهش(ص:٢١)، سلسلة إصدارات الحكمة. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. وأصلها رسالة دكتوراه تقدم بها لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) القُرّاء جمع قارئ، وهو: العارف بكيفية أداء كلمات القرآن. والشاذ عندهم ما اختل فيه شرط من شروط القراءة الصحيحة وقيل غير ذلك. ينظر: منجد المقرئين لمحمد بن محمد بن محمد ابن الجزري(ص:٤٩) و(ص: ٨٢-٨٥)، اعتنى به علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

(٥) المحدثون جمع مُحَدِّث، وهو: من يشتغل بعلم الحديث رواية ودراية. ويطلع على كثير من
=

اصطلاح للشاذ، والفقهاء[1] لهم اصطلاح للشاذ وهكذا، والذي يهمنا في هذا البحث الشاذ عند المفسرين.

وبالرغم من شُهرة هذا المصطلح في كتب التفسير إلا أنه لم يوجد – حسب علمنا – من ذكر له تعريفاً من المتقدمين، ولهذا كان لزاماً على المعاصرين أن يضعوا له حداً، وهذا ما فعله الدكتور عبد الرحمن الدهش في رسالته الموسومة بـ(الأقوال الشاذة في التفسير) حيث عرفه بأنه: (ما خالف طرق التفسير المعتبرة، أو جرى على مذهب عقدي باطل، أو خالف إجماعاً مستقراً)[2].

وهذا التعريف يشير من طرف خفي إلى أن القول الشاذ ما هو إلا نتيجةٌ للتكلف، لأن مخالفة طُرق التفسير المعتبرة ومحاولة إخضاع التفسير لتأييد مذهب

الروايات وأحوال رواتها. تيسير مصطلح الحديث للدكتور محمود الطحان(ص:١٠)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م. والشاذ عندهم (أن يروي الثقة حديثاً يخالف ما روى الناس)، ينظر: مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر(ص: ٧٦)، دار الفكر- سوريا، ودار الفكر المعاصر – بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(١) الفقهاء جمع فقيه، وهو: العالم الفطن والعالم بأصول الشريعة وأحكامها، كما في المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين(٢/٦٩٨)، تحقيق: مجمع اللغة العربية. دار الدعوة. والشاذ في اصطلاحهم منهم من قال: هو مفارقة الواحد من العلماء سائرهم، ومنهم من قال: هو أن يجمع العلماء على أمر ما ثم يخرج رجل منهم عن ذلك القول الذي جامعهم عليه. ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد(٥/٨٢)، دار الحديث – القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ.

(٢)الأقوال الشاذة في التفسير للدكتور عبد الرحمن الدهش(ص:٢٤).

عقدي أو فكري، وكذلك مخالفة الإجماع كل هذه سمات وعلامات للتكلف في التفسير.

فالمتكلف يحاول تقرير ما وصل إليه بكل ما أوتي من حجة - ولو كانت داحضة — ولا يهمه أخالف طرق التفسير المعتبرة أم وافقها، كما أنه لا يهمه أخالف الإجماع أم لا !

ومن هنا نستطيع القول: إن الشذوذ نتيجة حتمية لكل متكلف لا يتبع المنهج الأمثل في تفسيره، ذلك لأن التكلف دائما ما يضطر صاحبه إلى أن يرد كل ما يقف عقبة كؤود أمام قوله ولو كان ذلك على حساب تفسير قرآني للقرآن، أو تفسير نبوي للقرآن.

وهذا أمر يحس به المتكلف نفسه، ولذلك تراه يحاول أن ينفي عن نفسه التكلف؛ فتارة يصبغ تكلفه بصبغة الاجتهاد وتارة بصبغة التجديد وما إلى ذلك، ولنا في هذا البحث سابقة تدل على ذلك، فعند حديثنا عن التجديد المزعوم وجدنا صاحب كتاب (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي)، يحس بشذوذ اجتهاده المتكلف فيحاول أن ينفيه عنه فيقول: (فإن الناس قد بَعُد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذاً في نظرهم) . وهو اعتراف بالشذوذ بعبارة غير مباشرة.

ومن جهة أخرى نجد العلماء كذلك لا يترددون في وصف التكلف بالشذوذ، وهذا ما وجدناه في التكلف الذي تكلفه المراغي لتقرير قول أن القمر سينشق كما سبق بيانه.

ومن الأمثلة التي تكلف عندها المعاصرون فوقعوا في الشذوذ الواضح ما

ذكره الإمام محمد عبده والشيخ محمد رضا والشيخ المراغي ومن تبعهم[١] أن المراد بالنفس الواحدة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٢].

قالوا ليس المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام قطعاً، ولنبدأ بما قاله محمد عبده – رحمه الله – قال: (ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص، ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول: إن كل نداءٍ مثل هذا يراد به أهل مكة، أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان؛ وإذا قلنا: إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم، فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون (والأصناف الكبرى هي الأبيض القوقاسي، والأصفر المغولي، والأسود الزنجي وغيره، وبعض فروع هذا تكاد تكون أصولا كالأحمر الحبشي، والهندي الأمريكي، والملقي).

---

(١) مثل عبد الكريم الخطيب الذي ذهب إلى أبعد مما قاله محمد عبده وصاحبيه، حيث قال: (والقصّة التي تقول إن (حواء) خلقت من ضلع آدم، هي من واردات الأساطير، وقد أخذ بها معظم المفسّرين). ينظر: التفسير القرآني للقرآن للخطيب(٢/٦٨٢).

(٢) سورة النساء الآية: ١.

قال: والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: وبث منهما رجالا كثيراً ونساء بالتنكير: وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبث منهما جميع الرجال والنساء)[١] وبهذا أكد الشيخ أن آدم ليس أبو البشر كلهم لأنه:

١- استدل بأن الآية لا تدل (بالنص ولا بالظاهر)على ذلك.

٢- وأنه لو كان آدم أبو البشر كلهم لما قال: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بل قال: جميع الرجال والنساء!

٣- وإن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء و لم يسمعوا بهما.

٤- إن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين باعتقادهم أن آدم أبو البشر.[٢].

ولعَمْرُ الحق إن هذا تحذلق! إذ كيف يعتقد هذا وهو يقرأ قول الله: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٣]، ويقرأ كذلك قول النبي ﷺ: (كلكم لآدم وآدم من تراب)[٤]، وقوله أيضاً:

(يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على

(١) تفسير المنار لرضا(٤/٢٦٥).

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير للرومي(٢/٦٠٦-٦٠٧).

(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٦و٢٧و٣١و٣٥و١٧٢. وسورة الإسراء الآية: ٧٠ وسورة يس الآية: ٦٠.

(٤) مسند البزار لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (٣٤٠/٧)، تحقيق: مجموعة من المحققين. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة الأولى. حديث رقم: ٢٩٣٨.

أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)[١].

وإمعاناً في التكلف يرد محمد عبده على هذه البينات الواضحات فيقول: (وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله: (يا بني آدم) لا ينافي هذا، ولا يعد نصاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبنائه، إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم، وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس أفسدوا فيها، وسفكوا الدماء...)[٢] إلى أن قال: (وأقول زيادة في الإيضاح: إذا كان جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم، وهي أن آدم أبو البشر)[٣]. وليت شعري أي إيضاح يقصد، إلا أن يكون إيضاحاً للتكلف الذي شذ به!!

وهكذا ردد هذا القول تلميذه رضا وأجمله في نقطتين فيقول: (للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان:

أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس آدم، أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية، والتاريخية له ومن تنكير ما بثه منها، ومن زوجها، على أنه يمكن الجواب على هذا الأخير بأن التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول: بث منهما كثيرا من الرجال

---

(١) رواه أحمد في المسند(٥/٤١١)، حديث رقم: ٢٣٥٣٦.

(٢) تفسير المنار لمحمد رضا(٤/٢٦٦).

(٣) نفس المصدر والصفحة.

والنساء، وبث من هؤلاء سائر الناس، وعن الأول بأنه لا يزال غير قطعي.

وثانيهما: أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم، والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق، البادي البشرة، المنتصب القامة، الذي يطلق عليه لفظ الإنسان، وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين، ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف منهم)[(١)].

وفي موضع آخر يقول: (هذا وإن المتبادر من لفظ النفس - بصرف النظر عن الروايات، والتقاليد المسلمات - أنها هي الماهية، أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات، أي خلقكم من جنس واحد، وحقيقة واحدة، ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم - كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين - أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية، أو بدئت بعدة أصول انبث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين، ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات، أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر)[(٢)] وتأمل قوله: (ارتقى عن بعض الحيوانات)، فإنه عين ما نطقت به نظرية داروين[(٣)] التي أبطلها العلم الحديث.

---

(١) المصدر السابق(٤/٢٦٧).

(٢) نفس المصدر(٤/٢٦٨).

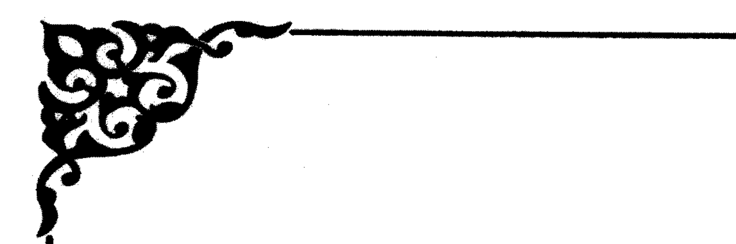
(٣) نظرية داروين نظرية باطلة ظهرت عام ١٨٥٩م وتسمى بـ(الدارونية) نسبة إلى مؤسسها شارل داروين وتقوم هذه النظرية على أربعة نواميس لتعليل وجود الأنواع الحية على سطح الأرض =

ثم سار أحمد المراغي على دربهما فقال:(وجمهرة العلماء علـــى أن المـــراد بالنفس الواحدة هنا آدم، وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية، بل أخذوه تسليما وهو أن آدم أبو البشر) [1].

وهذا القول الذي ذهب إليه هؤلاء قول شاذ مخالف لما عليه إجماع المفسرين قديماً وحديثاً، ولا شك أن سببه التكلف. إذ لو أخذوا بما نطق بـــه الكتـــاب والسنة وعلماء الأمة لما وقعوا في هذا الشذوذ ولكن هكذا هي نتيجة التكلف.

سواء كانت نباتية أو حيوانية من أول الأحياء الجرثومية ذات الخلية الواحدة إلى الإنسان نفسه، وقد نصت هذه النظرية على أن الإنسان قد تطور عن قرد. وقد ناقش الدكتور فهد الرومي هذه النظرية، ورد على من تكلف ربطها بتفسير الآية الأولى من سورة النساء فارجع إن شئت إلى كتابه منهج المدرسة العقلية الحديث في التفسير للرومي(٢/٥٩٩-٦٠٠).

(١) تفسير المراغي(٤/١٧٥).




المبحث الثاني

فتح الطريق أمام المغرضين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المستشرقون.

المطلب الثاني: العلمانيون.

المطلب الثالث: المثقفون.




المطلب الأول: المستشرقون

الإستشراق مصطلح مأخوذ من(الشرق)، الذي هو بمعنى الطلوع، تقول: شرقت الشمس أي طلعت[(١)]، ثم أضيف له الألف والسين والتاء فصارت(استشرق)، وهو بمعنى: (أدخل نفسه في أهل الشرق، وصار منهم)[(٢)].

وعلى هذا فالإستشراق: تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث في أمر الشرقيين[(٣)] وثقافتهم وتاريخهم.

ويُقصد به على وجهة التحديد: (ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته المختلفة)[(٤)].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس(٣/٢٦٤).

(٢) ينظر: آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي عرض ونقد، إعداد: الدكتور إدريس حامد محمد(ص: ١٣)، بدون ناشر.

(٣) من المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق والغرب يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها في الماضي العالم الشرقي أو دول الشرقي. عقائد وتيارات فكرية معاصرة، لمجموعة مؤلفين(ص: ١٥٥)، دار قطري بن الفجاءة – الدوحة. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٤) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان المذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة الدكتور: مانع بن حماد الجهني(٢/٦٨٧)، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع-الرياض. الطبعة الخامسة: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

وليس من السهل على الباحث أن يحدد بداية الإستشراق، وذلك لاختلاف المؤرخين في ذلك؛ إذ منهم من يعودون بـه إلى أيـام الدولـة الإسـلامية في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين، بينما يرجعه كـثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري(١)...

وعلى كل حال فالمهم أن نعرف أن مصطلح الإستشراق بمفهومه المعاصـر قد ظهر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وذلك في انجلترا عام ١٧٧٩م، ثم في فرنسا عام ١٧٩٩م (٢)، وأياً كان فإن الذي نود التأكيد عليه هو أن حركـة الإستشراق قد انطلقت بباعث ديني بهدف تشكيك المسلمين في دينـهم مـن أجل خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحية (٣).

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الدنيء ضرب المستشرقون في الأرض، تحـت مظلة البحث العلمي – زعماً– وما هو والله إلا الحقد الأحمر الذي امتلأت به أجوافهم العفنة على الإسلام والمسلمين.

ولقد أوحى إليهم حفيد الشيخ النجدي(٤) أن المنهج الأمثل للوصـول إلى الهدف ليس بابتداع الأقوال من عند أنفسهم التي تصف الإسلام بالأوصـاف

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ينظر: التبشير والإستشراق أحقاد وحملات على النبي محمد ﷺ وبلاد الإسلام لمحمد عزت إسماعيل الطهطاوي(ص: ٤٥)، الزهراء للإعلام العربي. الطبعة الأولى:١٤١١هـ-١٩٩١م. والموسوعة الميسرة للجهني(٢/٦٨٧).

(٤) المراد به إبليس، الذي جاء وصفه بهذا اللقب في قصة اجتماع قريش في دار الندوة للتشاور في قتل محمد ﷺ حيث حضر إبليس في صورة شيخ من نجد. ينظر: السيرة النبوية لابن كثير(٢/٢٢٧).

المشينة! - فقد لا يكون لها من القبول ما يرجونه - وإنما المنهج الأمثل هو التفتيش في تراث المسلمين أنفسهم، والتنقيب عن الأقوال والأخبار الضعيفة والشاذة والمتكلفة وما إلى ذلك، ثم المقارنة بينها وبين الأقوال الصحيحة، ثم ضربها ببعضها البعض!!! وبالفعل فقد سلك المستشرقون هذا المنهج الماكر لضرب الإسلام في عقر داره!

ولما كان القرآن الكريم هو دستور المسلمين الأول الذي تنبثق منه تعاليمهم؛ فقد اتجهت إليه عقيرتهم؛ فلا يخفى على المُطّلع أن غالب دراسات المستشرقين تدور حول القرآن الكريم وعلومه، وللأسف فقد وجدوا هنالك بغيتهم.

وجدوها في بعض كتب التفسير التي تضمنت بعض التفسيرات المتكلفة، والتأويلات المتعسفة، والخوض في غيبيات مُغَلّقَة!

ووجدوها ثانية: في بعض الكتب التي حاولت تقديم تفسيرات جديدة، ولمّا تتأهل أقلام أصحابها لهذه الصناعة!

ووجدوها ثالثة: في بعض الكتب المتحمسة التي يَهُمها أن تثبت أقدمية القرآن في كلما يصل إليه العلم من تجارب، مع عدم الروية في ذلك!

ومن خلال هذه الثغرات، وَلَجَ المستشرقون لهذا الفن آمّين الكيد للإسلام، كما وَلَجوا من ثغرات أُخر!!!، وإن تعجب فَعَجَبٌ تفانيهم في سبيل تحقيق مآربهم، فإن الناظر فيما كتبوه ليعلم أنه ليس بالأمر الهيّن، ولئن كانت هذه سمة بارزة في المستشرقين عامة، إلا أن المصادر تشير إلى أن أكثرهم تفانٍ لتحق مآربهم هو المستشرق(جولدزيهر) [(١)] فهو الذي أطلق عليه لقب (شيخ

---

(١) هو مستشرق مجري موسوي يلفظ اسمه بالألمانية إجناتس جولد تسيهر، ولد سنة ١٨٥٠م، تعلم في بودابست وبرلين وليبسيك. ورحل إلى سورية، وانتقل إلى فلسطين، فمصر، حيث لازم بعض =

المستشرقين) [(١)].

وقبل أن نذكر المثال على استغلال المستشرقين لتكلف المفسرين والكتاب المعاصرين، لابد أن نعرج على قضية مهمة ربما يستشكلها القارئ حينما يقرأ في الدراسات الصادرة عن الإستشراق والمستشرقين! هذه القضية فحواها السؤال التالي:

هل الصحيح أن المستشرقين هم الذين أثّروا بشبهاتهم على المفسرين والكتاب المعاصرين؟! أم أن تكلفات المفسرين والكتاب المعاصرين قد أثرت على المستشرقين ؟!

والجواب: إن كلاهما قد أثر على الآخر! إلا أن أثر المستشرقين على بعض المفسرين والكتاب المعاصرين كان إيجابياً بالنسبة لهم؛ فقد استطاعوا بالفعل أن يحدثوا بلبلة بين صفوف المسلمين مما اضطر البعض إلى أن يتكلف في تفسير بعض النصوص من أن أجل أن يوفق بينها وبين ما يعرضه المستشرقون من شبهات على الإسلام.

وأما أثر المفسرين والكتاب المعاصرين على المستشرقين، فقد كان أثراً سلبياً

علماء الأزهر. وعين أستاذاً في جامعة بودابست (عاصمة المجر) وتوفي بها، له تصانيف باللغات الألمانية والانكليزية والفرنسية، في الإسلام والفقه الإسلامي والأدب العربي، ترجم بعضها إلى العربية. من أهمها: (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي)، و(العقيدة والشريعة)، توفي سنة ١٩٢١م وقيل: ١٩٢٠م. ينظر: موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي(ص: ١٩٧)، دار العلم للملايين. الطبعة الأولى: ١٩٩٣م، والأعلام للزركلي(١/٨٤).

(١) ينظر: افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد للدكتور: عبد العظيم إبراهيم المرطعني(ص: ٤)، مكتبة وهبة – القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٢م.

بالنسبة لنا معشر المسلمين! وذلك لأن المستشرقين قد استغلوا ذلك التكلف في تفسير النصوص للطعن ثانية في الإسلام، وبهذا يكون المستشرقون قد كسبوا الجولة الأولى والثانية! فكلا الأثرين كان إيجابياً لهم، وسلبياً لنا والله المستعان.

كذلك من المهم أن نعرج على أن التكلف في التفسير قد استغله المستشرقون على مرحلتين اثنتين:

الأولى: كانت بالنظر في تكلفات المتقدمين مثل الفخر الرازي والزمخشري وغيرهما، ثم استغلال ذلك في ضرب الأقوال الأخرى بها.

الثانية: في النظر في تكلفات المعاصرين من المفسرين والكُتّاب ومقارنتها بأقوال السابقين ثم الزعم بأنها متعارضة متنافرة.

وحيث أن هذا البحث يختص بالتكلف في التفسير عند المعاصرين فإن هذا يستلزم أن نذكر مثالاً لأحد المعاصرين، لننظر كيف استغله المستشرقون!

ولنرجع قليلاً إلى ما قاله علي النصوح الطاهر بشأن الحروف المقطعة في مطلع سورة الأعراف، ولا بأس بإعادته هنا للاستذكار؛ وذلك عندما زعم أن سورة الأعراف وهي رقم (٧) في المصحف وآياتها تبلغ (٢٠٦)آية، كانت في الأصل تضم (١٦١)آية فقط، وذلك لأن هذا الرقم هو الذي يوافق القيمة العددية للحروف (المص) المذكورة في بداية السورة (١+٣٠+٤٠+٩٠=١٦١).

أتدري ماذا كان نتيجة هذا التكلف؟! لقد كان نتيجته أن فتح الطريق أمام

المستشرق ويلش[1] الذي طار به فرحاً ليقول في لهجة ساخرة: (إن هذا دليل على النظرة العشوائية من قبل بعض الكتاب للحروف المقطعة، وتَنكُّب الطريق لتفسيرها)[2]. وهي كلمة حق أريد بها باطل! فصحيح أن هناك نظرة عشوائية للحروف المقطعة من بعض الكتاب، لأن تلك النظرة مبنية على تكلف محض لم يُتبع فيه المنهج السليم في التعامل مع مثل هذه المتشابهات.

وقد كُنا في حماية ووقاية من مثل هذا الطعن الساخر لو أمسك المتكلفون ألسنتهم، وكبحوا جماح أقلامهم عن الخوض في مثل هذه المواطن.

ختاماً نقول: إننا لا نلوم المستشرقين – وغيرهم من المتربصين للإسلام – عندما يستغلون مواضع الضعف في تراث المسلمين للتشكيك في دينهم، فهذا أمر جندوا له أنفسهم وبذلوا له من أموالهم، ولكن اللوم متّجهٌ إلى أولئك الذين يفتحون الطريق أمامهم بأقوال عرجاء كان التكلف عدهّا، وقلة العلم عمدهّا.

❖❖❖

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي لمحمد أبو ليلة (ص: ٢٢٧).

المطلب الثاني: العلمانيون

العلمانية مصطلح معاصر ليس له أصل في المعاجم العربية القديمة، وهو (ترجمة غير صحيحة لكلمة (sseculism) في الإنجليزية أو(seularite) بالفرنسية وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق...، والترجمة الصحيحة للكلمة هي(اللادينية)، أو(الدنيوية) لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص، وهو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد)(١).

ومن ينظر في التراث الثقافي يجد أن (التعبير الشائع في الكتب الإسلامية المعاصرة هو (فصل الدين عن الدولة) وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلة بالدولة، ولو قيل: إنها فصل الدين عن الحياة لكان أصوب، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية إقامة الحياة على غير الدين، سواء بالنسبة للأمة أو للفرد)(٢).

وبناءاً على هذا فالعلمانية: هي (دعوة إلى إقامة الحياة على أسس العلم الوضعي والعقل بعيداً عن الدين الذي يتم فصله عن الدولة والمجتمع وحبسه في ضمير الفرد، ولا يصرح عنه إلا في أضيق الحدود)(٣).

---

(١) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه للقرضاوي(ص: ٤٨-٥٠)، مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(٢) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، للدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي (ص: ٢٣-٢٤)، مكتبة الطيب- القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٣) ينظر: الموسوعة الميسرة للجهني(٢/٦٨٥).

وبعبارة أخرى: (هي اسم لمذهب فكري عقدي اجتماعي يهدف إلى حمل الناس على إبعاد الدين عن حياتهم ويعمل في مجالات ومحاور متعددة)[١].

والعلمانيون إذن: هم الذين يتبنون هذه الفكرة ويعملون على نشرها في العالم.

وتذكر المصادر أن العلمانية قد ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي، ثم انتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر، ودخلت بشكل أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا ثم تونس، ولحقتها العراق في نهاية القرن التاسع عشر. أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين[٢].

وإذا كنا قد عرفنا في مطلب المستشرقين أن من أهم أهدافهم تشكيك المسلمين في دينهم، فإن هدف العلمانية لا يقل خطراً عن هدف المستشرقين لأن العلمانيين فراخ المستشرقين في ديار المسلمين، وإن شئت فقل: هُما- أي الاستشراق والعلمانية - وجهان لعملة واحدة!! فكلاهما يجمعهما هدف التشكيك بالأصول وإزاحة ثوابت الأمة العقدية وأسسها الفكرية والسلوكية وإحلال حضارة الغرب وقِيَمه مكانها[٣].

---

(١) التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، لمنى الشافعي(ص: ٤٥)، دار اليسر – القاهرة. الطبعة الأولى: رجب ١٤٢٩هـ.

(٢) الموسوعة الميسرة للجهني(٢/٦٧٩).

(٣) ينظر: التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، لمنى الشافعي(ص: ٩٨)، والحقيقة أن هذه الدراسة بمثابة شرح تفصيلي لهذا المطلب ولذا ننصح من أراد الاستزادة الرجوع إليها.

ولمّا علم العلمانيون أن تصريحهم بهدفهم الحقيقي سيصطدمون به مع الواقع، غيّروا الأسلوب، فهم وإن كانوا امتداداً المستشرقين إلا أنهم تسمّوا بأسماء إسلامية، وعاشوا في بلدان إسلامية، وحملوا شهادات في تخصصات إسلامية ومن جامعات إسلامية، وكل ذلك مكنهم أن يتناولوا علم التفسير - وغيرها من العلوم الإسلامية – مع استفادة من الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون واستدراكها في حذر شديد (ومن هنا كان توجههم للخوض في التفسير واضح المعنى، معقول المغزى.... لكن تحت شعار التجديد وتطوير علم التفسير، فهذا الشعار يملؤون به الكتب والمجلات ليظهروا بمظهر المفكرين المجددين وينفون أنفسهم الشكوك والشبهات، ويفتحوا قلوب الناس لآرائهم. فيزعمون أن انحرافاتهم[المبنية على التكلف] في تفسير آيات الله تجديد، [و]ما هي إلا نتيجة لذلك التجديد، وأنها قراءة عصرية وتطبيق حقيقي لروح الإسلام)[(١)].

وللأسف فقد انخدع بعض المسلمين بهذه الشعارات الكاذبة، فراحوا يضاهونهم في كتابتهم ويشاكلونهم في أطروحاتهم ويؤيدونهم على تكلفاتهم.

إننا لا ننكر أن من المفسرين والكتاب في هذا العصر من (يحمل النصوص القرآنية ما لا تحتمل! ولكن أن يستغل ذلك العلمانيين ليشوهوا الدين كما يفعلون مع الاجتهادات الخاطئة والفتاوى الشاذة فهذا ليس من العلم! لأن علماء الإسلام لم يؤيدوا التفسيرات والتأويلات الخاطئة لا في أمور الدين ولا في التفسير المادي لبعض الآيات)[(٢)].

---

(١) ينظر: نفس المصدر (ص: ٩٩).

(٢) العلمانية منبع الضياع لعيد الدويهيس(ص: ٨)، بدون ناشر.

ومن أشهر الآيات التي استغل العلمانيون التكلف في تفسيرها، آية تحريم الربا في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[١]، وهي آية صريحة اللفظ بيّنة المعنى!

فقد وجدوا في كتب التفسير المعاصرة من يتعسف تفسيرها بما لم يُعهدُ عن السلف والخلف! نعم.. وجدوا الإمامين محمد عبده ومحمد رشيد رضا يقولان في تفسير هذه الآية: إن الربا المحرم هو الربا الفاحش الذي جاء وصفه في القرآن بأنه أضعافاً مضاعفة[٢] وهما أول من قال بهذا من المعاصرين[٣].

وجدوا هذا القول المتكلف فراحوا يضخمونه ويروجون له! ويبسطون به ألسنتهم، كل ذلك ليس حباً في علي وإنما بغضاً لمعاوية! أي والله... إن العلمانيين قد روجوا لهذا القول ليس احتراماً لأقوال محمد عبده ولا محمد رضا، ولكن لأن هذا القول خالف ما جاءت به الشريعة، ووافق ما اشتهت نفس العلمانية التي تؤمن بإباحة البنوك الربويّة...!

ولا شك أنما ذهب إليه الإمامان محمد عبده ورشيد رضا في تفسير الآية تكلف مردود، لأن عامة من تكلم فيها من المفسرين لم يختلفوا أنها تفيد حرمة الربا، ولذا شذ قولهما عن ما تعاقب عليه العلماء. ولعل هذا هو السر في كثرة المؤلفات التي خرجت مؤخراً للرد على هذه الشبهة[٤].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٧٥.

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رضا(٣/ ٧٩).

(٣) ينظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب لمحمد حامد الناصر(ص: ١٥٧)، مكتبة الكوثر – الرياض. الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

(٤) وقف الباحث على مجموعة كبيرة من المؤلفات التي تتحدث حول شبهة إباحة الربا، ومن هذه =

إن المعلوم بالاضطرار عندنا معشر المسلمين أن الربا محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فللآية السالفة الذكر، وأما السنة فلما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) [١].

وأما الإجماع فقد حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عندما سئل فأجاب: (المراباة[٢] حرام بالكتاب والسنة والإجماع) [٣].

إذا علمت هذا فاعلم أن ما يتفيهق[٤] به العلمانيون اليوم – من محاولة إباحة البنوك الربوية وإعطائها الصبغة الشرعية – ما هو إلا استغلال ماكر لأقوال متكلفة شاذة وجدوها في كتب التفسير، وهو لا شك أثر من أثار التكلف في

المؤلفات على سبيل التمثيل: الشبهات المعاصرة لإباحة الربا لشوقي أحمد، وشبهات معاصرة لاستحلال الربا لمحمد عبد الله الشيباني.

(١) صحيح البخاري(٣/١٠١٧)، كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾، حديث رقم: ٢٦١٥.

(٢) في بعض النسخ (الربا حرام بالكتاب والسنة والإجماع).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢٩/٤١٨).

(٤) التفيهق: هو التوسع في الكلام والتنطع فيه تَكَلُّفاً وخروجاً عن الحق ينظر: لسان العرب لابن منظور(٤/١٠١).

التفسير.

ومن الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى أن كل من أدلى بدلوه من العلمانيين وغيرهم في هذه المسألة - أعني إباحة الربا - يجمعون على أن عمدهم في ذلك هو قول محمد عبده - رحمه الله- من المعاصرين، بالرغم أن محمد عبده - رحمة الله عليه - لم يقل بإباحة الربا مطلقاً، وإنما قال بإباحة اليسير منه ولكن انظر كيف اتخذه العلمانيون مدخلاً يصلون به إلى مآربهم، وهذا ما جعل الدكتور سفر الحوالي يقول: إن هذا - أي القول - من أخطر آثار محمد عبده التي تعد ركيزة من ركائز العلمانية في العالم الإسلامي[1].

إننا نعلم أن محمد عبده - رحمه الله - كان يحمل الخير بين جنبيه، وقد سَخَّر لبيانه لسانه التي بين فكيه، وما دام أنه قد دخل في دائرة البشرية، فلا بد له إذن أن يدخل في العموم الذي أطلقه النبي ﷺ بقوله: (كل بني آدم خطاء)[2] وعليه فلابد له أن يقع في بعض الأخطاء، وليس عيباً أن يقع في الخطأ إذ هو ليس بمعصوم، ولكن العيب كل العيب أن يَسْلُقه بعض الكُتّاب بألسنة حداد؛ فتارة يُلصقون به عقيدة الاعتزال، وتارة أخرى يلقون عليه ثياب الماسونية! وتارة ثالثة يجعلونه في صف العلمانية! وجاوز الحد بعضهم فأخرجه من الملة الإسلامية[3]! وهذا غلو مرفوض، وللنفس مبغوض، إذ الحق في الإنصاف وما

---

(١) ينظر: العلمانية لسفر الحوالي(ص: ٥٧٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٢/١٢)، حديث رقم: ٧٦١٧. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(٣) ينظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير لفهد الرومي، تحت عنوان: موقف علماء المسلمين منهم - أي رجال المدرسة العقلية - من(ص: ٧٨١)إلى(ص:٨٠٣).

أعزُّ الإنصاف في زمان الأخلاف!

إننا لا ننكر أن كثيراً من أقوال محمد عبده الموجودة في تفسير المنار وغيره كانت دعائم للعلمانيين في هذا العصر، ولكننا ننكر أن يوصف هذا الإمام بالماسونية أو العلمانية، لأن هذه أفكار هدامة هدفها إضعاف الإسلام وهدمه، ولم يكن ذلك هو هدف محمد عبده – رحمة الله عليه – وعلى هذا (لم يكن محمد عبده علمانياً، ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية والعالم الإسلامي)(١) كما يقول الشيخ سفر، وهي عبارة قريبة من الإنصاف، وما أنصفها لو قال: ولكن بعض أفكاره تمثل...إلخ. لأن أفكار محمد عبده ليست كلها تمثل حلقة وصل بين العلمانية والإسلام وإنما بعضها.

وعلى كل حال فحاصل القول أن بعض المفسرين قد وقعوا في بعض التكلفات في التفسير، سواء بإحداث قول جديد عن طريق الرأي، أو بترجيح قول ضعيف بعيد من غير حاجة وكل ذلك قد ترك أثراً سيئاً والله أعلم.

۞۞۞

(١) العلمانية لفسر الحوالي(ص: ٥٧٩).

المطلب الثالث: المثقفون.

بالرجوع إلى المعاجم العربية نجد أن الثقافة مأخوذة من الفعل (ثقُف) بضم القاف ومعناه: الحذق والفطنة والفهم، يقال: رجل ثَقِفٌ وثَقُفٌ أي أصبح حذقاً وفهماً وفطناً، وثقف الأمر أي حذقه وفهمه[١]. هذا من حيث الأصل.

ولكن في العصر الحديث قد تغير هذا المصطلح تماماً، فقد أصبح يطلق على ما يتعلق بـ(الجانب الفكري في حياة الفرد والأمة، علماً ومعرفة وتصوراً وعقيدة)[٢].

وقد عرف أهل الاختصاص الثقافة فقالوا: هي (الأخذ من كل علم بطرف، ولا يراد بها التعمق في دراسة علم من العلوم)[٣] ؛ وبناءاً على هذا فالمقصود بالمثقفين: هم الذين أخذوا من كل علم بطرف[٤].

وفي مطلع القرن والرابع والخامس عشر الهجريين – وبالذات الخامس- اقترن مصطلح الثقافة بالأدب[٥]، فلا تُذكر الثقافة إلا ويُذكر معها الأدب فكثيراً

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور(٩/١٩)، وتاج العروس للزبيدي(٢٣/٦٠).

(٢) الثقافة والعالم الآخر الأصول والضوابط، للدكتور عبد الله بن إبراهيم الطريفي (ص: ١٤)، دار الوطن – الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٥ه.

(٣) نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور عمر الأشقر(ص: ١٨)، دار النفائس- الأردن. الطبعة الخامسة:١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

(٤) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي(٣/١١٤٠).

(٥) إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام لأنور الجندي(ص:٥)، دار الاعتصام – القاهرة. إيداع ١٩٨٥م. ومجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ص:٣٠)، العدد ٥٢ سنة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

ما يقال: الثقافة والأدب، أو الأدب والثقافة، وكأنهم بهذا يريدون أن يقولوا: إن أهل الأدب هم المثقفون! وهذا هو العرف الشايع اليوم [١].

وإذا نحن جرينا على هذا العُرف فسيكون أهل الأدب هم المقصودون بداءةً بمصطلح المثقفون، لأن إتقان اللغة والإلمام بعلومها، هو الركن الركين التي تُبنى عليه الثقافة عندنا معشر العرب، إذ كيف يكون المرء مثقفاً وهو لم يتقن لغته؟!.

وقد اغتر كثير من أهل الأدب – فعلاً – بهذا المصطلح فأخذوا يتناولون كثيراً من المسائل الشرعية في العقيدة والتفسير والفقه وغيرها.

وبالنظر نجد أن الدافع الرئيسي لهؤلاء للخوض في مثل هذه المسائل هو أنهم أتقنوا اللغة العربية من نحو وتصريف وبلاغة وغيرها، فظنوا أنهم بذلك قد بَلَغوا مبلغ العلماء ودرجة الفقهاء، وأسوأ من ذلك أنهم نظروا إلى النص القرآني إلى أنه نص عربي بعيداً عن القداسة والقدسية (ولهذا نجد في كتابات بعض المعاصرين من يتعامل مع النص القرآني كما يتعامل مع قطعة أدبية قابلة للنقد والطعن والتشكيك، والصدق والكذب!!) [٢]. وبعد هذا يزعم بعضهم أنه يفهم اللغة كما يفهمها المفسرون من أمثال الطبري والزمخشري!!.

ولعمر الحق إن هذا من أسوأ الانحراف في منهج التعامل مع القرآن الكريم، إذ ليس إتقان اللغة إلا شرطاً واحداً من شروط المفسر، ولا بد إذن أن يحتاج إلى

---

(١) ينظر: الأدب والثقافة علاقة مصيرية وهو مقال كتبه د: مصطفى بكري السيد في مجلة البيان(ص: ٥٦)، العدد ٢٩ ذو القعدة سنة ١٤١٠هـ.

(٢) تحريف المصطلحات القرآنية وأثره في انحراف التفسير لفهد الرومي(ص: ٨٧-٨٨).

بقية الشروط، فكيف نستكفي به !!

إن الاقتصار على اللغة فحسب في تفسير النصوص، خطأ فاحش غالباً ما ينتج عنه أقولاً متكلفة، وهذا معلوم بالضرورة.

وكم يَحُزُّ في النفس أن يستشهد هؤلاء المثقفون لتدعيم تكلفهم، بأقوال بعض المفسرين المتكلفة – وفي الحين نفسه يَدَعُون الأقوال الصحيحة المتكاثرة – ظناً منهم أن ذلك سيكسبها قوة، وفاتهم أن ما بُني على تكلف فهو تكلف!

وممن فعل هذا محمد أحمد خلف الله الذي تحدث في كتابه (الفن القصصي في القرآن الكريم) عن القصة التمثيلية والخيالية في القرآن حيث خلص بقوله: (وهكذا نستطيع أن ننتهي من الحديث عن هذا اللون من القصصي ونقول بأن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة في القرآن الكريم باعتراف أئمة التفسير من القدماء والمحدثين)[1] وواضح من سياق حديثه أن هذا القول قد بناه على بعض الأقوال المتكلفة في كتب التفسير، وعند البحث عن المفسرين الذين عناهم بقوله (أئمة المفسرين من القدماء والمحدثين)، نجد أن الإمام محمد عبده من المعاصرين أحدهم، والجزم آكد أنه المقصود بذلك، بدليل أن هذا القول الذي ذهب إليه محمد خلف الله قد قاله بعد أن ساق قول محمد عبده في قصة آدم ليصل إلى زعمه!

وقد سبق معنا في هذا البحث أن القول بوجود القصة التمثيلية قول

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله(ص:١٧٠)، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة. الطبعة الثالثة: ١٩٦٥م.

متكلف، وأن قصص القرآن حقيقية وليس خيالية.

وعلى هذا نقول: إن ما زعمه محمد خلف الله أنه (لن نجد من يعــارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال أنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم في بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون)[١] زعم باطل! لأنه مبني على تكلــف باطل، وما بُني على باطل فلابد أن يكون باطلاً.

وليته إذ زعم هذا وقف عنده، بل أتى بطامة هي أكبر من سابقتها حيــث زعم أن في القرآن أساطير! فقال: (يجب أن نحرص على فتح هــذا البــاب ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود الأساطير في القرآن الكريم!) إلى أن قال: (وإذا ما قال المستشرقون إن القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير قلنا ليس في ذلك بــأس على القرآن! فإنما هذا السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى، ويكفينــا فخراً أن كتابنا الكريم قد سن السنن وقعد القواعد وسبق غيره في هذا الميدان!)[٢]، ثم حاول أن يروض قارئ هذا التعسف المهزوم فقال: (ومن هنا يجب أن لا يزعجنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء أن القرآن أساطير!!! ذلك أن هذا الإثبات لن يعارض نصاً من نصوص القرآن الكريم)[٣] سبحان الله! أَبَعد أن يتهم القرآن بأنه أساطير يزعم أنه لا يعارض نصاً من نصوصه! وماذا يقول

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله(ص: ١٨٢).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

هذا المثقف لو قرأ قول الله تعالى في نفس قصة أصحاب الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾[(١)].

إن كل هذا الهراء الذي خطه حِبر هذا القلم الآسن ما هو إلا أثر لسبب.. والسبب هو التكلف في تفسير كلام الله، إذ لولا التكلف لما وجد هذا المثقف طريقاً إلى مدعاه.

ألا وإن مما ينبغي أن يتنبه له في هذا المقام هو أن المغرضين من المثقفين وغيرهم لا يكتفون باستغلال الأقوال المتكلفة في حدود المعنى الذي تتحدث عنه تلك الأقوال، بل يستغلونها إلى أبعد من ذلك !

ولنرجع قليلاً إلى السطور السابقة... لنجد أن محمد خلف الله لم يكتف بأن يقول: إن في القرآن قصصاً تمثيلية وخيالية – كما هو المستفاد من قول محمد عبده – وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك وهو أن في القرآن أساطير!

والأدهى والأمرُّ من ذلك أن يأتي من يحمل لقب (المثقف) بمفهومها العصري الآخر – وهو من أخذ من كل علم بطرف – ليقول بكل تبجح: (لو سألني سائل الآن: ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي: بكل جرأة ويقين هو: كلا لا يسعني ما وسعهم !!)[(٢)] يقول هذا وهو لم يتمكن حتى من علم اللغة نفسها وإنما حاله أنه (لم ترسخ قدمه في علمِ كتاب ولا سنة، ولا فقه ولا أصول، ولم يتلقَ العلم من أهله، إنما جمع قشوراً من

(١) سورة الكهف الآية: ١٣.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي(ص: ٤١١).

قراءات هامشية، ومطالعات سطحية، وثقافة أجنبية)[١]

أليس من اليسير على مثل هذا أن يتبنَّى فكرةً مِعوجّة ثم لا يلبث أن يخلُص إلى بعض التفاسير العامة أو الجزئية ليبحث عن قول متكلف ليدعم بها تكلفه.

إننا نشكوا إلى الله تطاول المتعالمين الذين كُثَر في هذا الزمان عددهم، وقويت فيه شوكتهم، فلا يكاد يمر الشهر إلا ونطالع شيئاً من أعاجيبهم والله المستعان عما يكتبون ويستنبطون.



(١) نفس المصدر والصفحة.

خلاصة البحث

وبعد أن خضنا غمار هذا البحث، واستمتعنا بالنظر في فصوص فصوله، واستنشقنا عبير مباحثه، وتفيأنا ظلال مطالبه نستطيع أن نوجز حرف عبارته فنقول:

إن التكلف في التفسير مصطلح تركيبي يعني محاولة حمل الآية على معنى قد يحتمله اللفظ مع وجود المعنى الظاهر من غير حاجة شرعية.

وهو مصطلح شديد الشبه بالتأويل والتفسير الإشاري، إذ يفرق بينهما استيفاء شروط كل منهما.

وقد تتبعنا نشأة هذا المصطلح فوجدنا أن عصر الرواية يتماز بعدم تكلف السلف في التفسير وإن كان قد ظهرت فيه بوادر التكلف.

وظل الأمر كذلك حتى العصر العباسي حيث ظهرت الفرق فظهر معها التكلف في أوضح صورة، ثم بلغ ذروته في العصر الحديث.

وعرفنا أن أشهر المتكلفين قديماً الفخر الرازي والزمخشري. ثم عرّجنا على مظان التكلف في التفسير عند المعاصرين، وعلمنا أن أشهر من المتكلفين من المعاصرين طنطاوي جوهري، والكاتب مصطفى محمود – رحمة الله على الجميع – مع العلم أن أشهر تكلفات المعاصرين حول ما يسمى بالإعجاز أو التفسير العلمي، كما تعرفنا في المبحث ذاته على أشهر الذين عنو بنقد التكلف في التفسير من أمثال ابن عاشور في (التحرير والتنوير)، وسيد قطب في (في ظلال القرآن)، والدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه الفذ (التفسير والمفسرون)،

والدكتور محمد أحمد جمال في كتابه (القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته).

ثم وصل بنا الحديث إلى الكلام عن أهم الأسباب التي تحمل هذا المفسر أو ذاك الكاتب أن يتكلف تفسير آية ما، فوجدنا أن من الأسباب ما كانت مشتركة بين المتقدمين والمتأخرين كالانحراف العقدي، والخوض فيما سكت عنه الشرع، والتعصب المذهبي والفقهي، وإغفال التفسير بالمأثور التوسع في التفسير الإشاري.

ووجدنا كذلك أن من الأسباب ما كانت خاصة بالمعاصرين مثل المبالغة في التفسير العلمي، وعدم التمكن من شروط المفسر، ودعوى التجديد المزعومة.

وأخيراً كان مسك الختام الكلام على آثار التكلف في التفسير حيث انقسم فيه الحديث على قسمين: قسم تعلق بتحريف الكلم عن مواضعه، وقد ظهر جلياً في زعزعة العقيدة، والشذوذ ومخالفة الإجماع، ودعوى النسخ.

وقسم تعلق بفتح الطريق أمام المغرضين وقد اقتصر حديثنا عن المستشرقين والعلمانيين والمثقفين. وقد تكلمنا بالتفصيل عن كل سبب وأثر بما فيه الشفاء من العي. نسأل الله أن ينفع بهذا السفْر كاتبه وقارئيه إنه ولي ذلك والقادر عليه. اللهم آمين.

❁❁❁

الخاتمة

اللهم لك الحمد على توفيقك بعد تسديدك، ولك الشكر على تيسيرك بعد تأييدك، لك الحمد على ما مكنتني مما قصدت، فأديتُ ماتمنّيت، وهأنذا أصل إلى مرفأ الأمان بعد أبحرت على متن سفينة هذا البحث عابراً بحار التفسير وعلوم القرآن، حيث كنت أصطاد الفوائد بسنارة القلم، وأستكشف دُرَر مُحَار المسائل بمنظار الفهم، وإذ قد ضربتُ في ذلك البحر الفسيح فمن حقي أن أستريح...

وقبل أن أخلد إلى ذلك أود أن أثبت أدناه أهم النتائج التي توصلت إليها خلال هذه الرحلة الممتعة وهي كما يلي:

١- التكلف خلق مذموم في جميع نواحي الحياة، وهو في التفسير أكثر ذماً.

٢- التكلف في التفسير مصطلح شديد الشبه ببعض المصطلحات الشرعية الصحيحة ووجه الفرق بينهما دقيق جداً فليتنبه لذلك.

٣- كنت أظن أن من السهل الحديث عن التكلف في التفسير ولكن أفادني البحث أنه موضوع ضخم، شديد الحساسية.

٤- امتاز عصر الرواية بخلوه في الجملة عن التكلف في التفسير وإن كان قد بدأت بوادره فيه، ولكن ظل متروكاً في صندوق الإهمال.

٥- يعتبر عصر التدوين - وخصوصاً في العهد العباسي- الأرض الخصبة التي نشأ فيها التكلف في التفسير، وذلك لظهور الفرق.

٦- ويعتبر العصر الحاضر هو العصر الذهبي للتكلف في التفسير كثرة

وانتشاراً.

٧- هناك قاسم مشترك في أسباب التكلف في التفسير بين المتقدمين والمعاصرين، كما أن من الأسباب ما يختص به المعاصرون.

٨- يعتبر سبب الانحراف العقدي أكثر سبب أوقع المتقدمين في التكلف في التفسير، كما أن المبالغة في التفسير العلمي أكثر سبب أوقع المعاصرين في التكلف في التفسير.

٩- كان للتكلف في التفسير- قديماً آثاراً سيئة تمثلت في كثير من النواحي كزعزة العقيدة والشذوذ ومخالفة الإجماع وغيرها.

١٠- ومن ناحية أخرى فقد فتح التكلف في التفسير الطريق أمام المغرضين للطعن في الإسلام والمسلمين.

المراجع والمصادر

التفسير وعلوم القرآن

أولاً: التفاسير

١- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

٢- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣- التفسير الحديث لمحمد دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ودار الغرب الإسلامي - دمشق. ١٣٨٣هـ.

٤- التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي - القاهرة.

٥- التفسير الكبير لمحمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، دار إحياء التراث العربي.

٦- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.

٧- التفسير الميسر للدكتور عائض القرني، مكتبة العبيكان- الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م

٨- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لشيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي.

٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، تحقيق: سمير البخاري. دار عالم الكتب، الرياض، طبعة سنة: ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣ م.

١٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.

١١- الجواهر لجوهري، دار الفكر.

١٢- الجواهر لطنطاوي جوهري، انتشارات آفتاب تهران.

١٣- الدر المنثور لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي(٢٠٩/٧)، دار الفكر - بيروت، طبعة سنة: ١٩٩٣م.

١٤- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٧هـ.

١٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣ه-١٩٩٣م.

١٦- المقتطف من عيون التفاسير، تحقيق: محمد علي الصابوني دار السلام – القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ.

١٧- أحكام القرآن لابن العربي، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

١٨- أحكام القرآن للجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، طبعة سنة: ١٤٠٥هـ.

١٩- أضواء البيان للشنفيطي، دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٠- تفسير التسترى. لسهل بن عبد الله التستري(ص: ٢٩)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٣ه.

٢١- تفسير الشعراوي. أخبار اليوم- قطاع الثقافة.

٢٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ .

٢٣- تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٢٤- أيسر التفاسير للجزائري، طبعة خاصة بالمؤلف- المدينة المنورة. طبعة سنة: ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

٢٥- تفسير آيات الأحكام محمد علي السايس، المكتبة العصرية للطباعة والنشر. سنة النشر: ٢٠٠٢م.

٢٦- تفسير جزء عم لمحمد عبده ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – مصر. طبعة سنة: ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٢٧- تفسير سورة النور للمودودي ، دار الفكر.

٢٨- تيسير الكريم الرحمن تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

٢٩- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، تحقيق: علي عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية- بيروت.

٣١- زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن ابن الجوزي، المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ.

٣٢- زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي

٣٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني، دار ابن كثير- بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٩ه-١٩٩٨م.

٣٤- في ظلال القرآن لسيد قطب دار الشروق ـ القاهرة.

٣٥- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨ه-١٩٩٧م.

٣٦- معالم التتريل للبغوي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

ثانياً: علوم القرآن

١- اتجاهات التفسير في العصر الراهن لعبد المجيد المحتسب، دار البيارق. الطبعة الثالثة: ١٤٠٢هـ - ١٩٩٢م.
٢- اتجاه التفسير في العصر الحديث لمصطفى الحديدي الطير، سلسلة البحوث الإسلامية ١٣٩٥ه.
٣- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر للدكتور محمد إبراهيم الشريف، دار التراث- القاهرة . الطبعة الأولى: ١٤٠٢ه.
٤- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٧ه- ١٩٩٧م.
٥- الاختلاف في التفسير حقيقته وأسبابه للدكتور وسيم فتح الله، بدون ناشر.
٦- الإتقان لجلال الدين السيوطي تحقيق: سعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت. الطبعة الثانية ١٤٢٤ه- ٢٠٠٤م.
٧- الإجماع في التفسير للدكتور محمد الخضير، دار الوطن- السعودية.
٨- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير. للدكتور: محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة. الطبعة الرابعة.
٩- الإعجاز العددي للقرآن الكريم لعبد الرزاق نوفل مطبوعات الشعب – مصر. الطبعة الثالثة.
١٠- الأقوال الشاذة في التفسير نشأتها وأسبابها وآثارها، للدكتور عبد الرحمن بن صالح الدهش، سلسلة إصدارات الحكمة. الطبعة الأولى: ١٤٢٥ه.
١١- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت. ١٣٩١هـ.
١٢- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، دار الفكر.

١٣- التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة ناشرون- بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٢ه-٢٠٠٢م.

١٤- التبيان في علوم القرآن للصابوني، دار عالم الكتب - بيروت. الطبعة الأولى:١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٥- التفسير العلمي للقرآن أحمد عمر أبو حجر.دار المدار الإسلامي- بيروت. الطبعة الثانية.

١٦- التفسير معالم حياته منهجه اليوم للخولي، دار الكتاب اللبناني. الطبعة الأولى: ١٩٨٢م.

١٧- التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ، دار آونددانش. الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.

١٨- التفسير ورجاله لمحمد فاضل ابن عاشور، دار الكتب الشرقية - تونس. الطبعة الثانية: ١٩٧٢م.

١٩- التفسير ورجاله، لمحمد محمود حوّا، دار نور المكتبات. الطبعة الأولى سنة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠- الرد على كتاب (كتاب الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم)، لعلي بن عبد الرحمن القضيب العويشز. بدون ناشر.

٢١- القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته، مطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

٢٢- القرآن محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثالثة.

٢٣- القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية للدكتور محمد محمد أبو ليلة، دار النشر للجامعات - مصر. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٤- القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي- بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٣هـ.

٢٥- القول الفصل في قضية الهم بين يوسف وامرأة العزيز. بدون ناشر.

٢٦- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودى، دار العلم الدار الشامية – دمشق. ١٤١٢هـ.
٢٧- المفسر شروطه، آدابه، مصادره أحمد قشيري سهيل، مكتبة الرشد ناشرون- الرياض. الطبعة الأولى:١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٢٨- المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع، مركز البحوث الإسلامية – بريطانيا. توزيع مؤسسة الريان – بيروت . الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٢٩- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح – الكويت. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.
٣٠- أسباب الخطأ في التفسير للدكتور طاهر محمود يعقوب، دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ.
٣١- آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي عرض ونقد، إعداد: الدكتور إدريس حامد محمد، بدون ناشر.
٣٢- آيات قرآنية في مشكاة العلم لـ د. يحيى الحجري ، دار المختار الإسلامي.
٣٣- تأصيل الإعجاز العلمي المعجزة لشيخنا عبد المجيد الزنداني. طبعة سنة١٤٢١هـ.
٣٤- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين لصلاح الخالدي، دار القلم – دمشق. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٥- دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي، مكتبة التوبة – الرياض. الطبعة السابعة: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٣٦- علوم القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر، مطبعة الصباح. الطبعة السادسة: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٣٧- علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه. دار الأعلام – الأردن. الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣٨- في ظلال القرآن في الميزان لصلاح الخالدي، دار المنارة – جـدة. الطبعـة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٩- في ظلال دلالات سورة الكهف. عرض ونقد، للدكتور جمال أبو حسان.

٤- قصص الأنبياء لعبد الوهاب ابن الشيخ سيد أحمد النجار، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة.

٤١- قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم– الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٤٢- قواعد التفسير لخالد السبت، دار ابن عفان، الطبعة الأولى.

٤٣- كتاب الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم لسعد عبد المطلب العدل، مكتبة مدبولي- القاهرة. طبعة سنة: ٢٠٠٢م.

٤٤- كيف نتعامل مع القرآن الكريم للدكتور القرضاوي، مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٥- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير للدكتور محمد لطفي الصباغ ، المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٤٦- مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم، دار القلم – دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٧- مباحث في علوم القرآن تأليف: صبحي الصالح، دار العلم للملايين.

٤٨- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٤٩- مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي. دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت. الطبعة الخامسة: ١٤٢٤هـ.

٥٠- مدخل إلى ظلال القرآن لصلاح الخالدي، دار المنارة – جدة . الطبعة الأول: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

مدخل لتفسير التحرير والتنوير بدون ناشر.

٥١- مفهوم التفسير والتأويل والإستنباط والتدبر والمفسر لمساعد الطيار، دار ابن الجوزي– الدّمام، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

٥٢- مقاصد القرآن الكريم للإمام الشهيد حسن البنا، دار الشهاب. طبعة سنة: ١٤٠٨ه-١٩٨٧م.

٥٣- مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى به فواز زمرلي، دار ابن حزم – بيروت . الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.

٥٤- من غرائب المفسرين في أواخر القرن العشرين للشيخ محمد عبد الله الشنقيطي، طبعة سنة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٥- مناهج المفسرين (القسم الأول) التفسير في عصر الصحابة للدكتور مصطفى مسلم، دار المسلم–الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٥ه.

٥٦- مناهج المفسرين للشيخ صالح آل الشيخ ، وأصلها محاضرة مفرغة من شريط.

٥٧- مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،الطبعة: الطبعة الثالثة.

٥٨- منجد المقرئين لمحمد بن محمد بن محمد ابن الجزري، اعتنى به علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة. الطبعة الأولى.

٥٩- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير للرومي، الطبعة الثانية: ١٤٠٣ه-١٩٨٣م، وحقوق الطبع خاصة بالمؤلف.

٦٠- نحو منهج أمثل لتفسير القرآن للدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي وهو بحث مقدَّم للمؤتمر الإسلامي العالمي عن مناهج المفسرين.

٦١- نحو منهج لتفسير القرآن لمحمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر -جدة. الطبعة الأولى: ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

٦٢- نواسخ القرآن لابن الجوزي، الجامعة الإسلامية: ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

٦٣- وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور لفهد الرومي، مكتبة التوبة - الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

الحديث وعلومه

١- الجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الأولى: ١٢٧١هـ.

٢- السلسلة الصحيحة للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.

٣- السلسلة الضعيفة للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف - الرياض. الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤- المستدرك للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار الحرمين - القاهرة. طبعة سنة: ١٤١٥هـ .

٦- المعجم الصغير، للطبراني، تحقيق: محمد أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ.

٧- النهاية في غريب الأثر لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ، المكتبة العلمية - بيروت. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٨- النهاية في غريب الأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر الزاوى، المكتبة العلمية - بيروت. ١٣٩٩هـ.

٩- أحاديث في ذم الكلام لأبي الفضل المقرىء، تحقيق: د. ناصر الجديع، دار أطلس- الرياض. الطبعة الأولى: ١٩٩٦م.

١٠- تيسير مصطلح الحديث للدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١١- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢- سنن الدارمي لعبد الله الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.

١٣- سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود ، تعليق الألباني، دار الكتاب العربي - بيروت.

١٤- شرح النووي على صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ.

١٥- شرح رياض الصالحين، تعليق: محمد الصابوني، دار الأفق - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٦- شرح سنن ابن ماجه لكل من: السيوطي، عبد الغني، فخر الحسن الدهلوي، قديمي كتب خانة - كراتشي.

١٧- صحيح البخاري تحقيق: د مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

١٨- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٩- صحيح مسلم، دار الجيل، دار الآفاق.

٢٠- عون المعبود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ.

٢١- غريب الحديث لابن الجوزي، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٨٥م.

٢٢- فتح الباري، دار المعرفة - بيروت، طبعة سنة: ١٣٧٩هـ.

٢٣- مجمع الزوائد لنور الدين علي بن أبو بكر الهيثمي، دار الفكر - بيروت. طبعة سنة: ١٤١٢هـ.

٢٤- مسند البزار لأبي بكر أحمد البزار، تحقيق: مجموعة من المحققين. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة الأولى.

٢٥- مسند أحمد مؤسسة قرطبة - القاهرة.

٢٦- مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ.

٢٧- مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر- سوريا، ودار الفكر المعاصر - بيروت. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

العقيدة

١- الموسوعة الميسرة في الأديان المذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف الدكتور: مانع الجهني، دار الندوة العالمية - الرياض. الطبعة الخامسة: ١٤٢٤ه.

٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم، مكتبة ابن تيمية- مصر. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

٣- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لمحمد بن عمر الرازي ، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية - بيروت. ١٤٠٢هـ.

٤- التحف في مذاهب السلف للشوكاني، تحقيق: طارق السعود، دار الهجرة - بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

٥- العقائد الإسلامية للسيد سابق، دار الفتح للإعلام العربي ـــ القاهرة.

٦- الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت ١٤٠٤هـ.

٧- المواقف لعضد الدين عبد الرحمن الإيجي، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل- بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٨- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة — بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

٩- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية — الرياض،١٣٩١هـ.

١٠- شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي — بيروت. الطبعة الثانية: ١٤١٤ه.

١١- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة — الرياض. ١٤٠٢هـ.

١٢- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام. للشيخ ناصر بن علي الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض. الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

١٣- كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها لعماد السيد محمد إسماعيل الشربينى، دار الكتب المصرية. الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٤- مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، للحارث المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي و دار الفكر — بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ.

الفقه وأصوله

١- الاجتهاد والتجديد في الشريعة الإسلامية للخواص الشيخ العقاد، دار الجيل — بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٢- الإحكام في أصول الأحكام لعلي الآمدي، تحقيق: د. سيد الجميلـي، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ.
٣- الإحكام في أصول الأحكام لعلي بن أحمد بن حـزم الأندلسـي، دار الحـديث – القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٠٤ه.
٤- الأم للإمام الشافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت. الطبعة الثانيـة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٥- التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين (دراسة أصولية فكرية معاصـرة)، لإبراهيم محمد طه رسالة ماجستير تقدم بها لجامعة القدس - الدراسات العليا - قسم الدراسات الإسلامية.
٦- الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري، دار الفكـر والكتـب العلميـة – بيروت. توزيع مكتبة الباز – مكة المكرمة.
٧- المستصفى في علم الأصول لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت،الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ.
٨- المحصول في علم الأصول للرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض. الطبعة الأولى:١٤٠٠ه.
الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر.
٩- الموافقات للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفـان. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٠- الوجيز في شرح القواعد الفقهية للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسـة الرسـالة. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

١١- إجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي، و شيخنا الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى: ١٩٨٦م.

١٢- إرشاد الفحول للشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٣- فقه العبادات على المذهب الشافعي، للشيخ الحاجّة درية العيطة. الطبعة الخامسة.

١٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء. الطبعة الثالثة: ١٤٢٦هـ.

اللغة والمعاجم

١- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٥ه.

٢- التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر – بيروت. الطبعة الأولى.

٣- القاموس المحيط للفيروزآبادي، بدون ناشر.

٤- المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٥- المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.

٦- المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العصرية - صيدا- بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧- المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا، بدون ناشر.

٨- تاج العروس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٩- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى: ٢٠٠١م.

١٠- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر. الطبعة الثانية: ١٩٨٨م.

١١- كتاب الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات لأبي مريم بن محمد الأعظمي، بدون ناشر.

١٢- كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي،تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٣- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت. الطبعة الأولى.

١٤- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت. طبعة جديدة ١٤١٥هـ.

١٥- معجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

١٦- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة. كحالة، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٧- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر. طبعة سنة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٨- موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين. الطبعة الأولى: ١٩٩٣م.

التراجم والطبقات والسير

١- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

٢- الإمام عبد الحميد باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية للدكتور محمود قاسم، دار المعارف - مصر.

٣- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين - بيروت.

٤- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف - بيروت.

٥- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت. الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.

٦- الثقات لابن حبان، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد ، دار الفكر - سوريا. الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٧- الرد الوافر لمحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش زغلول . المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى: ١٣٩٣ه.

٨- الرد الوافر لمحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.

٩- السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م.

١٠- الشفا بتعريف حقوق المصطفى لأبي الفضل عياض اليحصبي، دار الفكر- بيروت. طبعة سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

١١- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت. الطبعة: الأولى: ١٩٦٨م.

١٢- الفهرست لمحمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، دار المعرفة – بيروت. طبعة سنة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٣- الكاشف للذهبي تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو جدة. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ.

١٤- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لبرهان الدين بن مفلح، تحقيق: د

١٥- عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد - السعودية. طبعة سنة: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، دار صادر – بيروت. الطبعة الأولى.

١٧- الوافي في الوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت. طبعة سنة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٨- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت. طبعة سنة ١٩٧٨م.

١٩- أبو الأعلى المودودي لخليل أحمد الحامدي، مطبعة المكتبة العلمية – لاهور.

٢٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان.

٢١- تَاج التراجم لأبي الفداء زين الدين قاسم بن قُطلُوبغا السودوني، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم دمشق. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٢- تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي- بيروت. الطبعة الرابعة.

٢٣- تاريخ بغداد لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية- بيروت.

٢٤- تذكرة الحفاظ للذهبي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى.

٢٥- تقريب التهذيب لابن حجر، تحقيق: محمد عوامة ، دار الرشيد – سوريا. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢٦- تقريب التهذيب لابن حجر، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار المكتبة العلمية بيروت – لبنان.
٢٧- تهذيب التهذيب لابن حجر، دار الفكر – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ.
٢٨- تهذيب الكمال للمزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٢٩- حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ.
٣٠- زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ، دار الكتاب العربي – بيروت. طبعة سنة١٩٧٩م.
٣١- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، دار القلم – دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٣٢- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة– بيروت. الطبعة التاسعة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٣٣- شذرات الذهب لعبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير- دمشق. سنة النشر ١٤٠٦هـ.
٣٤- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود.عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ.
٣٥- طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب – بيروت. الطبعة: الأولى: ١٤٠٧هـ.

٣٦- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت . طبعة سنة: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٧- طبقات الفقهاء الشافعية لتقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، تحقيق: محيي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية - بيروت. طبعة سنة: ١٩٩٢م.

٣٨- طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: ١٩٧٠م.

٣٩- طبقات المفسرين للسيوطي تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة. الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ.

٤٠- طبقات المفسرين للأدنوري، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.

٤١- لسان الميزان لابن حجر، تحقيق: دائرة المعرف النظامية- الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٢- معرفة الثقات لأحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار- المدينة المنورة. الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ

٤٣- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة للعقيل دار التوزيع والنشر.

نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر للدكتور يوسف المرعشلي، دار المعرفة – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م.

٤٤- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

كتب عامة

١- افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد للدكتور: عبد العظيم إبراهيم المرطعني، مكتبة وهبة - القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٧ه-١٩٩٢م.

٢- الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه للقرضاوي، مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣- التبشير والإستشراق أحقاد وحملات على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبلاد الإسلام لمحمد عزت إسماعيل الطهطاوي، الزهراء للإعلام العربي. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٤- التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، لمنى الشافعي، دار اليسر – القاهرة. الطبعة الأولى: رجب ١٤٢٩هـ.

٥- الثقافة والعالم الآخر الأصول والضوابط، للدكتور عبد الله بن إبراهيم الطريفي، دار الوطن – الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.

٦- العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب لمحمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر– الرياض. الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٧- العلمانية منبع الضياع لعيد الدويهيس، بدون ناشر.

٨- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، للدكتور: سفر بن عبد الرحمن الحوالي مكتبة الطيب- القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٩- الكشكول للشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

١٠- المجموعة العلمية لبكر عبد الله أبو زيد، دار العاصمة.

١١- اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار لأنور الجندي، دار الاعتصام.

١٢- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت.

١٣- إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام لأنور الجندي، دار الاعتصام – القاهرة. إيداع ١٩٨٥م.

١٤- آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي عرض ونقد، إعداد: الدكتور إدريس حامد محمد، بدون ناشر.

١٥- سيد قطب الأديب الناقد لعبد الله عوض الخباص، دار المنار-الزرقاء - الأردن. الطبعة الأولى: ١٩٨٣م.

١٦- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، دار القلم - دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٧- شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي لتوفيق علي وهبة. منشورات دار اللواء- الرياض.

١٨- شطحات مصطفى محمود لعبد المتعال الجبري، دار الاعتصام- القاهرة.

١٩- عقائد وتيارات فكرية معاصرة، لمجموعة مؤلفين، دار قطري بن الفجاءة - الدوحة. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٢٠- قُرئ الضيف لعبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، دار أضواء السلف - الرياض. الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.

٢١- نحو ثقافة إسلامية أصيلة للدكتور عمر الأشقر، دار النفائس- الأردن. الطبعة الخامسة:١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

المجلات

١- مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، العدد ٢٩ ذو القعدة سنة ١٤١٠هـ.

٢- مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد(٥٢) سنة١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

٣- مجلة الكلية العليا للقرآن الكريم - صنعاء- العدد السابع سنة ٢٠٠٩م.

المحتويات

تم بحمد الله وتوفيقه
والحمد لله أولاً
وآخراً